# تهذيب

# شرح العقيدة الواسطية

للعلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى

هذّبه وأعدّه

أبو أيوب عمر بن سعيد بن عمر الحسني

hasaney8@gmail.com

hasaney8@hotmail.com

00966508513637

00967735544371

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة التهذيب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله الأمين وعلى آله وأصحابه الغر الميامين ومن اهتدى بهداهم وسار على طريقتهم إلى يوم الدين أما بعد :

فإنه لا يخفى على طلبة العلم ما لمتن العقيدة الواسطية من الأهمية البالغة في مجاله، وما لمؤلفه شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى من المكانة الراسخة في العلم والفهم، ثم جاء شرحه للعلامة الفطن محمد الصالح بن عثيمين رحمه الله تعالى فكان هذا الشرح نورا على نور، فيه هدى للمستهدي وكفاية للمقتدي.

ولكن لما كان الشيخ رحمه الله بحرا زاخرا في شتى العلوم وجدناه يتوسع في شرحه في التفسير واللغة والتاريخ بما يخرج أحيانا كثيرة عن مقصود المتن، مما قد يصعب على طالب العلم المبتدي فهمه، أو يشتت عقله.

وقد عانيت من هذا كثيرا في بداية الطلب فعقدت العزم والنية من يومها إن أحياني والله وأعانني لأهذبنّ هذا الشرح العظيم لهذا المتن العظيم ليسهل على طلبة العلم الانتفاع بما فيه من درر ونفائس قلّ أن تجدها في سواه من الشروح، وبقيت هذه النيّة تتردد بين الهمّ والعزم وبين الترك والنكوص بسبب كثرة المشاغل والأعمال . وما أبرئ نفسي من الكسل . حتى يسّر الله بمنّه وفضله ذلك في هذا العام ١٤٣٨هـ، وقد كان عملي في هذا التهذيب يتلخص فيما يلي:

١ . حذف الاستطراد الذي يتعلق باللغة العربية.

٢ . حذف الاستطراد في الأمثلة والاكتفاء بما يدل على المقصود.

٣ . حذف الاستطراد في الوعظ والتذكير وسرد الفوائد المسلكية .

٤ . حذف الاستطراد في التفسير وأوجه الخلاف فيه والاكتفاء بالقول الراجح.

٥ . حذف التلخيص الذي يذكره الشيخ آخر كل باب، والاكتفاء بالسرد السابق .

٦. حذف الأقوال والروايات الضعيفة التي لم تصح وأغلب المحذوفات مما يضعفه الشيخ نفسه.

٧ . إعادة صياغة بعض العبارات والجمل وضبط سبكها لتظهر بالمظهر الذي يليق بمكانة الشيخ العلمية، حيث أن الشيخ رحمه الله سرد هذا الشرح ارتجالا وتم تفريغه من دروس صوتية فجاءت بعض العبارات فيه ليست بالقوية.

٨- إعادة صياغة بعض العبارات والجمل ليتضح المراد منها، ولتسلم من الحشو والتكرار.

٩. إضافة بعض الكلمات والجمل التي لا بد من إضافتها ليتضح المقصود من الكلام، وليسهل فهم المراد منه.

١٠ . ضبط الكلمات التي تحتاج إلى ضبط بالشكل، لتتميز عن غيرها وليستبين معناها.

١١ . إعادة تهذيب وتنسيق مناقشة المخالفين مع الحرص على الابقاء على مضمونها – وإن طالت – لفائدتها.

١٢ . جمع الكلام المتفرق عن الموضوع الواحد في مكان واحد مثل كلامه عن علو الله تعالى في آخر تفسير آية الكرسي فرددته في الباب الذي بوّبه بهذا.

١٣. نقل تخريج الشيخ سعد الصميل – جزاه الله خيرا – للأحاديث الشريفة بإيجاز واضافته في أصل الشرح.

١٤ . إعادة ترتيب المتن مع الشرح بما يتناسب معه من حيث التبويب والترتيب.

١٥ . إعادة تبويب مادة الشرح بما يكفل الوصول إلى الفائدة بيسر وسهولة، ووضع فهرس للموضوعات في آخر هذا التهذيب للاستدلال على مكان الموضوع بأسرع وقت ممكن.

١٦ . مقابلة المتن على نسخة مصححة، وتصحيح ما يحتاج منها إلى تصحيح، وإضافة ما سقط من النسخة التي بنى عليها الشيخ رحمه الله شرحه.

هذا وقد كان غاية القصد والمراد منه نفع نفسي ليسهل علي الرجوع اليه والاستفادة منه متى ما احتجت إلى ذلك وكثيرة هي، ثم نفع من انتفع به من إخواني طلبة العلم، راجيا من الله التوفيق والقبول والعون والسداد، وأن يغفر للماتِن والشارِح والمهذِّب ومن أحبّهم ودعا لهم، وأن يجمع الجميع مع آبائهم وأزواجهم وذرياتهم وأحبابهم في الفردوس الأعلى من جنات النعيم.

وصل اللهم وسلم على عبدك ونبيك محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

كتبه: أبو أيوب عمر بن سعيد بن عمر الحسني

تمام الحادية عشرة ضحى من يوم الأحد ١٤٣٨/٠٥/٢٢هـ

أم الخبر . بيش

## مقدمة الشارح رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإن هذا الكتاب الذي يسمى "العقيدة الواسطية" ألفه حبر الأمة في زمانه: أبو العباس، شيخ الإسلام، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، رحمه الله، المتوفى سنة ٧٢٨ هـ.

ولهذا الرجل من المقامات ـ التي يشكر عليها والتي نرجو من الله له المثوبة عليها ـ في الدفاع عن الحق ومهاجمة أهل الباطل ما يعلمه كل من تتبع كتبه وسبرها، والحقيقة أنه من نعم الله على هذه الأمة، لأن الله سبحانه وتعالى كف به أموراً عظيمة خطيرة على العقيدة الإسلامية.

وهذا الكتاب كتاب مختصر، يسمى "العقيدة الواسطية"، ألفه شيخ الإسلام، لأنه حضر إليه رجل من قضاة واسط، شكا إليه ما كان الناس يعانونه من المذاهب المنحرفة فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته، فكتب هذه العقيدة التي تُعدُّ زبدة لعقيدة أهل السنة والجماعة فيما يتعلق بالأمور التي خاض الناس فيها بالبدع وكثر فيها الكلام والقيل والقال.

ومن جملة الذين بينوا البدع وقاموا قياماً تاماً بدحضها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وأسأل الله لي ولكم أن يجمعنا به في جنات النعيم.

# شرح مقدمة ابن تيمية رحمه الله

قول المؤلف رحمه الله "**بسم الله الرحمن الرحيم**".

الشرح : البداية بالبسملة هي شأن جميع المؤلفين، اقتداء بكتاب الله، حيث أنزل البسملة في ابتداء كل سورة واستناداً إلى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وهي متعلقة بفعل محذوف متأخر مناسب للمقام، فإذا قدمتها بين يدي الأكل، فيكون التقدير: بسم الله آكل، وبين يدي القراءة يكون التقدير: بسم الله اقرأ.

"**الله**" علم على نفس الله عز وجل، ولا يسمى به غيره ومعناه: المألوه، أي: المعبود محبة وتعظيماً وهو مشتق على القول الراجح لقوله تعالى:{وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ} [الأنعام: ٣]، فإن {فِي السَّمَاوَاتِ} متعلق بلفظ الجلالة، يعني: وهو المألوه في السموات وفي الأرض.

"**الرحمن**" ذو الرحمة الواسعة، "**الرحيم**": اسم يدل على الفعل، فيجتمع من "الرحمن الرحيم": أن رحمة الله واسعة وأنها واصلة إلى الخلق.

وهذا ما أومأ إليه بعضهم بقوله: الرحمن رحمة عامة والرحيم رحمة خاصة بالمؤمنين.

ولما كانت رحمة الله للكافر رحمة خاصة في الدنيا فقط كانت كأنها لا رحمة لهم.

قوله: "**الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً**".

الشرح: يُحمدُ الله تعالى لأنه كامل الصفات من كل وجه، ويُحمدُ أيضاً لأنه كامل الأنعام والإحسان: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} [النحل: ٥٣]، وأكبر نعمة أنعم الله بها على الخلق إرسال الرسل الذي به هداية الخلق.

والمراد بالرسول هنا الجنس، فإن جميع الرسل أرسلوا بالهدى ودين الحق، ولكن الذي أكمل الله به الرسالة محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه قد ختم الله به الأنبياء، وتم به البناء، كما وصف محمد صلى الله عليه وسلم نفسه بالنسبة للرسل كرجل بنى قصراً وأتمه، إلا موضع لبنة، فكان الناس يأتون إلى هذا القصر ويتعجبون منه إلا موضع هذه اللبنة، يقول: "فأنا اللَبِنَة، وأنا خاتم النبيين". (متفق عليه).

"**بالهدى**": هو العلم النافع ، "**ودين الحق**" هو العمل الصالح، لأن الدين هو العمل أو الجزاء على العمل، فمن إطلاقه على العمل: قوله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ} [آل عمران: ١٩]، ومن إطلاقه على الجزاء قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ} [الانفطار: ١٧].

"**الحق**" ضد الباطل، وهو . أي الحق . المتضمن لجلب المصالح ودرء المفاسد في الأحكام والأخبار.
"**ليظهره على الدين كله**": أي: يعليه، لأن الظهور بمعنى العلو، ومنه: ظهر الأرض سطحها، كما قال تعالى:{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ}[فاطر: ٤٥].

"**وكفى بالله شهيداً**" أي: وكفت شهادة الله بأن رسوله صادق وأن دينه حق.

قوله: "**وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده، لا شريك له، إقراراً به وتوحيداً**".

الشرح: "**أشهد**"، بمعنى: أقر بقلبي ناطقاً بلساني، لأن الشهادة نطق وإخبار عما في القلب، فكأن هذا المخبر عما في قلبه الناطق بلسانه، كأنه يشاهد الأمر بعينه.

"**لا إله إلا الله**"، أي: لا معبود حق إلا الله.

"**وحده لا شريك له**": "وحده" توكيد للإثبات، "لا شريك له": توكيد للنفي.

"**إقراراً به وتوحيداً**": مصدر مؤكد لقوله: "لا إله إلا الله".

قوله: "**وأشهد أن محمداً عبده ورسوله**".

الشرح: "**محمد**": هو ابن عبد الله بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم، أشرف الناس نسباً، عليه الصلاة والسلام.

"**عبده**": هذا النبي الكريم عبد الله ورسوله، وهو أعبد الناس لله، وأشدهم تحقيقاً لعبادته، فهو عبد لله ومقتضى عبوديته أنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً وليس له حق في الربوبية إطلاقاً بل هو عبد محتاج إلى الله مفتقر له يسأله ويدعوه ويرجوه ويخافه.

"**ورسوله**": الرسول عند أهل العلم: "من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه"، وقد ختم الله بنبينا صلى الله عليه وسلم النبوة والرسالة فلا نبي بعده.

قوله: " **صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً مزيداً** ".

الشرح: "**صلى الله عليه** ": أحسن ما قيل فيه ما قاله أبو العالية رحمه الله، قال: "صلاة الله على رسوله: ثناؤه عليه في الملأ الأعلى" (رواه البخاري).

وأما من فسر صلاة الله عليه بالرحمة، فقوله ضعيف، لأن الرحمة تكون لكل أحد، وأيضاً، فقد قال الله تعالى: {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ} [البقرة: ١٥٧]، والعطف يقتضي المغايرة.

"**وعلى آله**" آله هنا: هم أتباعه على دينه، لأنه إذا ذكرت الآل وحدها أو مع الصحب، فإنها تكون بمعنى أتباعه على دينه منذ بعث إلى يوم القيامة، أما إذا قرنت بالأتباع فيكون الآل هم المؤمنون من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

"**وصحبه**" كل من اجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم مؤمناً به ومات على ذلك.

"**وسلم**": فيها السلامة من الآفات، وفي الصلاة حصول الخيرات، فجمع المؤلف في هذه الصيغة بين سؤال الله تعالى أن يحقق لنبيه الخيرات . وأخصها: الثناء عليه في الملأ الأعلى . وأن يزيل عنه كل الآفات، وكذلك من اتبعه.

"**تسليما مزيداً**" أي: تسليماً زائداً على الصلاة.

قوله: "**أمّا بعد؛ فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة؛ أهل السنة والجماعة**".

الشرح: "**الاعتقاد**": هو حكم الذهن الجازم، فإن طابق الواقع، فصحيح، وإن خالف الواقع، ففاسد.

فاعتقادنا أن الله إله واحد صحيح، واعتقاد النصارى أن الله ثالث ثلاثة باطل، لأنه مخالف للواقع.

"**الفِرقة**": الطائفة، قال الله تعالى:{فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ} [التوبة: ١٢٢].

"**الناجية**": أي ناجية في الدنيا من البدع سالمة منها، وناجية في الآخرة من النار، ووجه ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة" قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: "من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي" (رواه الترمذي) فمن كان على مثل ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فهو ناجٍ من البدع، وقوله: "كلها في النار إلا واحدة": إذا هي ناجية من النار.

" **المنصورة**": عبر المؤلف بذلك موافقة للحديث، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين" (متفق عليه)، والظهور الانتصار، لقوله تعالى: {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [الصف: ١٤].

"**إلى قيام الساعة**" أي: إلى يوم القيامة، فهي منصورة إلى قيام الساعة.

وهنا يرد إشكال وهو: أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر بأن الساعة تقوم على شرار الخلق (رواه مسلم)، وأنه لا تقوم حتى لا يقال: الله الله" (رواه مسلم)، فكيف تجمع بين هذا وبين قوله: "إلى قيام الساعة"؟!

والجواب: أن يقال: أن المراد: إلى قرب قيام الساعة، لقوله في الحديث: "حتى يأتي أمر الله" (متفق عليه). وإنما لجأنا إلى هذا التأويل لدليل، والتأويل بدليل جائز، لأن الكل من عند الله.

"**أهل السنة والجماعة**": أضافهم إلى السنة: لأنهم متمسكون بها، وإلى الجماعة: لأنهم مجتمعون عليها، فإن قلت: كيف يضيفهم إلى الجماعة، فكيف يضاف الشيء إلى نفسه؟

فالجواب: أن معنى أهل الجماعة، أي: أهل الاجتماع، ولهذا لم تفترق هذه الفرقة كما افترق أهل البدع، وإن كان قد يحصل بينهم خلاف، فهو خلاف لا يضر، ولا يضلل أحدهم الآخر به.

## بيان الإيمان وأركانه

قوله: "**وهو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره**".

الشرح: هذه العقيدة أصلها لنا النبي صلى الله عليه وسلم في جواب جبريل عليه السلام حين سأله: ما الإسلام؟ ما الإيمان؟ ما الإحسان؟ متى الساعة؟ فقال له في الإيمان: "أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره" (رواه مسلم).

"**الإيمان بالله**": الإيمان في اللغة: الإقرار بالشيء عن تصديق به، فالإيمان يتضمن معنى زائداً على مجرد التصديق، وهو الإقرار والاعتراف المستلزم للقبول للأخبار والإذعان للأحكام.

والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور:

١ – الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى.

٢ – الإيمان بانفراده بالربوبية.

٣ – الإيمان بانفراده بالألوهية.

٤ – الإيمان بأسمائه وصفاته.

وإن كان الأخير فيه من يُسلَب عنه الإيمان بالكلية، وفيه من يُسلَب عنه كمال الإيمان.

"**وملائكته**": الملائكة عالم غيبي، خلقهم الله عز وجل من نور، وجعلهم طائعين له متذللين له، ولكل منهم وظائف خصه الله بها وهم خاضعون لله عز وجل أتم الخضوع، {لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦]، وهم أجساد، بدليل قوله تعالى: {جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ} [فاطر، ١]، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل على صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح قد سد الأفق (رواه البخاري) ،خلافاً لمن قال: إنهم أرواح.

إذا قال قائل: هل لهم عقول؟ نقول له: نعم، قال الله تعالى: {لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦]، وقال تعال: {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ} [الأنبياء: ٢٠] فهم يأتمرون بأمر الله، ويفعلون ما أمر الله به ويبلغون الوحي.

كذلك نؤمن بأسماء من علمنا بأسمائهم ونؤمن بوظائف من علمنا بوظائفهم ويجب علينا أن نؤمن بذلك على ما عُلمنا.

"**وكتبه**" أي: كتب الله التي أنزلها مع الرسل، ولكل رسول كتاب، قال الله تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ} [الحديد: ٢٥]، لكن لا نعرف كل الكتب، بل نعرف منها: صحف إبراهيم وموسى، التوراة، الإنجيل، الزبور، القرآن، هذه ستة، لأن صحف موسى بعضهم يقول: هي التوراة، وبعضهم يقول: غيرها، فإن كانت التوراة فهي خمسة، وإن كانت غيرها فهي ستة، ولكن مع ذلك نحن نؤمن بكل كتاب أنزله الله على الرسل، وإن لم نعلم به، نؤمن به إجمالاً.

"**ورسله**" وهم الذين أوحى الله إليهم بالشرائع وأمرهم بتبليغها، وأولهم نوح وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم، والدليل على أن أولهم نوح: قوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} [النساء: ١٦٣]، وقوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [الحديد: ٢٦]، ومن السنة ما ثبت في حديث الشفاعة: "أن أهل الموقف يقولون لنوح عليه السلام: أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض" (متفق عليه)، وهذا صريح.

أما آدم عليه الصلاة والسلام، فهو نبي وليس برسول، وآخرهم محمد عليه الصلاة والسلام، لقوله تعالى: {وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب: ٤٠].

"**والبعث بعد الموت**" البعث هو إخراج الناس من قبورهم بعد موتهم، وهذا ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين، بل وبإجماع اليهود والنصارى، حيث يقرون بأن هناك يوماً يبعث الناس فيه ويجازون وسيأتي الكلام عليه في بابه بإذن الله.

"**والإيمان بالقدر**" : القدر هو: "تقدير الله عز وجل للأشياء"، وقد كتب الله مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة (رواه مسلم)، كما قال الله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [الحج: ٧٠].

"**خيره وشره**": أما وصف القدر بالخير، فالأمر فيه ظاهر، وأما وصفه بالشر فالمراد به شر المقدور لا شر القدر الذي هو فعل الله، فإن فعل الله عز وجل ليس فيه شر، كل أفعاله خير وحكمة، ولكن الشر في مفعولاته ومقدوراته، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: "والشر ليس إليك" (رواه مسلم)، فمثلاً، نحن

نجد في المخلوقات المقدورات شراً، ففيها الحيات والعقارب والسباع والأمراض والفقر والجدب وما أشبه ذلك، وكل هذه بالنسبة للإنسان شر، لأنها لا تلائمه، وفيها أيضاً المعاصي والفجور والكفر والفسوق والقتل وغير ذلك، وكل هذه شر، لكن باعتبار نسبتها إلى الله هي خير، لأن الله عز وجل لم يقدرها إلا لحكمة بالغة عظيمة، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، وعلى هذا يجب أن تعلم أن الشر الذي وصف به القدر إنما هو باعتبار المقدورات والمفعولات، لا باعتبار التقدير الذي هو تقدير الله وفعله.

ثم اعلم أيضاً أن هذا المفعول الذي هو شر قد يكون شراً في نفسه، لكنه خير من جهة أخرى، قال الله تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: ٤١]، النتيجة طيبة، وعلى هذا، فيكون الشر في هذا المقدور شراً إضافياً لا شراً حقيقياً، لأن هذا ستكون نتيجته خيراً.

ولنفرض حد الزاني مثلاً إذا كان غير محصن أن يجلد مئة جلدة ويسفر عن البلد لمدة عام، هذا لا شك أنه شر بالنسبة إليه، لأنه لا يلائمه، لكنه خير من وجه آخر لأنه يكون كفارة له، فهذا خير لأن عقوبة الدنيا أهون من عقوبة الآخرة، ومن خيره أنه ردع ونكال لغيره، فإن غيره لو همّ أن يزني وهو يعلم أنه سيفعل به مثل ما فعل بهذا، ارتدع، بل قد يكون خيراً له هو أيضاً، باعتبار أنه لن يعود إلى مثل هذا العمل الذي سبب له هذا الشيء.

أما بالنسبة للأمور الكونية القدرية، فهناك شيء يكون شراً باعتباره مقدوراً، كالمرض مثلاً، فالإنسان إذا مرض، فلا شك أن المرض شر بالنسبة له، لكن فيه خير له في الواقع بتكفير الذنوب، فقد يكون الإنسان عليه ذنوب ما كفرها الاستغفار والتوبة، لوجود مانع، مثلاً لعدم صدق نيته مع الله عز وجل فتأتي هذه الأمراض والعقوبات، فتكفر هذه الذنوب.

ومن خيره أن الإنسان لا يعرف قدر نعمة الله عليه بالصحة، إلا إذا مرض، فالصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفها إلا المرضى، فهذا أيضاً خير وهو أنك تعرف قدر النعمة.

## الإيمان بأسماء الله وصفاته

قوله: "**ومن الإيمان بالله: الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم**".

الشرح: "**بما وصف به نفسه**" ينبغي أن يقال: وسمى به نفسه، لكن المؤلف رحمه الله ذكر الصفة فقط: إما لأنه ما من اسم إلا ويتضمن صفة، أو لأن الخلاف في الأسماء خلاف ضعيف، لم ينكره إلاّ غلاة الجهمية والمعتزلة، فالمعتزلة يثبتون الأسماء، والأشاعرة والماتريدية يثبتون الأسماء، لكن يخالفون أهل السنة في أكثر الصفات.

"**في كتابه**": يعني: القرآن الكريم، وأضافه الله إليه لأنه كلامه سبحانه وتعالى، فهذا القرآن كلام الله، تكلم به حقيقة، وفي هذه الجملة مباحث:

المبحث الأول: أن من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه.

المبحث الثاني: أن صفات الله عز وجل من الأمور الغيبية، والواجب على الإنسان نحو الأمور الغيبية: أن يؤمن بها على ما جاءت في النصوص فيثبت ما تثبته ولا يتجاوزها، قال الإمام أحمد: "لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، لا يتجاوز القرآن والحديث".

المبحث الثالث: وجوب إجراء النصوص الواردة في الكتاب والسنة على ظاهرها، لا نتعداها.

المبحث الرابع: عموم كلام المؤلف يشمل كل ما وصف الله به نفسه من الصفات الذاتية المعنوية والخبرية والصفات الفعلية.

المبحث الخامس: أن العقل لا مدخل له في باب الأسماء والصفات، لأن مدار إثبات الأسماء والصفات أو نفيها على السمع.

"**وبما وصفه به رسوله**": ووصف رسول الله صلى الله عليه وسلم لربه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: إما القول مثل قوله في يمينه: "لا ومقلب القلوب" (رواه البخاري).

الثاني: وإما الفعل، مثل إشارته إلى السماء يستشهد الله على إقرار أمته بالبلاغ، وهذا في حجة الوداع في عرفة، خطب الناس، وقال: "ألا هل بلغت؟ " قالوا: نعم ثلاث مرات. قال "اللهم! أشهد" يرفع إصبعه إلى السماء، وينكتها إلى الناس (رواه مسلم)، فرفع إصبعه إلى السماء، هذا وصف الله تعالى بالعلو عن طريق الفعل.

وأحياناً يذكر الرسول عليه الصلاة والسلام من صفات الله بالقول ويؤكدها بالفعل، وذلك حينما تلا قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً} [النساء: ٥٨] فوضع إبهامه على أذنه اليمنى، والتي تليها على عينه وهذا إثبات للسمع والبصر بالقول والفعل (رواه ابو داود).

الثالث: وإما بالإقرار، وهو قليل بالنسبة لما قبله، مثل: إقراره الجارية التي سألها: "أين الله؟ " قالت: في السماء. فأقرها وقال: "أعتقها" (رواه مسلم).

قوله: " **من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل**".

الشرح: في هذه الجملة بيان صفة إيمان أهل السنة بصفات الله تعالى، فهم يؤمنون بها إيماناً خالياً من هذه الأمور الأربعة: التحريف والتعطيل، والتكييف، والتمثيل.

**فالتحريف**: التغيير وهو إما لفظي وإما معنوي، فالتحريف اللفظي يعني تغيير الشكل، والغالب أنه لا يقع إلا من جاهل، فمثلاً: فلا تجد أحداً يقول: "الحمد لله رب العالمين" بفتح الدال، إلا إذا كان جاهلاً .

لكن التحريف المعنوي هو الذي وقع فيه كثير من الناس ويسميه القائلون به تأويلاً، لكن ما ذهبوا إليه في الحقيقة تحريف، لأنه ليس عليه دليل صحيح، ولهذا عبر المؤلف رحمه الله بالتحريف دون التأويل مع أن كثيراً ممن يتكلمون في هذا الباب يعبرون بنفي التأويل، يقولون: من غير تأويل، لكن ما عبر به المؤلف أولى لوجوه أربعة:

الوجه الأول: أنه اللفظ الذي جاء به القرآن، فإن الله تعالى قال: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} [النساء: ٤٦]، والتعبير الذي عبر به القرآن أولى من غيره، لأنه أدل على المعنى.

الوجه الثاني: أنه أدل على الحال، وأقرب إلى العدل، فالمؤول بغير دليل ليس من العدل أن تسميه مؤولاً، بل العدل أن نصفه بما يستحق وهو أن يكون محرفاً.

الوجه الثالث: أن التأويل بغير دليل باطل، يجب البعد عنه والتنفير منه، واستعمال التحريف فيه أبلغ تنفيراً من التأويل، لأن التحريف لا يقبله أحد، لكن التأويل لين، تقبله النفس، وتستفصل عن معناه.

الوجه الرابع: أن التأويل ليس مذموماً كله لأن له معان متعددة:

فيكون بمعنى التفسير كما قال الله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} [آل عمران: ٧]، فامتدحهم بأنهم يعلمون التأويل، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: "اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل" (رواه أحمد).

ويكون بمعنى العاقبة والمآل كما قال الله تعالى: {هل ينظرون إلا تأويله} [الأعراف: ٥٣].

ويكون بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره وهو بهذا المعنى ينقسم إلى محمود ومذموم، فإن دل عليه دليل، فهو محمود ويكون من باب التفسير، وإن لم يدل عليه دليل فهو مذموم، ويكون من باب التحريف وليس من باب التأويل، وهذا الثاني هو الذي درج عليه أهل التحريف في صفات الله عز وجل، مثاله قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥]: ظاهر اللفظ أن الله تعالى استوى على العرش: استقر عليه، وعلا عليه، فإذا قال قائل: معنى {اسْتَوَى}: استولى على العرش، فنقول: هذا تأويل عندك لكنه تحريف في الحقيقة لأنه ما دل عليه دليل، بل الدليل على خلافه.

"**ولا تعطيل**": التعطيل هو إنكار ما أثبت الله لنفسه من الأسماء والصفات، سواء كان كلياً أو جزئياً، وسواء كان ذلك بتحريف أو بجحود، هذا كله يسمى تعطيلاً.

"**ومن غير تكييف**": التكييف: هو أن تذكر كيفية الصفة، ولهذا تقول: كيّف يكيف تكييفاً، أي ذكر كيفية الصفة، ولفظة التكييف: لم ترد في الكتاب والسنة، ولكن ورد ما يدل على النهي عنها.

ومعنى قولنا: "بدون تكييف": ليس معناه ألا نعتقد لها كيفية، بل نعتقد لها كيفية لكن المنفى علمنا بالكيفية، سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥]: كيف استوى؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه العرق، ثم رفع رأسه وقال: "الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عن بدعة" (رواه اللالكائي في شرح السنة).

فالسؤال عن الكيفية بدعة لأن الصحابة لما قال الله: {اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الأعراف: ٥٤]، عرفوا عظمة الله عز وجل، ومعنى الاستواء على العرش، وأنه لا يمكن أن تسأل: كيف استوى؟ لأنك لن تدرك ذلك فنحن إذا سئلنا فنقول: هذا السؤال بدعة.

والإمام مالك رحمه الله قال: "ما أراك إلا مبتدعاً" ثم أمر به فأخرج، لأن السلف يكرهون أهل البدع وكلامهم واعتراضاتهم وتقديراتهم ومجادلاتهم.

وهناك كلام للسلف يدل على أنهم يفهمون معاني ما أنزل الله على رسوله من الصفات، كما نقل عن الأوزاعي وغيرهم أنهم قالوا في آيات الصفات وأحاديثها: "أمروها كما جاءت بلا كيف" (أخرجه اللالكائي في شرح السنة)، وهذا يدل على أنهم يثبتون لها معنى من وجهين:

أولاً: أنهم قالوا: "أمروها كما جاءت" ومعلوم أنها ألفاظ جاءت لمعاني ولم تأت عبثاً، فإذا أمررناها كما جاءت، لزم من ذلك أن نثبت لها معنى.

ثانياً: قوله: "بلا كيف" لأن نفي الكيفية يدل على وجود أصل المعنى، لأن نفي الكيفية عن شيء لا يوجد لغو وعبث.

"**ولا تمثيل**" يعنى: ومن غير تمثيل، فأهل السنة يتبرؤون من تمثيل الله عز وجل بخلقه، لا في ذاته ولا في صفاته. والتمثيل هو: ذكر مماثل للشيء.

وعلى نفي التمثيل أدلة سمعية وأدلة عقلية: أولا الأدلة السمعية: تنقسم إلى قسمين: خبر، وطلب:

- فمن الخبر قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]، فالآية فيها نفي صريح للتمثيل وقوله: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً} [مريم: ٦٥]، فإن هذا وإن كان إنشاء، لكنه بمعنى الخبر، لأنه استفهام بمعنى النفي وقوله: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ} [الإخلاص: ٤]، فهذه كلها تدل على نفي المماثلة، وهي كلها خبرية.

- وأما الطلب، فقال الله تعالى: {فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً} [البقرة: ٢٢] أي: نظراء مماثلين. وقال: {فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ} [النحل: ٧٤].

فمن مثل الله بخلقه فقد كذب الخبر وعصى الأمر، ولهذا أطلق بعض السلف القول بالتكفير لمن مثل الله بخلقه، فقال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري رحمه الله: "من شبه الله بخلقه، فقد كفر" (رواه اللالكائي في شرح السنة)، لأنه جمع بين التكذيب بالخبر وعصيان الطلب.

وأما الأدلة العقلية على نفي التمثيل فمن وجوه:

أولاً: أن نقول لا يمكن التماثل بين الخالق والمخلوق بأي حال من الأحوال، ولو لم يكن بينهما من التباين إلا أصل الوجود لكان كافياً، وذلك أن وجود الخالق واجب فهو أزلي أبدي، ووجود المخلوق ممكن مسبوق بعدم ويلحقه فناء، فما كانا كذلك فلا يمكن أن يقال: إنهما متماثلان.

ثانياً: أنا نجد التباين العظيم بين الخالق والمخلوق في صفاته وفي أفعاله، في صفاته يسمع عز وجل كل صوت مهما خفي ومهما بعد، ولو كان في قعار البحار، لسمعه عز وجل، وقد أنزل الله قوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: ١]، تقول عائشة: "الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، إني لفي الحجرة وإنه ليخفى علي بعض حديثها" (رواه أحمد)، والله تعالى سمعها من على عرشه وبينه وبينها ما لا يعلم مداه إلا هو عز وجل، ولا يمكن أن يقول قائل: إن سمع الله مثل سمعنا.

ثالثاً: نقول: نحن نعلم أن الله تعالى مباين للخلق بذاته: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ} [البقرة: ٢٥٥]، {وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ} [الزمر: ٦٧]، ولا يمكن لأحد من الخلق أن يكون هكذا، فإذا كان مبايناً للخلق في ذاته، فالصفات تابعة للذات، فيكون أيضاً مبايناً للخلق في صفاته عز وجل.

رابعاً: نقول: إننا نشاهد في المخلوقات أشياء تتفق في الأسماء وتختلف في المسميات، يختلف الناس في صفاتهم: هذا قوي البصر وهذا ضعيفه، وهذا قوي السمع وهذا ضعيفه، هذا قوي البدن وهذا ضعيفه وهذا ذكر وهذا أنثى، وهكذا التباين في المخلوقات التي من جنس واحد، فما بالك بالمخلوقات المختلفة الأجناس؟ فالتباين بينها أظهر ولهذا لا يمكن لأحد أن يقول: إن لي يداً كيد الجمل، أو لي يداً كيد الذرة، أو لي يداً كيد الهر، لأن كل واحد من هذه المخلوقات له يد مختلفة عن الثاني، مع أنها متفقة في الاسم فنقول: إذا جاز التفاوت بين المسميات في المخلوقات مع اتفاق الاسم، فجوازه بين الخالق والمخلوق ليس جائزاً فقط، بل هو واجب.

وهناك دليل فطري: وذلك لأن الإنسان بفطرته بدون أن يلقن يعرف الفرق بين الخالق والمخلوق، ولولا هذه الفطرة ما ذهب يدعو الخالق.

سؤال :أيهما أولى: أن نعبر بالتشبيه، أو نعبر بالتمثيل؟

الجواب: بالتمثيل أولى لأمور:

أولاً: لأن القرآن عبّر به: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]، {فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً} [البقرة: ٢٢].

ثانياً: أن التشبيه عند بعض الناس يعني إثبات الصفات ولهذا يسمون أهل السنة: مشبهة، فإن قلنا: من غير تشبيه وهذا الرجل لا يفهم من التشبيه إلا إثبات الصفات، صار كأننا نقول له: من غير إثبات صفات.

ثالثاً: أن نفي التشبيه على الإطلاق غير صحيح، لأنه ما من شيئين من الأعيان أو من الصفات إلا وبينهما اشتراك من بعض الوجوه، والاشتراك نوع تشابه، فلو نفيت التشبيه مطلقاً، لكنت نفيت كل ما يشترك فيه الخالق والمخلوق في شيء ما، فمثلاً: السمع فيه اشتراك، لأن الإنسان له سمع، والخالق له سمع، لكن بينهما فرق، لكن أصل وجود السمع مشترك، فإذا قلنا: من غير تشبيه ونفينا مطلق التشبيه، صار في هذا إشكال.

سؤال: ما الفرق بين التكييف والتمثيل؟ الجواب: الفرق بينهما من وجهين:

الأول: أن التمثيل ذكر الصفة مقيدة بمماثل، فتقول يد فلان مثل يد فلان، والتكييف ذكر الصفة غير مقيدة بمماثل، مثل أن تقول: كيفية يد فلا كذا وكذا، وعلى هذا نقول: كل ممثل مكيّف، وليس كل مكيف ممثل فبينهما عموم وخصوص مطلق.

الثاني: أن الكيفية لا تكون إلا في الصفة والهيئة، والتمثيل يكون في ذلك وفي العدد، كما في قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} [الطلاق: ١٢]، أي: في العدد.

قوله: "**بل يؤمنون بأن الله سبحانه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]** ".

الشرح: أي: أهل السنة والجماعة يؤمنون بأن الله ليس كمثله شيء، كما قال عن نفسه: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، فهنا نفى المماثلة، ثم أثبت السمع والبصر فنفى العيب ثم أثبت الكمال، لأن نفي العيب قبل إثبات الكمال أحسن، ولهذا يقال: التخلية قبل التحلية.

وكلمة {شَيْءٌ} نكرة في سياق النفي فتعم كل شيء، ليس شيء مثله أبداً عز وجل .

وفي قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}: رد صريح على الممثلة الذين يثبتون أن الله سبحانه وتعالى له مثيل.

قوله: " **فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه**".

الشرح: أي: لا ينفي أهل السنة والجماعة عن الله ما وصف به نفسه، لأنهم متبعون للنص نفياً وإثباتاً، فكل ما وصف الله به نفسه يثبتونه على حقيقته، سواء كان من الصفات الذاتية أو الفعلية.

فالصفات الذاتية تنقسم إلى:

ذاتية معنوية: كالحياة والقدرة، والعلم وما أشبه ذلك.

ذاتية خبرية: وهي التي مسماها بالنسبة لنا أبعاض وأجزاء كاليد والوجه والعين.

وسميت كلا منها ذاتية: لأنها لا تنفصل ولم يزل الله ولا يزال متصفاً بها.

وسميت خبرية: لأنها متلقاة بالخبر، فلولا أن الله أخبرنا بها ما علمنا بذلك.

والصفات الفعلية: هي المتعلقة بمشيئته إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها.

"**ولا يحرفون الكلم عن مواضعه**" (الكلم): يراد به هنا كلام الله وكلام رسوله، لا يحرفونه عن مواضعه أي: عن مدلولاته، فمثلاً قوله تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: ٦٤]، يقولون: هي يد حقيقية ثابتة لله من غير تكييف ولا تمثيل، والمحرفون يقولون: قوته، أو نعمته.

قوله: "**ولا يلحدون في أسماء الله وآياته**".

الشرح: أفادنا المؤلف رحمه الله أن الإلحاد يكون في موضعين: في الأسماء وفي الآيات، وقد دل القرآن على هذا قال الله تعالى: {وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٨٠]، فأثبت الله الإلحاد في الأسماء، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا} [فصلت: ٤٠]، فأثبت الله الإلحاد في الآيات.

- فالإلحاد في الأسماء هو الميل فيها عما يجب، وهو أنواع:

النوع الأول: أن يسمي الله بما لم يسم به نفسه، كم سماه الفلاسفة علة فاعلة، وسماه النصارى: أباً، وكذلك لو سمى الله بأي اسم لم يسم به نفسه، فهو ملحد في أسماء الله، ووجه ذلك أن أسماء الله عز وجل توقيفية، فلا يمكن أن نثبت له إلا ما ثبت بالنص، فإذا سميت الله بما لم يسم به نفسه، فقد ألحدت وملت عن الواجب.

النوع الثاني: أن ينكر شيئاً من أسمائه، سواء أنكر كل الأسماء أو بعضها مما هو ثابت لله، فإذا أنكرها فقد ألحد فيها، ووجه الإلحاد فيها حينئذٍ: أنه لما أثبتها الله لنفسه، وجب علينا أن نثبتها له، فإذا نفيناها كان إلحاداً وميلاً بها عما يجب فيها، كما فعل غلاة الجهمية إذ قالوا: ليس لله اسم أبداً! قالوا: لأنك لو أثبت له اسماً، شبهته بالموجودات، وهذا معروف أنه باطل مردود.

النوع الثالث: أن ينكر ما دلت عليه من الصفات، فهو يثبت الاسم لكن ينكر الصفة التي يتضمنها هذا الاسم، مثل أن يقول: إن الله سميع بلا سمع، وعليم بلا علم، وقادر بلا قدرة ... وهذا معروف عن المعتزلة.

النوع الرابع: أن يثبت الأسماء لله والصفات، لكن يجعلها دالة على التمثيل، أي دالة على بصر كبصرنا وعلم كعلمنا، ومغفرة كمغفرتنا ... وما أشبه ذلك، فهذا إلحاد، لأنه يميل بها عما يجب فيها، إذ الواجب إثباتها بلا تمثيل.

النوع الخامس: أن ينقلها إلى المعبودات، أو يشتق أسماء منها للمعبودات، مثل أن يسمي شيئاً معبوداً بالإله فهذا إلحاد، أو يشتق منها أسماء للمعبودات مثل: اللات من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، فنقول: هذا أيضاً إلحاد في أسماء الله.

- وأما الإلحاد في آيات الله تعالى، فآيات الله عز وجل تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية: فالآيات الكونية: ما يتعلق بالخلق والتكوين، مثال ذلك قوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} [فصلت: ٣٧] {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ} [الروم: ٢٠] {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ

بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ} [الروم: ٢٢ - ٢٥]، فهذه الآيات كونية قدرية، وكانت آية لله لأنه لا يستطيع الخلق أن يفعلوها.

والإلحاد فيها أن ينسبها إلى غير الله استقلالاً أو مشاركة أو إعانة، قال الله تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} [سبأ: ٢٢]، فنفى كل شيء يتعلق به المشركون بكون معبوداتهم لا تملك شيئاً في السماوات والأرض استقلالاً أو مشاركة ولا معينة لله عز وجل، ثم جاء بالرابع: {وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} [سبأ: ٢٣]، لما كان المشركون قد يقولون: نعم، هذه الأصنام لا تملك ولا تشارك ولم تعاون، لكنها شفعاء، قال: {وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ}، فقطع كل سبب يتعلق به المشركون.

وأما الآيات الشرعية: فهي ما جاءت به الرسل من الوحي، كالقرآن العظيم قال تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} [البقرة: ٢٥٢] {وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ} [العنكبوت: ٥٠ - ٥١]، فجعله آيات،

ويكون الإلحاد فيها إما بتكذيبها أو تحريفها أو مخالفتها:

فتكذيبها: أن يقول: ليست من عند الله فيكذب بها أصلاً، أو يكذب بما جاء فيها من الخبر مع تصديقه بالأصل، فيقول مثلاً: قصة أصحاب الكهف ليست صحيحة، وقصة أصحاب الفيل ليست صحيحة والله لم يرسل عليهم طيراً أبابيل.

وأما تحريفها فهو تغيير لفظها، أو صرف معناها عما أراد الله بها ورسوله، مثل أن يقول: استوى على العرش، أي: استولى، أو: ينزل إلى السماء الدنيا، أي: ينزل أمره.

وأما مخالفتها فبترك الأوامر أو فعل النواهي قال الله تعالى في المسجد الحرام: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الحج: ٢٥]، فكل المعاصي إلحاد في الآيات الشرعية، لأنه خروج بها عما يجب لها، إذ الواجب علينا أن نتمثل الأوامر وأن نجتنب النواهي، فإن لم نقم بذلك، فهذا إلحاد.

قوله: **"ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه؛ لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له، ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى"**.

الشرح: قد سبق الكلام على التكييف والتمثيل.

**"سبحانه"**: اسم مصدر سبح ومعنى (سبح): نزه، أصلها من السبح وهو البعد، كأنك تبعد صفات النقص عن الله عز وجل، فهو سبحانه وتعالى منزه عن كل نقص.

**"لا سمي له"**: السمي: هو المسامي، أي: المماثل، دليل ذلك قوله تعالى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً} [مريم: ٦٥]: {هَلْ} استفهام بمعنى النفي، ويأتي النفي بصيغة الاستفهام لفائدة عظيمة، وهي التحدي.

**"ولا كفء له"**: والدليل قوله تعالى: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ} [الإخلاص: ٤].
**"ولا ند له"**: الند بمعنى النظير، والدليل قوله تعالى: {فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٢]، أي: تعلمون أنه لا ند له.

وهذه الثلاثة ـ السمي والكفء والند ـ معناها متقارب جداً، والمقصود من هذا النفي كمال صفاته تعالى، لأنه لكمال صفاته لا أحد يماثله.

**"ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى"**: القياس ينقسم إلى ثلاثة أقسام: قياس شمول، وقياس تمثيل، وقياس أولوية:

١ – قياس الشمول: هو ما يعرف بالعام الشامل لجميع أفراده، بحيث يكون كل فرد منه داخلاً في مسمى ذلك اللفظ ومعناه، فمثلاً: إذا قلنا: الحياة، فإنه لا تقاس حياة الله تعالى بحياة الخلق من أجل أن الكل يشمله اسم (حي).

٢ – وقياس التمثيل: هو أن يلحق الشيء مثيله فيجعل ما ثبت للخالق مثل ما ثبت للمخلوق.
٣ – وقياس الأولوية: هو أن يكون الفرع أولى بالحكم من الأصل.

فهو سبحانه وتعالى لا يقاس بخلقه قياس تمثيل ولا قياس شمول، لكن يقول العلماء: إن قياس الأولوية مستعمل في حق الله، لقوله تعالى:{وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى} [النحل:٦٠]، بمعنى كل صفة كمال فلله تعالى أعلاها، والسمع والعلم والقدرة والحياة والحكمة وما أشبهها موجودة في المخلوقات، لكن لله أعلاها وأكملها.

ولهذا أحياناً نستدل بالدلالة العقلية من زاوية القياس بالأولى، فمثلاً: نقول: العلو صفة كمال في المخلوق، فإذا كان صفة كمال في المخلوق، فهو في الخالق من باب أولى.

قوله: "**فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه**".

الشرح: هذا تمهيد وتوطئة لوجوب قبول ما دل عليه كلام الله تعالى من صفاته وغيرها، وذلك أنه يجب قبول ما دل عليه الخبر إذا اجتمعت فيه أوصاف أربعة:

الوصف الأول: أن يكون صادراً عن علم، وإليه الإشارة بقوله: "**فإنه أعلم بنفسه وبغيره**" والدليل على هذا قوله تعالى: {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الإسراء: ٥٥]، فهو أعلم بنفسه وبغيره من غيره، فهو أعلم بك من نفسك، لأنه يعلم ما سيكون لك في المستقبل، وأنت لا تعلم ماذا تكسب غداً؟

الوصف الثاني: الصدق، وأشار إليه بقوله: "**وأصدق قيلاً**" ودليله قوله تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً}[النساء:١٢٢]، أي: لا أحد أصدق منه، والصدق مطابقة الكلام للواقع، ولا شيء من الكلام يطابق الواقع كما يطابقه كلام الله سبحانه وتعالى، فكل ما أخبر الله به، فهو صدق، بل أصدق من كل قول.

الوصف الثالث: البيان والفصاحة، وأشار إليه بقوله: "**وأحسن حديثاً**" ودليله قوله تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً} [النساء: ٨٧]وحسن حديثه يتضمن الحسن اللفظي والمعنوي.

الوصف الرابع: سلامة القصد والإرادة، بأن يريد المخبر هداية من أخبرهم ودليله قوله تعالى: {يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا} [النساء:١٧٦]، {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ} [النساء:٢٦].

فاجتمع في كلام الله الأوصاف الأربعة التي توجب قبول الخبر، ولذا يجب أن نقبل كلامه على ما هو عليه، وأن لا يلحقنا شك في مدلوله.

مثال ذلك: قوله تعالى مخاطباً إبليس: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥]، قال قائل: في هذه الآية إثبات يدين لله عز وجل يخلق بهما من شاء فنثبتهما، لأنه لا يمكن أن لا يكون له يدان وإنما أراد من الناس أن يعتقدوا ذلك فيه، ولو فرض هذا، لكان مقتضاه أن القرآن ضلال، حيث جاء بوصف الله بما ليس فيه، وهذا ممتنع، فإذا كان كذلك وجب عليك أن تؤمن بأن لله تعالى يدين اثنتين خلق بهما آدم عليه السلام.

فإذا قال قائل: أن المراد بهما النعمة أو القدرة، قلنا: لا يمكن أن يكون هذا هو المراد، إلا إذا اجترأت على ربك ووصفت كلامه بضد الأوصاف الأربعة التي سبقت، فنقول: هل الله عز وجل حينما قال: {بِيَدَيَّ}: عالم بأن له يدين؟ فسيقول: هو عالم.

فنقول: هل هو صادق؟ فسيقول: هو صادق بلا شك.

ولا يستطيع أن يقول: هو غير عالم، أو: غير صادق، ولا أن يقول: عبر بهما وهو يريد غيرهما عياً وعجزاً، ولا أن يقول: أراد من خلقه أن يؤمنوا بما ليس فيه من الصفات إضلالاً لهم!

فنقول له: إذاً، ما الذي يمنعك أن تثبت لله اليدين؟! فاستغفر ربك وتب إليه، وقل: آمنت بما أخبر الله به عن نفسه، لأنه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلاً، وأحسن حديثاً من غيره وأتم إرادة من غيره أيضاً. أما ما أخبرت به الرسل فقال المؤلف: **"ثم رسله صادقون مصدقون؛ بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون"**.

الشرح: الصادق: المخبر بما طابق الواقع، فكل الرسل صادقون فيما أخبروا به، ولهذا أجمع العلماء على أن الرسل عليهم الصلاة والسلام معصومون من الكذب.

**"مصدوقون"** أو: **"مصدّقون"**: نسختان: أما على نسخة "مصدوقون"، فالمعنى أن ما أوحي إليهم فهو صدق، والمصدوق: الذي أخبر بالصدق، والصادق: الذي جاء بالصدق، فالرسل مصدوقون فكل ما أوحي إليهم فهو صدق، ما كذَبهم الذي أرسلهم وهو الله جل وعلا، ولا كذَبهم الذي أُرسل إليهم وهو جبريل عليه الصلاة والسلام، {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} [التكوير: ١٩ - ٢١].

وأما على نسخة: **"مصدّقون"** فالمعنى أنه يجب على أممهم تصديقهم، وعلى هذا يكون معنى "مصدقون"، أي: شرعاً، يعني: يجب أن يصدقوا شرعاً، فمن كذب بالرسل أو كذبهم، فهو كافر.

ويجوز أن يكون "مصدّقون" له وجه آخر، أي: أن الله تعالى صدقهم، ومعلوم أن الله تعالى صدق الرسل بقوله وبفعله: أما بقوله: فإن الله قال لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام: {لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ} [النساء: ١٦٦]، {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ} [المنافقون: ١]، فهذا تصديق بالقول.

وأما تصديقه بالفعل فبالتمكين له وإظهار الآيات، وفتح الأرض عليه أرضاً بعد أرض حتى بلغت رسالته مشارق الأرض ومغاربها، فهذا تصديق من الله بالفعل.

**"بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون"**: فهؤلاء كاذبون أو ضالون، لأنهم قالوا مالا يعلمون.

وكأن المؤلف يشير إلى أهل التحريف، لأن أهل التحريف قالوا على الله مالا يعلمون من وجهين: قالوا: إنه لم يرد كذا، وأراد كذا! فقالوا في السلب والإيجاب بما لا يعلمون.

قوله: **"ولهذا قال سبحانه وتعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصافات: ١٨٠ – ١٨٣]**.

الشرح: أي: لأجل كمال كلامه وكلام رسله.

**{سُبْحَانَ رَبِّكَ}** أضاف الربوبية إلى محمد صلى الله عليه وسلم وهي ربوبية خاصة، من باب إضافة الخالق إلى المخلوق.

**{رَبِّ الْعِزَّةِ}** من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، ومعناها: صاحب العزة.

**{عَمَّا يَصِفُونَ}** يعني: عما يصفه المشركون.

**{وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ}** أي: على الرسل.

**{وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}**: حمد الله نفسه عز وجل بعد أن نزهها، لأن في الحمد كمال الصفات، وفي التسبيح تنزيه عن العيوب، فجمع في الآية بين التنزيه عن العيوب بالتسبيح، وإثبات الكمال بالحمد.

قوله: "**فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب**".

الشرح: معنى هذه الجملة واضح.

قوله: "**وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات**".

الشرح: بين المؤلف رحمه الله في هذه الجملة أن الله تعالى جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات، وذلك لأن تمام الكمال لا يكون إلا بثبوت صفات الكمال وانتفاء ما يضادها من صفات النقص، فأفادنا رحمه الله أن الصفات قسمان:

١ – صفات مثبتة: وتسمى عندهم: الصفات الثبوتية، وهي : كل ما أثبته الله لنفسه، وكلها صفات كمال، ليس فيها نقص بوجه من الوجوه، ومن كمالها أنه لا يمكن أن يكون ما أثبته دالاً على التمثيل، لأن المماثلة للمخلوق نقص.

وإذا فهمنا هذه القاعدة، عرفنا ضلال أهل التحريف، الذين زعموا أن الصفات المثبتة تستلزم التمثيل، ثم أخذوا ينفونها فراراً من التمثيل.

٢ – صفات منفية: ويسمونها: الصفات السَّلبية، من السَّلب وهو النفي، ولا حرج من أن نسميها سَلبية، وإن كان بعض الناس توقف وقال: لا نسميها سَلبية، بل نقول: منفية، فنقول: ما دام السَّلب في اللغة بمعنى النفي، فالاختلاف في اللفظ لا يضر.

والصفات المنفية كثيرة ولكن الإثبات أكثر، لأن صفات الإثبات كلها صفات كمال، وكلما تعددت وتنوعت ظهر من كمال الموصوف ما هو أكثر، وصفات النفي قليلة لأن النفي لا يرد في صفات الله عز وجل إلا على سبيل العموم كقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، أي في علمه وقدرته وسمعه وبصره وعزته وحكمته ورحمته.

أو يأت النفي على سبيل الخصوص لسبب، كقوله {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ} [المؤمنون: ٩١]، رداً لقول من قال: إن لله ولداً.

فتبين بهذا أن النفي لا يرد في صفات الله عز وجل إلا على سبيل العموم أو على سبيل الخصوص لسبب، لأن صفات السلب لا تتضمن الكمال إلا إذا كانت متضمنة لإثبات، ولهذا نقول: الصفات السلبية التي نفاها الله عن نفسه متضمنة لثبوت كمال ضدها، فقوله {وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ}[ق: ٣٨] متضمن كمال القوة والقدرة، وقوله: {وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً} [الكهف: ٤٩]: متضمن لكمال العدل، وقوله: {وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة: ٨٥]: متضمن لكمال العلم والإحاطة .. وهلم جراً

فإذا قال قائل: هل الصفات توقيفية كالأسماء، أو هي اجتهادية، بمعنى هل يصح لنا أن نصف الله سبحانه وتعالى بشيء لم يصف به نفسه؟.

فالجواب أن نقول: إن الصفات توقيفية على المشهور عند أهل العلم كالأسماء، فلا تصف الله إلا بما وصف به نفسه.

وحينئذ نقول: الصفات تنقسم إلى ثلاثة أقسام:: صفة كمال مطلق، وصفة كمال مقيد، وصفة نقص مطلق.

أما صفة الكمال على الإطلاق، فهي ثابتة لله عز وجل، كالمتكلم، والفعال لما يريد، والقادر .. ونحو ذلك.

وأما صفة الكمال بقيد، فهذه لا يوصف الله بها على الإطلاق إلا مقيداً، مثل: المكر، والخداع، والاستهزاء.. وما أشبه ذلك، فهذه الصفات كمال بقيد، إذا كانت في مقابلة من يفعلون ذلك فهي كمال، وإن ذكرت مطلقة فلا تصح بالنسبة لله عز وجل، ولهذا لا يصح إطلاق وصفه بالماكر أو المستهزئ أو الخادع، بل تقيد فنقول: ماكر بالماكرين، مستهزئ بالمنافقين، خادع للمنافقين، كائد للكافرين، فتقيدها لأنها لم تأت إلا مقيدة.

وأما صفة النقص على الإطلاق، فهذه لا يوصف الله بها بأي حال من الأحوال، كالعاجز والخائن والأعمى والأصم، لأنها نقص على الإطلاق، فلا يوصف الله بها وانظر إلى الفرق بين خادع وخائن، قال الله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [النساء: ١٤٢]، فأثبت خداعه لمن خادعه لكن قال في الخيانة: {وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ} [الأنفال: ٧١] ولم يقل: فخانهم، لأن الخيانة خداع في مقام الائتمان، والخداع في مقام الائتمان نقص، وليس فيه مدح أبداً.

وأما الصفات المأخوذة من الأسماء فهي كمال بكل حال ويكون الله عز وجل قد أتصف بمدلولها، وهي مثبتة لله على سبيل الإطلاق، فالسمع صفة كمال دل عليها اسمه السميع، وهذه تجعلها قسماً منفصلاً، لأنه ليس فيها تفصيل.

إذا قال قائل: فهمنا الصفات وأقسامها، فما هو الطريق لإثبات الصفة مادمنا نقول: إن الصفات توقيفية؟ فنقول: هناك عدة طرق لإثبات الصفة:

الطريق الأول: دلالة الأسماء عليها، لأن كل اسم، فهو متضمن لصفة ولهذا فإن كل اسم من أسماء الله دال على ذاته وعلى الصفة التي اشتق منها.

الطريق الثاني: أن ينص على الصفة، مثل الوجه، واليدين، والعينين ... وما أشبه ذلك، فهذه بنص من الله عز وجل، ومثل الانتقام، فقال عنه تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} [إبراهيم: ٤٧].

وليس من أسماء الله المنتقم، خلافاً لما يوجد في بعض الكتب التي فيها عد أسماء الله، لأن الانتقام ما جاء إلا على سبيل الوصف أو اسم الفاعل مقيداً، كقوله: {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ} [السجدة: ٢٢].
الطريق الثالث: أن تؤخذ من الفعل، مثل: المتكلم، فنأخذها من {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً} [النساء: ١٦٤]، وبناء على ذلك نقول: الصفات أعم من الأسماء، لأن كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة متضمنة لاسم.

والواجب علينا نحو هذه الصفات التي أثبتها الله لنفسه والتي نفاها أن نقول: سمعنا وصدقنا وآمنا.

هذه هي الصفات فيها مثبت وفيها منفي، وأما الأسماء فكلها مثبتة، لكن من أسماء الله تعالى المثبتة ما يدل على معنى إيجابي وهي كثيرة جدا، ومنها ما يدل على معني سلبي مثل: السلام. لأن معناه: السالم من كل عيب، إذاً، فمدلوله سلبي، بمعنى: ليس فيه نقص ولا عيب، وكذلك القدوس لأن معناه المنزه عن كل نقص وعيب.

وهذا هو مورد التقسيم في النفي والإثبات بالنسبة لأسماء الله، فصارت عبارة المؤلف سليمة وصحيحة لأنه لا يريد بالنسبة للأسماء أن هناك أسماء منفية، لأن الاسم المنفي ليس باسم لله، ولكن مراده أن مدلولات أسماء الله ثبوتية وسلبية.

قوله: "**فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون؛ فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين**".

الشرح: قوله: العدول معناه الانصراف والانحراف، وإنما جاء المؤلف بهذا النفي ليبين أنهم لكمال اتباع أهل السنة والجماعة فإنه لا يمكن أن يعدلوا عما جاءت به الرسل، فهم مستمسكون به تماماً، وغير منحرفين عنه إطلاقاً، وطريقتهم أنهم يقولون: سمعنا وأطعنا في الأحكام وسمعنا وصدقنا في الأخبار. "**عما جاء به المرسلون**": ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام واضح أننا لا نعدل عنه لأنه خاتم النبيين، وواجب على جميع العباد أن يتبعوه، لكن ما جاء عن غيره هل لأهل السنة والجماعة عدول عنه؟

الجواب : لا عدول لهم عنه، لأن ما جاء عن الرسل عليهم الصلاة والسلام في باب الأخبار لا يختلف، لأنهم صادقون ولا يمكن أن ينسخ لأنه خبر، فكل ما أخبرت به الرسل عن الله عز وجل، فهو مقبول وصدق ويجب الإيمان به.

فمثلاً: قول موسى لفرعون لما قال له: {قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى} [طه: ٥١ - ٥٢]، فنفى عن الله الجهل والنسيان، فنحن يجب علينا أن نصدق بذلك، لأنه جاء به رسول من الله، {قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: ٤٩ - ٥٠]، فلو سألنا سائل: من أين علمنا أن الله أعطى كل شيء خلقه؟ فنقول: من كلام موسى، فنؤمن بذلك، ونقول: أعطى كل شيء خلقه اللائق به، فالإنسان على هذا الوجه، والبعير على هذا الوجه، والبقرة على هذا الوجه، والضأن على هذا الوجه، ثم هدى كل مخلوق إلى مصالحه ومنافعه، فكل شيء يعرف مصالحه ومنافعه.

لكن يجب التنبيه إلى أن ما نسب للأنبياء السابقين يحتاج فيه إلى صحة النقل، لاحتمال أن يكون كذباً، كالذي نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولى.

وقد اختلف العلماء في الأحكام التي للرسل السابقين: هل هي أحكام لنا إذا لم يرد شرعنا بخلافها، أو ليست أحكاماً لنا؟، والصحيح أنها أحكام لنا، وأن ما ثبت عن الأنبياء السابقين من الأحكام، فهو لنا إلا إذا ورد شرعنا بخلافه، فإذا ورد شرعنا بخلافه فهو على خلافه، فمثلاً: السجود عند التحية جائز في شريعة

يوسف ويعقوب وبنيه، لكنه محرم في شريعتنا، وكذلك الإبل حرام على اليهود: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ} [الأنعام: ١٤٦] ولكن هي في شريعتنا حلال.

ولكن يبقى النظر: كيف نعرف أن هذا من شريعة الأنبياء السابقين؟

نقول: لنا في ذلك طريقان: الطريق الأول: الكتاب، والطريق الثاني: السنة. فما حكاه الله في كتابه عن الأمم السابقين، فهو ثابت وما حكاه النبي صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه فهو أيضاً ثابت، والباقي لا نصدقه ولا نكذبه، إلا إذا ورد شرعنا بتصديق ما نقله أهل الكتاب، فإننا نصدقه لا لنقلهم ولكن لما جاء في شريعتنا. وإذا ورد شرعنا بتكذيب أهل الكتاب فإننا نكذبهم فيه لأن شرعنا كذبهم فيه، فالنصارى يزعمون بأن المسيح ابن الله، فنقول: هذا كذب، واليهود يقولون: عزير ابن الله، فنقول: هذا كذب، لأن شرعنا قد دل على كذب هذا الادعاء.

"**فإنه الصراط المستقيم**": الضمير يعود على ما جاءت به الرسل، ويمكن أن يعود على طريق أهل السنة والجماعة وهو الاتباع وعدم العدول عنه، فما جاءت به الرسل وما ذهب إليه أهل السنة والجماعة وهو الاتباع وعدم العدول عنه: هو الصراط المستقيم، والصراط: هو كل طريق واسع ليس فيه صعود ولا نزول ولا اعوجاج، إذاً، فالطريق الذي جاءت به الرسل هو الصراط المستقيم الذي ليس فيه عوج ولا أمت، وليس فيه انحراف يميناً ولا شمالاً: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ} [الأنعام: ١٥٣].

"**صراط الذين أنعم الله عليهم**": أي طريقهم، وأضافه إليهم لأنهم سالكوه، فهم الذين يمشون فيه، كما أضافه الله إلى نفسه أحياناً: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} [الشورى: ٥٢ – ٥٣]، باعتبار أنه هو الذي شرعه ووضعه لعباده، وأنه موصل إليه، فهو صراط الله باعتبارين هما: أنه وضعه لعباده، وأنه موصل إليه، وصراط المؤمنين باعتبار واحد لأنهم هم الذين يسلكونه وحدهم.

"**أنعم الله عليهم**": النعمة: كل فضل وإحسان من الله عز وجل على عباده، ويبقى السؤال: من هم الذين أنعم الله عليهم؟

الجواب : فسرها تعالى بقوله: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ} [النساء: ٦٩]، فهؤلاء أربعة أصناف:

أولا: النبيون، وهم كل من أوحى الله إليهم ونبأهم فيشمل الرسل، لأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، وعلى هذا فيكون "النبيون" شاملاً للرسل أولي العزم وغيرهم، وهؤلاء أعلى أصناف الخلق.
ثانيا: الصديقون وأحسن ما يفسر به الصديق قوله تعالى: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ} [الزمر: ٣٣]، وقال تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ} [الحديد: ١٩]، فمن حقق الإيمان فهو صديق، وأفضل الصديقين على الإطلاق أبو بكر رضي الله عنه، لأن أفضل الأمم هذه الأمة، وأفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر رضي الله عنه.

والصديقية مرتبة تكون للرجال والنساء، قال الله تعالى في عيسى ابن مريم: {وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ} [المائدة: ٧٥]، ويقال: الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها، والله تعالى يمن على من يشاء من عباده.

ثالثا: الشهداء قيل: هم الذين قتلوا في سبيل الله، لقوله: {وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ} وقيل: العلماء، لقوله تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ} [آل عمران: ١٨]، فجعل أهل العلم شاهدين بما شهد الله لنفسه ولأن العلماء يشهدون للرسل بالبلاغ وعلى الأمة بالتبليغ ولو قال قائل: الآية عامة لمن قتلوا في سبيل الله تعالى وللعلماء، لأن اللفظ صالح للوجهين، ولا يتنافيان، فيكون شاملاً للذين قتلوا في سبيل الله وللعلماء الذين شهدوا لله بالوحدانية وشهدوا للنبي صلى الله عليه وسلم بالبلاغ وشهدوا على الأمة بأنها بلغت.

رابعا: الصالحون: وهم الذين قاموا بحق الله وحق عباده، ويشمل كل الأنواع الثلاثة السابقة ومن دونهم في المرتبة، فالأنبياء صالحون، والصديقون صالحون، والشهداء صالحون، فعطفها من باب عطف العام على الخاص، لكن لا على المرتبة السابقة: النبوة والصديقية والشهادة .، فهم دونهم في المرتبة.

قوله: "**وقد دخل في هذه الجملة ما وصف الله به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن، حيث يقول: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ} [الإخلاص: ١ – ٤]** ".

الشرح: (السورة): هي عبارة عن آيات من كتاب الله مسورة، أي منفصلة عما قبلها وعما بعدها، كالبناء الذي أحاط به السور.

"**سورة الإخلاص**": سميت بذلك، قيل: لأنها تتضمن الإخلاص لله عز وجل.

**"التي تعدل ثلث القرآن"**: الدليل قول النبي عليه الصلاة والسلام لأصحابه: "أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟". فشق ذلك عليهم وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: "الله الواحد الصمد ثلث القرآن" (متفق عليه)، فهذه السورة تعدل ثلث القرآن في الجزاء لا في الإجزاء، ولا يلزم من المعادلة في الجزاء المعادلة في الإجزاء، ولهذا، لو قرأ سورة الإخلاص في الصلاة ثلاث مرات، لم تجزئه عن قراءة الفاتحة.

قال العلماء: ووجه كونها تعدل ثلث القرآن: أن مباحث القرآن خبر عن الله وخبر عن المخلوقات، وأحكام، وسورة: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} تتضمن الخبر عن الله، وهذا هو أحسن ما قيل في كونها تعدل ثلث القرآن.

**"حيث يقول: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ}"**: **{قُلْ}**: الخطاب لكل من يصح خطابه، وسبب نزول هذه السورة: أن المشركين قالوا للرسول عليه الصلاة والسلام: صف لنا ربك؟ فأنزل الله هذه السورة (رواه أحمد وغيره).

ومعنى **{اللَّهُ}**: هو العلم على ذات الله، المختص بالله عز وجل، لا يتسمى به غيره وكل ما يأتي بعده من أسماء الله فهو تابع له إلا نادراً، ومعنى **{اللَّهُ}**: الإله، وإله بمعنى مألوه أي: معبود، لكن حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرة الاستعمال.

**{أَحَدٌ}**: تأتي في الإثبات موصوفاً بها الرب عز وجل لأنه سبحانه وتعالى أحد، أي: متوحد فيما يختص به في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، {أَحَدٌ} لا ثاني له ولا نظير له ولا ند له.

**{اللَّهُ الصَّمَدُ}**: هو الكامل في صفاته الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته، فهي صامدة إليه، وحينئذ يتبين لك المعنى العظيم في كلمة {الصَّمَدُ}: أنه مستغن عن كل ما سواه، كامل في كل ما يوصف به، وأن جميع ما سواه مفتقر إليه.

فلو قال لك قائل: إن الله استوى على العرش، هل استواؤه على العرش بمعنى أنه مفتقر إلى العرش بحيث لو أزيل لسقط؟ فالجواب: لا، كلا، لأن الله صمد كامل غير محتاج إلى العرش، بل العرش والسماوات والكرسي والمخلوقات كلها محتاجة إلى الله، والله في غنى عنها فنأخذه من كلمة {الصَّمَدُ}.
ولو قال قائل: هل الله يأكل أو يشرب؟ الجواب: كلا، لأن الله صمد.

"**{لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ}**": هذا تأكيد للصمدية والوحدانية، فهو لأحديته وصمديته لم يلد، لأن الولد يكون على مثل الوالد في الخلقة، في الصفة وحتى الشبه، والوالد محتاج إلى الولد بالخدمة والنفقة ويعينه عند العجز ويبقي نسله.

**{وَلَمْ يُولَدْ}** لأنه لو ولد، لكان مسبوقاً بوالد مع أنه جل وعلا هو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الخالق وما سواه مخلوق، فكيف يولد؟.

وإنكار أنه وُلد أبلغ من العقول من إنكار أنه والد ولهذا لم يدع أحد أن لله والداً، وادعى المفترون أن لله ولدا، وقد نفى الله هذا وهذا، وبدأ ينفي الولد لأهمية الرد على مدعيه بل قال: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ} [المؤمنون: ٩١]، حتى ولو بالتسمي، فهو لم يلد ولم يتخذ ولداً، بنو آدم قد يتخذ الإنسان منهم ولداً وهو لم يلده بالتبني أو بالولاية أو بغير ذلك، وإن كان التبني غير مشروع، أما الله عز وجل فلم يلد ولم يولد، ولما كان يرد على الذهن فرض أن يكون الشيء لا والداً ولا مولوداً لكنه متولد، نفى هذا الوهم الذي قد يرد، فقال: **{وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ}**، وإذا انتفى أن يكون له كفواً أحد، لزم أن لا يكون متولداً.

**{وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ}** أي: لا يكافئه أحد في جميع صفاته.

وفي هذه السورة من الصفات الثبوتية {اللَّهُ} التي تتضمن الألوهية، {أَحَدٌ} تتضمن الأحدية {الصَّمَدُ} تتضمن الصمدية، وفيها من الصفات السَّلبية: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ} وهذا النفي يتضمن من الإثبات كمال الأحدية والصمدية.

قوله: "**وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتاب الله حيث يقول: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: ٢٥٥]** ".

الشرح: هذه الآية تسمى آية الكرسي، لأن فيها ذكر الكرسي: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ} [البقرة: ٢٥٥]، وهي أعظم آية في كتاب الله، والدليل على ذلك: أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل أبي بن كعب، قال: "أي آية في كتاب الله أعظم؟ " فقال له: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} فضرب على صدره، وقال: "ليهنك العلم أبا المنذر" (رواه مسلم).

**{اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ}** ": يخبر الله بأنه منفرد بالألوهية، وذلك من قوله: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ ...}، لأن هذه جملة تفيد الحصر وطريقة النفي والإثبات هذه من أقوى صيغ الحصر.

**{الْحَيُّ}**: ذو الحياة الكاملة المتضمنة لجميع صفات الكمال لم تسبق بعدم، ولا يلحقها زوال، ولا يعتريها نقص بوجه من الوجوه، و{الْحَيُّ} من أسماء الله، وقد تطلق على غير الله، قال تعالى: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} [الأنعام: ٩٥]، ولكن ليس الحي كالحي، ولا يلزم من الاشتراك في الاسم التماثل في المسمى.

**{الْقَيُّومُ}** أي: أنه القائم بنفسه، فقيامه بنفسه يستلزم استغناءه عن كل شيء، لا يحتاج إلى أكل ولا شرب ولا غيرها، ومن معانى {الْقَيُّومُ} كذلك أنه قائم على غيره لقوله تعالى {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} [الرعد: ٣٣]، والقائم على كل نفس بما كسبت هو الله عز وجل، ولهذا يقول العلماء القيوم: هو القائم على نفسه القائم على غيره، وإذا كان قائماً على غيره، لزم أن يكون غيره قائماً به، قال الله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ} [الروم: ٢٥]، فهو إذاً كامل الصفات وكامل الملك والأفعال.

وهذان الاسمان **{الْحَيُّ الْقَيُّومُ }** هما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، ولهذا ينبغي للإنسان في دعائه أن يتوسل بهما فيقول: يا حي! يا قيوم!.

**{لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ}**: السنة: النعاس وهي مقدمة النوم، ولم يقل: لا ينام لأن النوم يكون باختيار، والأخذ يكون بالقهر، والنوم من صفات النقص، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: "إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام" (رواه مسلم).

والنوم صفة من الصفات المنفية وقد سبق أن صفات المنفية لا بد أن تتضمن ثبوتا وهو كمال الضد والكمال في قوله {لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ} كمال الحياة والقيومية، لأنه من كمال حياته أنه لا يحتاج إلى النوم، ومن كمال قيوميته أنه لا ينام، ولأن النوم إنما تحتاج إليه الكائنات الحية لنقصها، لأنها تحتاج إلى النوم من أجل الاستراحة من تعب سبق واستعادة القوة لعمل مستقبل، ولذا لما كان أهل الجنة كاملي الحياة كانوا لا ينامون، كما صحت بذلك الآثار.

**{لَهُ}**: اللام هذه للملك، وهو ملك تام بدون معارض.

**{مَا فِي السَّمَاوَاتِ}**: من الملائكة والجنة وغير ذلك مما لا نعلمه.

**{وَمَا فِي الأَرْضِ}**: من المخلوقات كلها الحيوان منها وغير الحيوان.

**{مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ}** الشفاعة هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة، فمثلاً: شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الموقف أن يقضى بينهم: هذه شفاعة بدفع مضرة، وشفاعته لأهل الجنة أن يدخلوها بجلب منفعة. **{عِنْدَهُ}** أي: عند الله. **{إِلاّ بِإِذْنِهِ}** أي: إذنه للشافع، وهذه تفيد إثبات الشفاعة، لكن بشرط أن يأذن الله له، ووجه ذلك أنه لولا ثبوتها لكان الاستثناء في قوله {إِلاّ بِإِذْنِهِ}: لغواً لا فائدة فيه.

وذكرها بعد قوله: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ...} يفيد أن هذا الملك الذي هو خاص بالله عز وجل، أنه ملك تام السلطان، بمعنى أنه لا أحد يستطيع أن يتصرف، ولا بالشفاعة التي هي خير إلا بإذن الله، وهذا من تمام ربوبيته وسلطانه عز وجل.

وتفيد هذه الجملة أن له إذناً، ومعنى {بِإِذْنِهِ}، أي: إعلامه بأنه راض بذلك.

وهناك شروط أخرى للشفاعة: منها: أن يكون راضياً عن الشافع وعن المشفوع له، قال الله تعالى: {وَلا يَشْفَعُونَ إِلاّ لِمَنِ ارْتَضَى} [الأنبياء: ٢٨]، وقال: {يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً} [طه: ١٠٩].

**{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}** العلم هو إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكاً جازماً، والله عز وجل {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} المستقبل، {وَمَا خَلْفَهُمْ} الماضي.

وكلمة {مَا} من صيغ العموم تشمل كل ماض وكل مستقبل، وتشمل أيضاً ما كان من فعله وما كان من أفعال الخلق.

**{وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاّ بِمَا شَاءَ}**: يعني لا يحيط من في السماوات والأرض بشيء من علم الله إلا بما شاء.

**{مِنْ عِلْمِهِ}**: يحتمل من علم ذاته وصفاته، يعني: أننا لا نعلم شيئاً عن الله وذاته وصفاته إلا بما شاء مما علمنا إياه، ويحتمل أن (علم) هنا بمعنى معلوم، يعني: لا يحيطون بشيء من معلومه، أي: مما يعلمه إلا بما شاءه، وكلا المعنيين صحيح، وقد نقول: إن الثاني أعم، لأن معلومه يدخل فيه علمه بذاته وبصفاته وبما سوى ذلك.

**{إِلاّ بِمَا شَاءَ}**: مما علمهم إياه، وقد علمنا الله تعالى أشياء كثيرة عن أسمائه وصفاته وعن أحكامه الشرعية، ولكن هذا الكثير هو بالنسبة لمعلومه قليل، كما قال الله تعالى: {وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّ قَلِيلاً} [الإسراء: ٨٥].

**{وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}**: يعني: أن كرسيه محيط بالسماوات والأرض وأكبر منها، لأنه لولا أنه أكبر منها ما وسعها، والكرسي، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "إنه موضع قدمي الله عز وجل" (رواه عبدالله بن أحمد في السنة، وابن ابي شيبة في العرش).

والكرسي ليس هو العرش، بل العرش أكبر من الكرسي وقد ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام: "أن السماوات والسبع والأرضين السبع بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وأن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة" (أخرجه ابن أبي شيبة في العرش والبيهقي في الاسماء والصفات)، وهذا يدل على عظم هذه المخلوقات وعظم المخلوق يدل على عظم الخالق.

**{وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا}**: أي: لا يثقله ويكرثه حفظ السماوات والأرض، وهذه من الصفات المنفية، والصفة الثبوتية التي يدل عليها هذا النفي هي كمال القدرة والعلم والقوة والرحمة.

**{وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}**: سيأتي الكلام على علو الله تعالى، وأما **{الْعَظِيمُ}** فمعناها: ذو العظمة، وهي القوة والكبرياء وما أشبه ذلك.

قول المؤلف: **"ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة، لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح"**.

الشرح: هذا طرف من حديث رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه في قصة استحفاظ النبي صلى الله عليه وسلم إياه على الصدقة، وأخذ الشيطان منها وقوله لأبي هريرة: "إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح" فأخبر أبو هريرة النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال: "إنه صدقك، وهو كذوب".

قول المؤلف: **"وقوله سبحانه وتعالى: {هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحديد:٣]"**.

الشرح: **"وقوله سبحانه"**: هذا معطوف على (سورة) في قول المؤلف: "ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص".

**{هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ}**: هذه أربعة أسماء كلها متقابلة في الزمان والمكان، تفيد إحاطة الله سبحانه وتعالى بكل شيء أولاً وآخراً وكذلك في المكان ففيه الإحاطة الزمانية والإحاطة المكانية.
**{الأَوَّلُ}**: فسره النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: "الذي ليس قبله شيء" (رواه مسلم)، وهنا فسر الإثبات بالنفي فجعل هذه الصفة الثبوتية صفة سلبية، وقد ذكرنا فيما سبق أن الصفات الثبوتية أكمل وأكثر، فلماذا؟ فنقول: فسرها النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، لتوكيد الأولية يعني أنها مطلقة، وليست أولية إضافية كما يقال: هذا أول باعتبار ما بعده وفيه شيء آخر قبله، فصار تفسيرها بأمر سلبي أدل على العموم باعتبار التقدم الزمني.

**{وَالآخِرُ}**: فسره النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: "الذي ليس بعده شيء" (رواه مسلم)، وهذا لئلا يتوهم أن هذا يدل على أن لآخريته غاية، لأن هناك أشياء أبدية وهي من المخلوقات كالجنة والنار وعليه فيكون معنى {وَالآخِرُ} أنه محيط بكل شيء، فلا نهاية لآخريته.

**{وَالظَّاهِرُ}**: من الظهور وهو العلو، وفسره النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: "الذي ليس فوقه شيء" (رواه مسلم). فهو عال على كل شيء.

**{وَالْبَاطِنُ}**: فسره النبي عليه الصلاة والسلام قال: "الذي ليس دونه شيء" (رواه مسلم)، وهذا كناية عن إحاطته بكل شيء، والمعنى أنه مع علوه عز وجل فهو باطن، فعلوه لا ينافي قربه عز وجل، فالباطن قريب من معنى القريب.

وتأمل هذه الأسماء الأربعة، تجد أنها متقابله، وكلها خبر عن مبتدأ واحد .

فإن قال قائل: هل هذه الأسماء متلازمة، بمعنى أنك إذا قلت: الأول، فلابد أن تقول: الآخر، أو: يجوز فصل بعضها عن بعض؟! الجواب: الظاهر أن المتقابل منها متلازم، فإذا قلت: الأول، فقل: الآخر، وإذا قلت: الظاهر، فقل: الباطن، لئلا تفوت صفة المقابلة الدالة على الإحاطة.

**{وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}**: هذا إكمال لما سبق من الصفات الأربع، يعني: ومع ذلك، فهو بكل شيء عليم، وهذه من صيغ العموم التي لم يدخلها تخصيص أبداً، وهذا العموم يشمل أفعاله وأفعال العباد الكليات والجزئيات، فعلم الله تعالى واسع شامل محيط لا يستثنى منه شيء.

قول المؤلف: "**وقوله سبحانه: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ} [الفرقان: ٥٨]** ".

الشرح : **{وَتَوَكَّلْ}**: مأخوذ من وكّل الشيء إلى غيره، أي: فوضه إليه، وعرف بعض العلماء التوكل على الله بأنه: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به سبحانه وتعالى، وفعل الأسباب الصحيحة.

وصدق الاعتماد: أن تعتمد على الله اعتماداً صادقاً، بحيث لا تسأل إلا الله، ولا تستعين إلا بالله، ولا ترجو إلا الله، ولا تخاف إلا الله، تعتمد على الله عز وجل بجلب المنافع ودفع المضار، ولا يكفي هذا الاعتماد دون الثقة به سبحانه، مع فعل السبب الذي أذن به.

والتوكل على الله هو شطر الدين، كما قال تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥]، والاستعانة بالله تعالى هي ثمرة التوكل، {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} [هود: ١٢٣]. ولهذا، فإن من توكل على غير الله لا يخلو من ثلاثة أقسام:

أولاً: أن يتوكل توكل اعتماد وتعبد، فهذا شرك أكبر، كأن يعتقد بأن هذا المتوكل عليه هو الذي يجلب له كل خير ويدفع عنه كل شر، فيفوض أمره إليه تفويضاً كاملاً في جلب المنافع ودفع المضار، مع اقتران ذلك بالخشية والرجاء، ولا فرق بين أن يكون المتوكل عليه حياً أو ميتاً، لأن هذا التفويض لا يصح إلا الله.

ثانياً: أن يتوكل على غير الله بشيء من الاعتماد لكن فيه إيمان بأنه سبب وأن الأمر إلى الله، كتوكل كثير من الناس على الملوك والأمراء في تحصيل معاشهم، فهذا نوع من الشرك الأصغر.

ثالثاً: أن يتوكل على شخص على أنه نائب عنه، وأن هذا المتوكل فوقه، كتوكل الإنسان على الوكيل في بيع وشراء ونحوهما مما تدخله النيابة، فهذا جائز، ولا ينافي التوكل على الله، وقد وكل النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في البيع والشراء ونحوهما.

**{عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ}**: الحي اسم يتضمن جميع الصفات الكاملة في الحياة، ومن كمال حياته عز وجل أنه أهل لأن يعتمد عليه.

**{الذي لا يَمُوتُ}**، يعني لكمال حياته لا يموت فيكون تعلقها بما قبلها المقصود به إفادة أن هذه الحياة كاملة لا يلحقها فناء.

قول المؤلف: "**وقوله: {وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [التحريم: ٢]** ".

الشرح : **{وَهُوَ الْعَلِيمُ}**: سبق الكلام عن العلم.

**{الْحَكِيمُ}** يكون بمعنى الحاكم، ويكون بمعنى المحكم، فهو يدل على أن الحكم لله، ويدل على أن الله موصوف بالحكمة لأن الإحكام هو الإتقان، والإتقان وضع الشيء في موضعه.

وحكم الله إما كوني وإما شرعي: فحكم الله الشرعي: ما جاءت به رسله ونزلت به كتبه من شرائع الدين، ودليله قوله تعالى: {ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ} [الممتحنة: ١٠].

وحكم الله الكوني: ما قضاه على عباده من الخلق والرزق والحياة والموت ونحو ذلك من معاني ربوبيته ومتقتضياتها، ودليله قوله تعالى عن أحد أخوة يوسف: {فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [يوسف: ٨٠].

وأما قوله تعالى: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}، فشامل للكوني والشرعي.

وقوله: " **{الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} [التحريم: ٢]** ".

الشرح: **{الْعَلِيمُ}**: سبق الكلام عليه.

**{الْخَبِيرُ}**: هو العليم ببواطن الأمور، فيكون هذا وصفاً أخص بعد وصف أعم، فنقول: العليم بظواهر الأمور، والخبير ببواطن الأمور، فيكون العلم بالبواطن مذكوراً مرتين: مرة بطريق العموم، ومرة بطريق الخصوص، لئلا يظن أن علمه مختص بالظواهر.

## تفصيل صفة العلم

ثم ذكر المؤلف رحمه الله أربع آيات في تفصيل صفة العلم:

الآية الأولى: قوله: **{يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} [سبأ: ٢]**.

الشرح: **{مَا}**: اسم موصول يفيد العموم، فيعمّ كل ما يلج في الأرض مثل المطر والحب يبذر في الأرض والموتى والدود والنمل وغيره.

**{وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا}** كالماء والزروع .. وما أشبه ذلك.

**{وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ}** مثل المطر والوحي والملائكة وأمر الله عز وجل.

**{وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا}** كالأعمال الصالحة والملائكة والأرواح والدعاء.

ففي هذه الآية ذكر الله عز وجل عموم علمه في كل شيء بنوع من التفصيل، ثم فصل في آية أخرى تفصيلاً آخر فقال:

الآية الثانية: **قوله: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٥٩]**.

الشرح: **{وَعِنْدَهُ}**: أي: عند الله وهو خبر مقدم {مَفَاتِحُ} مبتدأ مؤخر، ويفيد هذا التركيب الحصر والاختصاص، عنده لا عند غيره مفاتح الغيب وأكد هذا الحصر بقوله: {لا يَعْلَمُهَا إِلاّ هُوَ}.

**{الْغَيْبِ}**: المراد به: ما كان غائباً، والغيب المطلق علمه خاص بالله، فهذه المفاتح لا يعلمها إلا الله عز وجل، فلا يعلمها ملك، ولا يعلمها رسول، حتى إن أشرف الرسل الملكي وهو جبريل ـ سأل أشرف الرسل البشري ـ وهو محمد عليه الصلاة والسلام ـ قال: أخبرني عن الساعة؟ قال: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل" والمعنى: كما أنه لا علم لك بها، فلا علم لي بها أيضاً.

فمن ادعى علم الساعة فهو كاذب كافر، ومن صدقه، فهو أيضاً كافر، لأنه مكذب للقرآن.

وهذه المفاتح فسرها أعلم الخلق بكلام الله محمد صلى الله عليه وسلم حين قرأ: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: ٣٤] (رواه البخاري).

**{وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}** [الأنعام: ٥٩]: كم في البر من عالم الحيوان والحشرات والجبال والأشجار والأنهار أمور لا يعلمها إلا الله عز وجل، والبحر كذلك فيه من العوالم مالا يعلمه إلا خالقه عز وجل.

**{وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاّ يَعْلَمُهَا}**: فأي ورقة في أي شجرة صغيرة أو كبيرة قريبة أو بعيدة تسقط، فالله تعالى يعلمها، والورقة التي تخلق يعلمها من باب أولى، لأن عالم ما يسقط عالم بما يخلق عز وجل.

**{وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ}**: حبة صغيرة لا يدركها الطرف في ظلمات الأرض يعلمها عز وجل، ولنفرض أن حبة صغيرة غائصة في قاع البحر في ليلة مظلمة مطيرة، فالظلمات: أولاً: طين البحر. ثانياً: ماء البحر. ثالثاً: المطر. رابعاً: السحاب. خامساً: الليل، فهذه خمس ظلمات من ظلمات الأرض، ومع ذلك هذه الحبة يعلمها الله سبحانه وتعالى ويبصرها عز وجل.

**{وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ}**: هذا عام، فما من شيء إلا وهو إما رطب وإما يابس.

**{إِلاّ فِي كِتَابٍ}**: والمراد به: اللوح المحفوظ.

**{مُبِينٍ}** أي: مظهر وبين، فكل هذه الأشياء معلومة عند الله سبحانه وتعالى ومكتوبة عنده في اللوح المحفوظ، لأن الله تعالى "لما خلق القلم، قال له: اكتب قال القلم: ماذا أكتب؟ قال: أكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة" (رواه أحمد وأبو داود والترمذي)، فكتب في تلك اللحظة ما هو كائن إلى يوم القيامة.

الآية الثالثة: **قوله: {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلاّ بِعِلْمِهِ} [فاطر: ١١].**

الشرح: **{مِنْ أُنْثَى}**: يشمل أي أنثى، سواء آدمية أو حيوانية أخرى، ويدخل فيه ما يحمل حيواناً كالبقرة، والشاة وما أشبه ذلك، ويدخل فيه ما يحمل البيض، كالطيور، لأن البيض في جوف الطائر حمل. **{وَلا تَضَعُ إِلاّ بِعِلْمِهِ}** فابتداء الحمل بعلم الله، وانتهاؤه وخروج الجنين بعلم الله عز وجل.

الآية الرابعة: **قوله: {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً} [الطلاق: ١٢].**

الشرح: القدرة وصف يتمكن به الفاعل من الفعل بدون عجز، فهو على كل شيء قدير يقدر على إيجاد المعدوم وعلى إعدام الموجود، فالسماوات والأرض كانت معدومة، فخلقها الله عز وجل وأوجدها على هذا النظام البديع.

**{وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً}**: كل شيء، الصغير والكبير والمتعلق بفعله أو بفعل عباده والماضي واللاحق والحاضر، كل ذلك قد أحاط الله سبحانه به علماً، وذكر الله عز وجل العلم والقدرة بعد الخلق، لأن الخلق لا يتم إلا بعلم وقدرة.

**تنبيه:** ذكر في "تفسير الجلالين" ـ عفا الله عنا وعنه ـ في آخر سورة المائدة ما نصه "وخص العقل ذاته، فليس عليها بقادر"! ونحن نناقش هذا الكلام من وجهين:

الوجه الأول: أنه لا حكم للعقل فيما يتعلق بذات الله وصفاته، بل لا حكم له في جميع الأمور الغيبية، ووظيفة العقل فيها التسليم التام، وأن نعلم أن ما ذكره الله من هذه الأمور ليس محالاً، ولهذا يقال: إن النصوص لا تأتي بمحال وإنما تأتي بمحار، أي: بما يحير العقول، لأنها تسمع ما لا تدركه ولا تتصوره. والوجه الثاني: قوله: "فليس عليها بقادر": هذا خطأ عظيم، كيف لا يقدر على نفسه وهو قادر على غيره، فكلامه هذا يستلزم أنه لا يقدر أن يستوي ولا أن يتكلم ولا أن ينزل إلى السماء الدنيا ولا يفعل شيئاً أبداً وهذا خطير جداً!!

لكن لو قال قائل: لعله يريد: "خص العقل ذاته، فليس عليها بقادر"، يعني: لا يقدر على أن يلحق نفسه نقصاً قلنا: إن هذا لم يدخل في العموم حتى يحتاج إلى إخراج وتخصيص، لأن القدرة إنما تتعلق بالأشياء الممكنة، لأن غير الممكن ليس بشيء، لا في الخارج ولا في الذهن" فالقدرة لا تتعلق بالمستحيل، بخلاف العلم.

فينبغي للإنسان أن يتأدب فيما يتعلق بجانب الربوبية، لأن المقام مقام عظيم، والواجب على المرء نحوه أن يستسلم ويسلم، إذاً، نحن نطلق ما أطلقه الله، ونقول إن الله على كل شيء قدير، بدون استثناء.

وقوله: **{إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}: } [الذاريات: ٥٨]** ".

الشرح : **{الرَّزَّاقُ}**: الرزق هو العطاء، وجاء التعبير بالرزّاق ولم يقل: الرازق لكثره رزقه ولكثرة من يرزقه، فالذي يرزقه الله عز وجل لا يحصى باعتبار أجناسه، فضلاً عن أنواعه، فضلاً عن آحاده، لأن الله تعالى يقول: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا} [هود: ٦]، ويعطي الله الرزق بحسب الحال.

**{ذُو الْقُوَّةِ}**: القوة: صفة يتمكن الفاعل بها من الفعل بدون ضعف، والدليل على قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً} [الروم: ٥٤]، وليست القوة هي القدرة، لقوله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً} [فاطر: ٤٤]، فالقدرة يقابلها العجز، والقوة يقابلها الضعف، والفرق بينهما:

أولا: أن القدرة يوصف بها ذو الشعور، والقوة يوصف بها ذو الشعور وغيره.

ثانياً: أن القوة أخص، فكل قوي من ذي الشعور قوي وقادر، وأما غير ذي الشعور فتقول قوي ولا تقول قادر فمثلا تقول: الحديد قوي، ولا تقول: قادر.

**{الْمَتِينُ}**: قال ابن عباس رضي الله عنهما: الشديد. أي الشديد في جميع صفات الجبروت، وهو من حيث المعنى توكيد للقوي، ويجوز أن نخبر عن الله بأنه شديد، ولا نسمي الله بالشديد، بل نسميه بالمتين، لأن الله سمى نفسه بذلك.

وقوله: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]**.

الشرح: هذه الآية ساقها المؤلف رحمه الله لإثبات اسمين من أسماء الله وما تضمناه من صفة، وهما السميع والبصير، ففيها رد على المعطلة.

**{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}**: هذا نفي، فهو من الصفات السلبية، والمقصود به إثبات كماله، يعني لكماله لا يماثله شيء من مخلوقاته، وفي هذه الجملة رد على أهل التمثيل.

**{السَّمِيعُ}**: له معنيان أحدهما: بمعنى المجيب، ومثلوا له بقوله تعالى عن إبراهيم: {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [إبراهيم: ٣٩]، أي: لمجيب الدعاء.

والثاني: بمعنى السامع للصوت: وقد قسموه إلى عدة أقسام:

الأول: سمع يراد به بيان عموم إدراك سمع الله عز وجل، وأنه ما من صوت إلا ويسمعه الله، كما في قوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ} [المجادلة: ١]، فهذا فيه بيان إحاطة سمع الله تعالى بكل مسموع، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: "الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، والله إني لفي الحجرة، وإن حديثها ليخفى على بعضه".

الثاني: سمع يراد به النصر والتأييد، كما في قوله تعالى لموسى وهارون: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦].

الثالث: سمع يراد به الوعيد والتهديد، كما في قوله تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: ٨٠]، فإن هذا يراد به تهديدهم ووعيدهم، حيث كانوا يسرون ما لا يرضى من القول.

والسمع بمعنى إدراك المسموع من الصفات الذاتية، وإن كان المسموع قد يكون حادثاً. والسمع بمعنى النصر والتأييد وكذا السمع بمعنى الإجابة من الصفات الفعلية، لأنه مقرون بسبب.

**{الْبَصِيرُ}**: يعني: المدرك لجميع المبصَرات، ويطلق البصير بمعنى العليم، فالله سبحانه وتعالى بصير، يرى كل شيء وإن خفي، وهو سبحانه بصير بمعنى: عليم بأفعال عباده، قال تعالى: {وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحجرات: ١٨]، والذي نعمل بعضه مرئي وبعضه غير مرئي، فبصر الله إذاً ينقسم إلى قسمين، وكله داخل في قوله: {الْبَصِيرُ}.

وقوله: **{إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً} [النساء: ٥٨]** ".

الشرح : **{كَانَ}**: هذه فعل ماض لكنها مسلوبة الزمن، فالمراد به الدلالة على الوصف فقط، أي: أن الله متصف بالسمع والبصر، وإنما قلنا: إنها مسلوبة الزمن، لأننا لو أبقيناها على دلالتها الزمانية لكان هذا الوصف قد انتهى، أي: قد كان في الأول سميعا بصيرا أما الآن فليس كذلك، ومعلوم أن هذا المعنى فاسد

باطل، وإنما المراد أنه متصف بهذين الوصفين السمع والبصر على الدوام، و (كان) في مثل هذا السياق يراد به التحقيق.

**{سَمِيعاً بَصِيراً}**: نقول فيها كما قلنا في الآية التي قبلها: فيها إثبات السمع لله بقسميه، وإثبات البصر بقسميه.

وقد قرأ أبو هريرة هذه الآية، وقال: إن الرسول صلى الله عليه وسلم وضع إبهامه وسبابته على عينه وأذنه، والمراد بهذا الوضع تحقيق السمع والبصر، لا إثبات العين والأذن، فإن ثبوت العين جاءت في أدلة أخرى، والأذن عند أهل السنة والجماعة لا تثبت لله ولا تنفى عنه لعدم ورود السمع بذلك.

فإن قلت: هل لي أن أفعل كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم؟

فالجواب: من العلماء من قال: نعم، افعل كما فعل الرسول، لست أهدى للخلق من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولست أشد تحرزاً من أن يضاف إلى الله ما لا يليق من الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومنهم من قال: لا حاجة إلى أن تفعل ما دمنا نعلم أن المقصود هو التحقيق فهذه الإشارة إذاً غير مقصودة بنفسها، إنما هي مقصودة لغيرها، وحينئذ، لا حاجة إلى أن تشير، لا سيما إذا كان يخشي من هذه الإشارة توهم الإنسان التمثيل، كما لو كان أمامك عامة من الخلق لا يفهمون الشيء على ما ينبغي، فهذا ينبغي التحرز منه، ولكل مقام مقال.

## إثبات صفتي المشيئة والإرادة

ثم ذكر المؤلف هذه الآيات في إثبات صفتي المشيئة والإرادة، ولكن قبل أن نشرع في شرحها ينبغي أن نعلم أن الإرادة: تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: إرادة كونية: وهذه الإرادة مرادفة تماماً للمشيئة، فـ (أراد) فيها بمعنى (شاء)، وهذه الإرادة: أولاً: تتعلق فيما يحبه الله وفيما لا يحبه. وعلى هذا فإذا قال قائل: هل أراد الله الكفر؟ فقل: بالإرادة الكونية نعم أراده، ولو لم يرده الله عز وجل ما وقع.

ثانياً: يلزم فيها وقوع المراد، يعني: أن ما أراده الله فلا بد أن يقع، ولا يمكن أن يتخلف.

القسم الثاني: إرادة شرعية: وهي مرادفة للمحبة، فـ (أراد) فيها بمعنى (أحب)، فهي:

أولاً: تختص بما يحبه الله، فلا يريد الله الكفر بالإرادة الشرعية ولا الفسق.

ثانياً: أنه لا يلزم فيها وقوع المراد، بمعنى: أن الله يريد شيئاً ولا يقع، فهو سبحانه يريد من الخلق أن يعبدوه، ولا يلزم وقوع هذا المراد، فقد يعبدونه وقد لا يعبدونه، بخلاف الإرادة الكونية، وسيأتي مزيد بيان عن الإرادة الكونية في باب القدر بإذن الله تعالى.

الآية الأولى: قوله تعالى: **{وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاّ بِاللَّهِ} [الكهف: ٣٩]**.

الشرح: أي: كان ينبغي لك أن تقول حين دخلت جنتك: **{مَا شَاءَ اللَّهُ}** لتتبرأ من حولك وقوتك لا تعجب بجنتك.

**{لاَ قُوَّةَ إِلاّ بِاللَّهِ}**: {لا}: نافية للجنس. و {قُوَّةَ}: نكرة في سياق النفي، فتعم.

فإن قيل: ما الجمع بين عموم نفي القوة إلا بالله، وبين قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً} [الروم: ٥٤]، وقال عن عاد: {وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً} [فصلت: ١٥]، فأثبت لهم قوة؟

فالجواب: أن الجمع بأحد الوجهين:

الأول: أن القوة التي في المخلوق كانت من الله عز وجل، فلولا أن الله أعطاه القوة لم يكون قوياً، فالقوة التي عند الإنسان مخلوقة لله، فلا قوة في الحقيقة إلا بالله.

الثاني: أن المراد بقوله: {لا قُوَّةَ}، أي: لا قوة كاملة إلا بالله عز وجل.

وفي هذه الآية: إثبات اسم من أسماء الله، وهو: الله، وإثبات ثلاث صفات: الألوهية، والقوة، والمشيئة.

الآية الثانية: وقوله: **{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة: ٢٥٣]**.

الشرح: **{وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا}**: الضمير يعود على المؤمنين والكافرين، لقوله تعالى: {وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا} [البقرة: ٢٥٣].

وفي هذا رد واضح على القدرية الذي ينكرون تعلق فعل العبد بمشيئة الله، لأن الله قال: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا}، يعني: ولكنه شاء أن يقتتلوا فاقتتلوا.

**{وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}** الفعل باعتبار ما يفعله سبحانه وتعالى بنفسه فعل مباشر، وباعتبار ما يقدره على العباد فعل غير مباشر، لأنه من المعلوم أن الإنسان إذا صام وصلى وزكى وحج وجاهد، فالفاعل الإنسان بلا شك، ومعلوم أن فعله هذا بإرادة الله، ولا يصح أن ينسب فعل العبد إلى الله على سبيل المباشرة، لأن المباشر للفعل هو الإنسان، ولكن يصح أن ينسب إلى الله على سبيل التقدير والخلق.

أما ما يفعله الله بنفسه، كاستوائه على عرشه، وكلامه، ونزوله إلى السماء الدنيا، وضحكه ... وما أشبه ذلك، فهذا ينسب إلى الله تعالى فعلاً مباشرة.

وفي هذه الآية من الأسماء: الله. ومن الصفات: المشيئة، والفعل، والإرادة.

الآية الثالثة: قوله: **{أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [المائدة: ١]**.

الشرح: قوله: {إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ}: هذه الإرادة شرعية، لأن المقام مقام تشريع.

الآية الرابعة: قوله:**{فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} [الأنعام: ١٢٥]**.

الشرح: المراد بالإرادة هنا الإرادة الكونية، والمراد بالهداية هداية التوفيق، فتجده منشرح الصدر في شرائع الإسلام وشعائره، يفعلها بفرح وسرور وانطلاق.

**{يَشْرَحْ صَدْرَهُ}**: يعني: يوسع صدره، ومنه قول موسى عليه الصلاة والسلام لما أرسله الله إلى فرعون: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي} [طه: ٢٥]، أي: وسع لي صدري في مناجاة هذا الرجل ودعوته، لأن فرعون كان جباراً عنيداً.

**{لِلإِسْلامِ}**: هذا عام لأصل الإسلام وفروعه وواجباته، وكلما كان الإنسان بالإسلام وشرائعه أشرح صدراً، كان أدل على إرادة الله به الهداية.

**{وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ}**: يعني: كأنه حين يعرض عليه الإسلام يتكلف الصعود إلى السماء، وهذا الذي يتكلف الصعود لا شك أنه يتعب ويسأم.

ونأخذ من هذه الآية الكريمة إثبات إرادة الله عز وجل، والإرادة المذكورة هنا إرادة كونية لا غير، لأنه قال: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ}، {وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ}، وهذا التقسيم لا يكون إلا في الأمور الكونية، أما الشرعية فالله يريد من كل أحد أن يستسلم لشرع الله.

## إثبات صفة المحبة

ثم ذكر المؤلف هذه الآيات في إثبات صفة المحبة:

الآية الأولى: **قوله تعالى: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [[البقرة: ١٩٥].**

الشرح: **{وأحسنوا}** الإحسان قد يكون واجباً، وقد يكون مستحباً، فما كان يتوقف عليه أداء الواجب، فهو واجب، وما كان زائداً على ذلك فهو مستحب.

**{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين}**: هذا تعليل للأمر، فهذا ثواب المحسن، أن الله يحبه ومحبة الله مرتبة عالية عظيمة، وهي أعلى من أن تحب الله، ولهذا قال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران: ٣١]، ولهذا قال بعض العلماء: الشأن كل الشأن في أن الله يحبك لا أنك تحب الله، وفي هذه الآية من الأسماء: الله. ومن الصفات الألوهية، والمحبة.

الآية الثانية: **قوله: {وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات: ٩].**

الشرح: **{وَأَقْسِطُوا}**: أي: اعدلوا وهذا واجب، فالعدل واجب في كل ما تجب فيه التسوية.

الآية الثالثة: قوله: **{فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: ٧].**

الشرح: أي: مهما استقام لكم المعاهدون الذين عاهدتهم عند المسجد الحرام بالوفاء بالعهد، فاستقيموا لهم في ذلك.

**{الْمُتَّقِينَ}**: المتقون هم الذين اتخذوا وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، هذا من أحسن وأجمع ما يقال في تعريف التقوى.

الآية الرابعة: قوله: **{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}: } [البقرة: ٢٢٢].**

الشرح: التواب: صيغة مبالغة من التوبة، وهو كثير الرجوع إلى الله.

**{وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}**: الذين يتطهرون من الأحداث ومن الأنجاس في أبدانهم وما يجب تطهيره.

الآية الخامسة: قوله: **{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران: ٣١]**.

الشرح: يسمى علماء السلف هذه الآية: آية المحنة، يعني الامتحان، لأن قوماً ادعوا أنهم يحبون الله فأمر الله نبيه أن يقول لهم: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي}، وهذا تحد لكل من ادعى محبة الله، أن يقال له: إن كنت صادقاً في محبة الله فاتبع الرسول، فمن أحدث في دين رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس منه، وقال: إنني أحب الله ورسوله بما أحدثته، قلنا له: هذا كذب لو كانت محبتك صادقة، لاتبعت الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم تتقدم بين يديه بإدخال شيء في شريعته ليس من دينه، فكل من كان أتبع لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كان لله أحب.

الآية السادسة: قوله: **{فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: ٥٤]**.

الشرح: الفاء واقعة في جواب الشرط في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}، أي: إذا ارتددتم عن دين الله، فإن ذلك لا يضر الله شيئاً، {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}، وهذا كقوله: {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: ٣٨]، فكل من ارتد عن دين الله، فإن الله لا يعبأ به لأنه تعالى غني عنه، بل يزيله ويأتي بخير منه، {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ} بدل منهم {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}، وإذا كانوا يحبون الله ويحبهم الله فسوف يقومون بطاعته.

وفي الآية من الأسماء والصفات ما سبق في التي قبلها، وزيادة أن الله تعالى يكون محبوباً.

الآية السابعة: **قوله: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} [الصف: ٤]**.

الشرح : **{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً}**: لا يتقدم أحد على أحد ولا يتأخر حتى في الجهاد.

**{كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ }** والبنيان كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: "يشد بعضه بعضاً" (متفق عليه)، أي: يتماسك بعضه ببعض، ولهذا قال: {كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ}، وليس كالمفرق لأن المرصوص أشد تماسكاً، فهؤلاء الذين علق الله المحبة لهم بأعمالهم لهم عدة صفات:

أولاً: يقاتلون، فلا يركنون إلى الخلود والخمول والكسل والجمود الذي يضعف الدين والدنيا.

ثانياً: الإخلاص، لقوله: {فِي سَبِيلِهِ}.

ثالثاً: يشد بعضهم بعضاً، لقوله: {صَفًّا}.

رابعاً: أنهم كالبنيان، والبنيان حصن منيع.

خامساً: لا يتخللهم ما يمزقهم، لقوله: {مَّرْصُوصٌ}.

هذه خمس صفات علق الله المحبة لهؤلاء عليها.

الآية الثامنة: **قوله: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} [البروج: ١٤].**

الشرح : **{الْغَفُورُ}**: أي الساتر لذنوب عباده المتجاوز عنها.

**{الْوَدُودُ}** مأخوذ من الود وهو خالص المحبة، وهو عز وجل محب ومحبوب، كما قال تعالى: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: ٥٤]، فالله عز وجل واد لأوليائه، وأولياؤه يودونه أي يحبونه، ويحبون الوصول إليه وإلى جنته ورضوانه.

وفي الآية اسمان من أسماء الله: الغفور، والودود. وصفتان: المغفرة، والود.

وكنت أتمنى لو أن المؤلف أضاف آية تاسعة في المحبة، وهي الخلة، لقوله تعالى: {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} [النساء: ١٢٥]، والخلة أعلى أنواع المحبة، لأن الخليل هو الذي وصل حبه إلى سويداء القلب وتخلل مجاري عروقه، وليس فوق الخلة شيء من أنواع المحبة أبداً.

والخلة لا نعلم أنها ثبتت لأحد من البشر إلا لاثنين، هما إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً" (رواه مسلم).

وهذه الخلة صفة من صفات الله عز وجل، وهي توقيفية فلا يجوز أن نثبت لأحد من البشر أنه خليل الله إلا بدليل، حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إلا هذين الرسولين الكريمين، فهما خليلان لله عز وجل.

فلدينا الآن محبة وود وخلة، فالمحبة والود مطلقة، والخلة خاصة بإبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

أما أهل البدع الذين أنكروها، فليس عندهم إلا حجج واهية، يقولون:

أولاً: إن العقل لا يدل عليها.

ثانياً: إن المحبة إنما تكون بين اثنين متجانسين، لا تكون بين رب ومخلوق أبداً، ولا بأس أن تكون بين المخلوقات.

ونحن نرد عليهم فنقول:

نجيبكم عن الأول . وهو أن العقل لا يدل عليها . بجوابين: أحدهما: بالتسليم، والثاني: بالمنع. الجواب الأول: التسليم: فنقول: إذا سلمنا جدلا أن العقل لا يدل على المحبة، فإن السمع قد دل بأجلى دليل وأوضح بيان على إثبات المحبة بين الخالق والمخلوق، والسمع دليل قائم بنفسه، والله عز وجل يقول في القرآن: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ} [النحل: ٨٩]، فإذا كان تبياناً، فهو دليل قائم بنفسه.

الجواب الثاني: المنع: أن نمنع دعوى أن العقل لا يدل عليها، ونقول: بل العقل دل على إثبات المحبة بين الخالق والمخلوق، كما في إثابة الله الطائعين بالجنات والنصر والتأييد وغيره، هذا يدل بلا شك على المحبة.

وأما قولكم: إن المحبة لا تكون إلا بين متجانسين، فيكفي أن نقول: لا قبول لدعواكم، لأن المنع كاف في رد الحجة، إذ أن الأصل عدم الثبوت، فنقول: دعواكم أنها لا تكون إلا بين متجانسين ممنوع، بل هي تكون بين غير المتجانسين، فالإنسان عنده ساعة قديمة ما أتعبته بالصيانة وما فسدت عليه قط فتجده يحبها، وعنده ساعة تأخذ نصف وقته في التصليح فتجده يبغضها.

## إثبات صفة الرحمة

ثم ذكر المؤلف هذه الآيات في إثبات صفة الرحمة:

الآية الأولى: قوله: **{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [النمل: ٣٠]**.

الشرح: هذه الآية أتى بها المؤلف ليثبت حكماً، وليست مقدمة لما بعدها، وقد سبق لنا شرح البسملة، فلا حاجة إلى إعادته.

وفيها من أسماء الله ثلاثة: الله، الرحمن، الرحيم. ومن صفاته: الألوهية، والرحمة.

الآية الثانية: قوله: **{رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً} [غافر: ٧]**.

الشرح : هذه الآية تدل على أن كل شيء وصله علم الله . وهو واصل لكل شيء . فإن رحمته وصلت إليه، لأن الله قرن بينهما في الحكم {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً}، وهذه هي الرحمة العامة التي تشمل جميع المخلوقات حتى الكفار، لأن الله قرن هذه الرحمة مع العلم.

لكن رحمته للكافر رحمة جسدية بدنية دنيوية قاصرة غاية القصور بالنسبة لرحمة المؤمن، فالذي يرزق الكافر هو الله يرزقه بالطعام والشراب واللباس والمسكن والمنكح وغير ذلك.

أما المؤمنون، فرحمتهم رحمة أخص من هذه وأعظم، لأنها رحمة إيمانية دينية دنيوية.

وفي الآية من صفات الله: الربوبية وعموم الرحمة، والعلم.

الآية الثالثة: **قوله: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} [الأحزاب: ٤٣]**.

الشرح: {بِالْمُؤْمِنِينَ}: متعلق بـ (رحيم)، وتقديم المعمول يدل على الحصر، فيكون معنى الآية: وكان بالمؤمنين لا غيرهم رحيماً.

ولكن كيف نجمع بين هذه الآية والتي قبلها: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً} [غافر: ٧]؟! الجواب أن نقول: الرحمة التي هنا غير الرحمة التي هناك، هذه رحمة خاصة متصلة برحمة الآخرة لا ينالها الكفار، بخلاف الأولى.

الآية الرابعة: قوله: **{وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٥٦]**.

الشرح: هذا ثناء منه جل وعلا على نفسه بأن رحمته وسعت كل شيء من أهل السماء ومن أهل الأرض، ونقول فيها ما قلنا في الآية الثانية.

الآية الخامسة: قوله: **{كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام: ٥٤]**.

الشرح : **{كَتَبَ}**: بمعنى: أوجب على نفسه الرحمة، فالله عز وجل لكرمه وفضله وجوده أوجب على نفسه الرحمة، وجعل رحمته سابقة لغضبه.

الآية السادسة: قوله: **{وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [يونس: ١٠٧]**.

الشرح : جمع عز وجل بين هذين الاسمين، لأن بالمغفرة سقوط عقوبة الذنوب، وبالرحمة حصول المطلوب، والإنسان مفتقر إلى هذا وهذا، مفتقر إلى مغفرة ينجو بها من آثامه، ومفتقر إلى رحمة يسعد بها بحصول مطلوبة، وقد سبق الكلام في ذلك.

الآية السابعة: قوله: **{فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤]**.

الشرح: الشاهد من الآية هنا قوله: {وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}، حيث أثبت لله عز وجل الرحمة، بل بين أنه أرحم الراحمين، فلو جمعت رحمات الخلق كلهم، لكانت رحمة الله أشد وأعظم، فأرحم ما يكون من الخلق بالخلق رحمة الأم ولدها، فإنها لا يساويها شيء من رحمة الناس أبداً، حتى الأب لا يرحم أولاده مثل أمهم في الغالب، جاءت امرأة في السبي تطلب ولدها وتبحث عنه، فلما رأته، أخذته بشفقة وضمته إلى صدرها أمام الناس وأمام الرسول عليه الصلاة والسلام، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أترون أن هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ ". قالوا: لا والله يا رسول الله. قال: "لله أرحم بعباده من هذه بولدها" (متفق عليه).

ومما يدل على ذلك أن الله عز وجل خلق مائة رحمة، وضع منها رحمة واحدة يتراحم بها الخلائق في الدنيا (متفق عليه).

وقد أنكر الأشاعرة وغيرهم من أهل التعطيل أن يكون الله تعالى متصفاً بالرحمة، قالوا: لأن العقل لم يدل عليها.

وثانياً: لأن الرحمة ضعف ورقة للمرحوم، وهذا لا يليق بالله عز وجل، لأن الله أعظم من أن يرحم بالمعنى الذي هو الرحمة، ولا يمكن أن يكون لله رحمة!!

وقالوا: المراد بالرحمة: إرادة الإحسان، أو: الإحسان نفسه، أي: إما النعم، أو إرادة النعم.

فتأمل كيف سلبوا هذه الصفة العظيمة، التي كل مؤمن يرجوها ويؤملها، كل إنسان لو سألته: ماذا تريد؟ لقال: أريد رحمة الله، وهم أنكروا هذا، وقالوا: لا يمكن أن يوصف الله بالرحمة!!

ونحن نرد عليهم قولهم من وجهين: بالتسليم، والمنع:

أما التسليم فنقول: هب أن العقل لا يدل عليها، ولكن السمع دل عليها، فثبتت بدليل آخر.

وأما المنع، فنقول: إن قولكم: إن العقل لا يدل على الرحمة: قول باطل، بل العقل يدل على الرحمة، فهذه النعم المشهودة والمسموعة، وهذه النقم المدفوعة، ما سببها؟ إن سببها الرحمة بلا شك، ولو كان الله لا يرحم العباد، ما أعطاهم النعم، ولا دفع عنهم النقم! وهذا أمر مشهود يشهد به الخاص والعام، حتى العامي في دكانه أو سوقه يعرف أن هذه النعم من آثار الرحمة.

## إثبات صفة الرضى

قال المؤلف رحمه الله: وقوله: **{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [المائدة: ١١٩]**.

الشرح: هذه من آيات الرضى، والله سبحانه وتعالى موصوف بالرضى، وهو يرضى عن العمل، ويرضى عن العامل، أما عن العمل، فمثل قوله تعالى: {وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمر: ٧]، أي: يرض الشكر لكم. وكما في قوله تعالى: {وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً} [المائدة: ٣]. وكما في الحديث الصحيح: "إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً ... " (رواه مسلم). فهذا الرضى متعلق بالعمل.

وأما عن العامل ففي مثل هذه الآية التي ساقها المؤلف: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [المائدة: ١١٩]. فهذا الرضى متعلق بالعامل.

ورضى الله صفة ثابتة لله عز وجل وهي في نفسه، وليست شيئاً منفصلاً عنه: كما يدعيه أهل التعطيل.

ولو قال لك قائل: فسر لي الرضى لم تتمكن من تفسيره، لأن الرضى صفة في الإنسان غريزية، والغرائز لا يمكن لإنسان أن يفسرها بأجلى وأوضح من لفظها.

فنقول: الرضى صفة في الله عز وجل، وهي صفة حقيقية متعلقة بمشيئته، فهي من الصفات الفعلية، يرضى عن المؤمنين وعن المتقين وعن المقسطين وعن الشاكرين ولا يرضى عن القوم الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يرضى عن المنافقين، فهو سبحانه وتعالى يرضى عن أناس ولا يرضى عن أناس، ويرضى أعمالاً ويكره أعمالاً.

ووصف الله تعالى بالرضى ثابت بالدليل السمعي كما سبق، وبالدليل العقلي، فإن كونه عز وجل يثيب الطائعين ويجزيهم على أعمالهم وطاعاتهم يدل على الرضى.

## إثبات صفات الغضب والسخط والكراهية والبغض

ثم ذكر المؤلف هذه الآيات في إثبات صفات الغضب والسخط والكراهية والبغض:

الآية الأولى: قوله: **{وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ} [النساء: ٩٣]**.

الشرح : **{مُؤْمِناً}**: هو من آمن بالله ورسوله، فخرج به الكافر والمنافق، لكن من قتل كافراً له عهد أو ذمة أو أمان فهو آثم، غير أنه لا يستحق الوعيد المذكور في الآية، وأما المنافق، فهو معصوم الدم ظاهراً، ما لم يعلن بنفاقه.

**{مُتَعَمِّداً}**: يدل على إخراج الصغير وغير العاقل لأن هؤلاء ليس لهم قصد معتبر ولا عمد، وعلى إخراج المخطئ، **{جَهَنَّمُ}**: اسم من أسماء النار، **{خَالِداً فِيهَا}** أي: ماكثاً فيها، **{وغَضِبَ الله عَلَيْهِ}**: الغضب صفة ثابتة لله تعالى على الوجه اللائق به، وهي من صفاته الفعلية، **{وَلَعَنَهُ}**: اللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

فهذه أربعة أنواع من العقوبة، والخامس: قوله: {وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً} خمس عقوبات، كل واحدة منها كافية في الردع والزجر لمن كان له قلب.

ولكن يشكل على منهج أهل السنة ذكر الخلود في النار، حيث رتبه على القتل والقتل ليس بكفر، ولا خلود في النار عند أهل السنة إلا بالكفر؟

وأجيب عن ذلك بعدة أوجه أقربها: أن هذا سبب، ولكن إذا وجد مانع لم ينفذ السبب، كما نقول: القرابة سبب للإرث، فإذا كان القريب رقيقاً لم يرث، لوجود المانع وهو الرق.

ولكن يرد علينا الإشكال من وجه آخر، وهو: ما الفائدة من هذا الوعيد؟

فنقول: الفائدة أن الإنسان الذي يقتل مؤمناً متعمداً قد فعل السبب الذي يخلد به في النار، وحينئذ يكون وجود المانع محتملاً، قد يوجد وقد لا يوجد، فهو على خطر عظيم جداً، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً" (رواه البخاري).

أو يقال بأن المراد بالخلود المكث الطويل، وليس المراد به المكث الدائم، لأن اللغة العربية يطلق فيها الخلود على المكث الطويل كما يقال: فلان خالد في الحبس، والحبس ليس بدائم، ويقولون: فلا خالد خلود الجبال، ومعلوم أن الجبال ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً، وهذا أيضاً جواب سهل لا يحتاج إلى تعب، فنقول: إن الله عز وجل لم يذكر التأبيد فلم يقل: خالداً فيها أبداً بل قال: {خَالِداً فِيهَا}، والمعنى: أنه ماكث مكثاً طويلاً.

وفي هذه الآية من صفات الله: الغضب، واللعن وإعداد العذاب.

الآية الثانية: قوله: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ} [محمد: ٢٨]**.

الشرح: **{ذَلِكَ}**: أي: ضرب الوجوه والأدبار المشار إليه في قوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} [محمد: ٢٧ - ٢٨].

**{بِأَنَّهُمُ}** أي: بسبب أنهم **{اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ}** أي: الذي أسخط الله، فصاروا يفعلون كل ما به سخط الله عز وجل من عقيدة أو قول أو فعل، **{وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ}** أي: كرهوا ما فيه رضاه، فصارت عاقبتهم تلك العاقبة الوخيمة، أنهم عند الوفاة تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم.

وفي هذه الآية من صفات الله: إثبات السخط والرضى، وقد سبق الكلام على صفة الرضى، وأما السخط، فمعناه قريب من معنى الغضب.

الآية الثالثة: قوله: **{فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ} [الزخرف: ٥٥]**.

الشرح: **{آسَفُونَا}** يعني: أغضبونا وأسخطونا، **{فَلَمَّا}**: هنا شرطية، فعل الشرط فيها: **{آسَفُونَا}**، وجوابه: **{انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ}**، ففيها رد على من فسروا السخط والغضب بالانتقام، لأن أهل التعطيل من الأشعرية وغيرهم يقولون: إن المراد بالسخط والغضب الانتقام، أو إرادة الانتقام، ولا يفسرون السخط والغضب بصفة من صفات الله يتصف بها هو نفسه.

ونحن نقول لهم: بل السخط والغضب غير الانتقام، والانتقام نتيجة الغضب والسخط، كما نقول: إن الثواب نتيجة الرضى، فالله سبحانه وتعالى يسخط على هؤلاء القوم ويغضب عليهم ثم ينتقم منهم.

وإذا قالوا: إن العقل يمنع ثبوت السخط والغضب لله عز وجل، فإننا نجيبهم بما سبق في صفة الرضى، لأن الباب واحد، فنقول: بل العقل يدل على السخط والغضب، فإن الانتقام من المجرمين وتعذيب الكافرين دليل على السخط والغضب، وليس دليلاً على الرضى، ولا على انتفاء الغضب والسخط. ونقول: هذه الآية: {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ} [الزخرف: ٥٥]: ترد عليكم، لأنه جعل الانتقام غير الغضب، لأن الشرط غير المشروط.

مسألة: بقي أن يقال: {فَلَمَّا آسَفُونَا}: نحن نعرف أن الأسف هو الحزن والندم على شيء مضى على النادم لا يستطيع رفعه، فهل يوصف الله بالحزن والندم؟

الجواب: لا، ونجيب عن الآية بأن الأسف في اللغة له معنيان:

المعنى الأول: الأسف بمعنى الحزن، مثل قول الله تعالى عن يعقوب: {يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ} [يوسف: ٨٤]. وهذا ممتنع بالنسبة لله عز وجل.

الثاني: الأسف بمعنى الغضب، فيقال: أسف عليه بمعنى: غضب عليه، وهذا مثبت لله لأن الله تعالى وصف به نفسه، فقال: {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ}.

وفي الآية من صفات الله: الغضب، والانتقام.

الآية الرابعة: قوله: **{وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ} [التوبة: ٤٦]**.

الشرح : المقصود بذلك المنافقين الذين لم يخرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغزوات، لأن الله تعالى كره انبعاثهم، لأن عملهم غير خالص له، والله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك، ولأنهم إذا خرجوا، كانوا كما قال الله تعالى: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} [التوبة: ٤٧]، وإذا كانوا غير مخلصين وكانوا مفسدين، فإن الله سبحانه وتعالى يكره الفساد ويكره الشرك: ف {كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ}، يعني: جعل هممهم فاترة عن الخروج للجهاد.

وفي الآية هنا إثبات أن الله عز وجل يكره، وهذا أيضاً ثابت في الكتاب والسنة: قال الله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيَّاهُ....} إلى قوله: {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً} [الإسراء: ٢٣ - ٣٨]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله كره لكم قيل وقال" (متفق عليه).

فهذه الصفة ثابتة لله تعالى بالكتاب والسنة.

وكره الله سبحانه وتعالى للشيء تكون للعمل، كما في قوله: {وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ} [التوبة: ٤٦]، وكما في قوله: {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً} [الإسراء: ٣٨]، وتكون أيضاً للعامل، كما جاء في الحديث: "إن الله تعالى إذا أبغض عبداً، نادى جبريل، إني أبغض فلاناً، فأبغضه" (رواه مسلم).
الآية الخامسة: قوله: **{كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ} [الصف: ٣]**.

الشرح : **{كَبُرَ}** أي: عظم.

**{مَقْتاً}**: المقت أشد البغض.

وفي الآية من الصفات: المقت، وأنه يتفاوت.

## إثبات صفة المجيء والإتيان لله تعالى

ثم ذكر المؤلف رحمه الله هذه الآيات في إثبات صفة المجيء والإتيان:

الآية الأولى: قوله: **{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ} [البقرة: ٢١٠]**.

الشرح: **{هَلْ يَنْظُرُونَ}**: {هَلْ}: استفهام بمعنى النفي، يعني: ما ينظرون.

**{يَنْظُرُونَ}** هنا معناها: ينتظرون لأنها تعدت بنفسها، أي: ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام، وذلك يوم القيامة.

**{فِي}**: هنا بمعنى (مع)، فهي للمصاحبة، وليس للظرفية قطعاً، لأنها لو كانت للظرفية لكانت الظلل محيطة بالله، ومعلوم أن الله تعالى واسع عليم ولا يحيط به شيء من مخلوقاته.

**{فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ}** الغمام هو: السحاب الأبيض، والسحاب الأبيض يبقي الجو مستنيراً، بخلاف الأسود والأحمر، فإنه تحصل به الظلمة، والأبيض أجمل منظراً، وذلك أن الله عند نزوله جل وعلا للفصل بين عباده {تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ}: ظلل عظيمة، لمجيء الله تبارك وتعالى.

**{وَالْمَلائِكَةُ}**: الملائكة بالرفع معطوف على لفظ الجلالة الله، يعني: أو تأتيهم الملائكة.

الآية الثانية: قوله: **{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ} [الأنعام: ١٥٨]**.

الشرح: أي: ما ينتظر هؤلاء إلا واحدة من هذه الأحوال:

أولاً: **{أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ}** أي: لقبض أرواحهم، قال الله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الأنفال: ٥٠].

ثانياً: **{أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ}** يوم القيامة للقضاء بينهم.

ثالثاً: **{أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ}** وهذه طلوع الشمس من مغربها، فسرها بذلك النبي صلى الله عليه وسلم (متفق عليه).

وإنما ذكر الله هذه الأحوال الثلاث: لأن الملائكة إذا نزلت لقبض أرواحهم، لا تقبل منهم التوبة، لقوله تعالى: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ} [النساء: ١٨]، وكذلك أيضاً إذا طلعت الشمس من مغربها فإن التوبة لا تقبل، وحينئذ لا يستطيعون خلاصاً مما هم عليه، وذكر الحالة الثالثة بين الحالين لأنه وقت الجزاء وثمرة العمل، فلا يستطيعون التخلص في تلك الحال مما عملوه.

الآية الثالثة: قوله: **{كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً} [الفجر: ٢١ – ٢٢]**.

الشرح: **{كَلاَّ}** هنا للتنبيه، مثل (ألا).

**{إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً، وَجَاءَ رَبُّكَ}**: يعني يوم القيامة، **{وَالْمَلَكُ}** يعني: الملائكة ينزلون في الأرض، **{صَفّاً صَفّاً}**، أي: صفاً من وراء صف.

الآية الرابعة: قوله: **{وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنْزِيلاً} [الفرقان: ٢٥]**.

الشرح: **{تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ }**: يعني: يخرج الغمام من السماء ويثور متتابعاً، وذلك لمجيء الله عز وجل للفصل بين عباه، فهو يوم رهيب عظيم.

**{وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنْزِيلاً}**: ينزلون من السماوات شيئاً فشيئاً، وهذه الآية في سياقها ليس فيها ذكر مجيء الله، لكن فيها الإشارة إلى ذلك، لأن تشقق السماء بالغمام إنما يكون لمجيء الله تعالى، بدليل الآيات السابقة.

فهذه أربع آيات ساقها المؤلف لإثبات صفة من صفات الله، وهي: صفة المجيء والإتيان.

وأهل السنة والجماعة يثبتون أن الله يأتي بنفسه هو، لأن الله تعالى ذكر ذلك عن نفسه، وهو سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً من غيره وأحسن حديثاً، وكلامه مشتمل على أكمل العلم والصدق والبيان والإرادة.

لكن لا نعلم كيفية هذا المجيء، لأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه يجيء ولم يخبرنا كيف يجيء، ولأن الكيفية لا تعلم إلا بالمشاهدة أو مشاهدة النظير أو الخبر الصادق عنها، وكل هذا لا يوجد في صفات الله تعالى، ولأنه إذا جهلت الذات جهلت كيفية الصفات.

نعم نعرف ما معنى المجيء، لكن كيفية المجيء غير معلومة لنا، فنؤمن بأن الله يأتي حقيقة وعلى كيفية تليق به سبحانه وتعالى.

وقد خالف أهل التحريف والتعطيل في هذه الصفة فقالوا: إن الله لا يأتي، لأنك إذا أثبت أن الله يأتي فقد أثبت أنه جسم والأجسام متماثلة!

فنقول: هذه دعوى وقياس باطل، لأنه في مقابلة النص، وكل شيء يعود إلى النص بالإبطال فهو باطل، لقوله تعالى: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} [سبأ: ٢٤]، فإذا قلت: إن هذا الذي عاد النص بالإبطال هو الحق، صار النص باطلاً ولا بد، وبطلان النص مستحيل، وإن قلت: إن النص هو الحق، صار هذا باطلاً ولابد.

ثم نقول: ما المانع من أن يأتي الله تعالى بنفسه على الكيفية التي يريدها؟!

يقولون: المانع أنك إذا أثبت ذلك، فأنت ممثل.

نقول: هذا خطأ، فإننا نعلم أن المجيء والإتيان يختلف حتى بالنسبة للمخلوق، فالإنسان النشيط الذي يأتي كأنما ينحدر من مرتفع من نشاطه، هل هو كالذي يمشي على عصا ولا ينقل رجلاً من مكانها إلا بعد تعب ومشقة.

والإتيان يختلف من وجه آخر، فإتيان إنسان مثلاً من كبراء البلد أو من ولاة الأمور ليس كإتيان شخص لا يحتفى به.

سؤال : ماذا يقول المعطل في قوله تعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ} ونحوها؟

الجواب: يقول: المعنى: جاء أمر ربك، وأتى أمر ربك؟ لأن الله تعالى قال: {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ} [النحل: ١]، فيجب أن نفسر كل إتيان أضافه الله إلى نفسه بهذه الآية، ونقول: المراد: أتى أمر الله!

فيقال: إن هذا الدليل الذي استدللت به هو دليل عليك وليس لك، فلو كان الله تعالى يريد إتيان أمره في الآيات الأخرى، فما الذي يمنعه أن يقول: أمره كما عبر بذلك في سورة النحل لما أراد إتيان الأمر، فلما لم يرده لم يعبر به.

ولأن الآيات الأخرى ليس فيها إجمال حتى نقول: إنها بينت بهذه الآية وإنما هي واضحة بينة، وفي بعضها تقسيم يمنع إرادة مجيء الأمر: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ} [الأنعام: ١٥٨]؛ هل يستقيم لشخص أن يقول: {يَأْتِيَ رَبُّكَ}، أي: أمره في مثل هذا التقسيم؟!

## إثبات الوجه لله تعالى

ثم ذكر المؤلف رحمه الله لإثبات الوجه لله تعالى آيتين:

الآية الأولى: قوله: **{وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} [الرحمن: ٢٧]**.

الشرح: هذه معطوفة على قوله تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ} [الرحمن: ٢٦ – ٢٧]، ولهذا قال بعض السلف: ينبغي إذا قرأت: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}، أن تصلها بقوله: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ}، حتى يتبين نقص المخلوق وكمال الخالق وذلك للتقابل.

**{وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ}** أي: لا يفنى، والوجه: معناه معلوم، لكن كيفيته مجهولة، لا نعلم كيف وجه الله عز وجل كسائر صفاته، لكننا نؤمن بأن له وجهاً موصوفاً بالجلال والإكرام، وموصوفاً بالبهاء والعظمة والنور العظيم، حتى قال النبي عليه الصلاة والسلام: " حجابه النور، لو كشفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه" (رواه مسلم)، ومعنى سبحات وجهه أي: بهاءه وعظمته وجلاله ونوره، وعليه فلو كشف تعالى حجاب النور عن وجهه لاحترق كل شيء لأن بصره ينتهي إلى كل شيء.

**{ذُو}**: صفة لوجه والدليل الرفع، ولو كانت صفة للرب لقال ذي الجلال كما قال في نفس السورة: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} [الرحمن: ٧٨]، فلما قال: {ذُو الْجَلالِ}، علمنا أنه وصف للوجه. **{وَالإِكْرَامِ}**: مصدر من أكرم، فهي صالحة للمكرَم والمكرِم، فالله سبحانه وتعالى مكرَم، وإكرامه تعالى القيام بطاعته، ومكرِم لمن يستحق الإكرام من خلقه بما أعد لهم من الثواب.

الآية الثانية: قوله: **{كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاّ وَجْهَهُ} [القصص: ٨٨]**.

الشرح: **{كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ}** أي: فانٍ، فهي توازي قوله: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} [الرحمن: ٢٦]. **{إِلاّ وَجْهَهُ}**: توازي قوله: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ}. والمعنى: كل شيء فان وزائل، إلا وجه الله عز وجل فإنه باق.

ففي هذه الآية دليل على ثبوت الوجه لله عز وجل، وهو من الصفات الذاتية الخبرية التي مسماها بالنسبة إلينا أبعاض وأجزاء.

ولا نقول: من الصفات الذاتية المعنوية، ولو قلنا بذلك لكنا نوافق من تأوله تحريفاً، ولا نقول: إنها بعض من الله، أو: جزء من الله، لأن ذلك يوهم نقصاً لله سبحانه وتعالى.

هذا وقد فسر أهل التحريف وجه الله بثوابه، فقالوا: المراد بالوجه في الآية الثواب، كل شيء يفنى إلا ثواب الله! ففسروا الوجه الذي هو صفة كمال، فسروه بشيء مخلوق بائن عن الله قابل للعدم والوجود، فالثواب حادث بعد أن لم يكن، وجائز أن يرتفع لولا وعد الله ببقائه، وقولهم مردود بما يلي:

أولاً: أنه مخالف لظاهر اللفظ، فإن ظاهر اللفظ أن هذا وجه خاص، وليس هو الثواب.

ثانياً: أنه مخالف لإجماع السلف، فما من السلف أحد قال: إن المراد بالوجه الثواب! وهذه كتبهم بين أيدينا مزبورة محفوظة، أخرجوا لنا نصاً عن الصحابة أو عن أئمة التابعين ومن تبعهم بإحسان أنهم فسروا هذا التفسير، لن تجدوا إلى ذلك سبيلاً أبداً.

ثالثاً: هل يمكن أن يوصف الثواب بهذه الصفات العظيمة: {ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} [الرحمن: ٢٧]؟! فلو قلنا مثلاً جزاء المتقين ذو جلال وإكرام! فهذا لا يجوز أبداً، والله تعالى وصف هذا الوجه بأنه ذو الجلال والإكرام.

رابعاً: نقول: ما تقولون في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه" (رواه مسلم). فهل الثواب له هذا النور الذي يحرق ما انتهى إليه بصر الله من الخلق؟!

وبهذا عرفنا بطلان قولهم، وأن الواجب علينا أن نفسر هذا الوجه بما أراده الله به، وهو وجه قائم به تبارك وتعالى موصوف بالجلال والإكرام.

فإن قلت: هل كل ما جاء من كلمة (الوجه) مضافاً إلى الله يراد به وجه الله الذي هو صفة من صفاته؟

فالجواب: هذا هو الأصل، كما في قوله تعالى: {وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الأنعام: ٥٢]، {وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلاّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى} [الليل: ١٩ - ٢١] وما أشبهها من الآيات، فالأصل أن المراد بالوجه المضاف إلى الله وجه الله عز وجل الذي هو صفة من صفاته.

لكن هناك كلمة اختلف المفسرون فيها، وهي قوله: تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} [البقرة: ١١٥]: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا}، يعني: إلى أي مكان تولوا وجوهكم عند الصلاة. {فَثَمَّ} أي: فهناك وجه الله.

ومنهم من قال: إن الوجه بمعنى الجهة، لقوله تعالى: {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا} [البقرة: ١٤٨]، فالمراد بالوجه الجهة، أي: فثمّ جهة الله، أي: فثمّ الجهة التي يقبل الله صلاتكم إليها، قالوا: لأنها نزلت في حال السفر، إذا صلى الإنسان النافلة فإنه يصلي حيث كان وجهه، أو إذا اشتبهت القبلة، فإنه يتحرى ويصلي حيث كان وجهه.

ولكن الصحيح أن المراد بالوجه هنا وجه الله الحقيقي، أي: إلى أي جهة تتوجهون، فثم وجه الله سبحانه وتعالى، لأن الله محيط بكل شيء، ولأنه ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أن المصلي إذا قام يصلي، فإن الله قبل وجهه (متفق عليه)، ولهذا نهى أن يبصق أمام وجهه، لأن الله قبل وجهه.

واعلم أن هذا الوجه العظيم الموصوف بالجلال والإكرام وجه لا يمكن الإحاطة به وصفاً، ولا يمكن الإحاطة به تصوراً، بل كل شيء تقدره فإن الله تعالى فوق ذلك وأعظم، كما قال تعالى: {وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً} [طه: ١١٠].

فإن قيل: ما المراد بالوجه في قوله: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص: ٨٨]؟ إن قلت: المراد بالوجه الذات فيخشى أن تكون حرفت وإن أردت بالوجه نفس الصفة أيضاً وقعت في محظور . وهو ما ذهب إليه بعض من لا يقدرون الله حق قدره، حيث قالوا: إن الله يفنى إلا وجهه . فماذا تصنع؟! فالجواب: إن أردت بقولك: إلا ذاته، يعني: أن الله تعالى يبقى هو نفسه مع إثبات الوجه لله، فهذا صحيح، ويكون هنا عبر بالوجه عن الذات لمن له وجه.

وإن أردت بقولك: الذات: أن الوجه عبارة عن الذات بدون إثبات الوجه، فهذا تحريف وغير مقبول.

وعليه فنقول: {إِلاّ وَجْهَهُ}، أي: إلا ذاته المتصفة بالوجه وهذا ليس فيه شيء، لأن الفرق بين هذا وبين قول أهل التحريف أن هؤلاء يقولون: إن المراد بالوجه الذات لأن له وجهاً، فعبر به عن الذات.

## إثبات اليدين لله تعالى

ثم ذكر المؤلف رحمه الله لإثبات اليدين لله تعالى آيتين:

الآية الأولى: قوله: **{مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥]**.

الشرح: **{مَا مَنَعَكَ}**: الخطاب لإبليس، وهو استفهام للتوبيخ، يعني أي شيء منعك أن تسجد؟

**{لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}**: يعني: أن الله عز وجل خلق آدم بيده، وهنا قال: {بِيَدَيَّ}، وهي صيغة تثنية، ففي هذه الآية إثبات اليدين لله سبحانه وتعالى: اليدين اللتين بهما يفعل كالخلق هنا، واللتين بهما يقبض كما في قوله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [الزمر: ٦٧].

الآية الثانية: قوله: **{وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} [المائدة: ٦٤]**.

الشرح: **{الْيَهُودُ}**: هم أتباع موسى عليه الصلاة والسلام، يقولون: **{يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ}** أي: محبوسة عن الإنفاق.

**{وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ}**: {يَدُ}: أفردوها، لأن اليد الواحد أقل عطاء من اليدين الثنتين، ولهذا جاء الجواب بالتثنية والبسط، فقال تعالى: **{بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ}**.

ولما وصفوا الله بهذا العيب، عاقبهم الله بما قالوا، فقال: **{غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ}**، أي: منعت عن الإنفاق، ولهذا كان اليهود أشد الناس جمعاً للمال ومنعاً للعطاء، فهم أبخل عباد الله، وأشدهم شحاً في طلب المال، ولا يمكن أن ينفقوا فلساً، إلا وهم يظنون أنهم سيكسبون بدله درهماً، ونرى نحن الآن لهم جمعيات كبيرة وعظيمة، لكن هم يريدون من وراء هذه الجمعيات والتبرعات أكثر وأكثر، يريدون أن يسيطروا على العالم.

**{وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا}** أي: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله عز وجل، لأن البلاء موكل بالمنطق، فهم لما وصفوا الله بالإمساك طردوا وأبعدوا عن رحمته، وقيل لهم: إذا كان الله عز وجل كما قلتم لا ينفق، فليمنعكم رحمته حتى لا يعطيكم من جوده، فعوقبوا بأمرين:

١ – بتحويل الوصف الذي عابوا به الله سبحانه إليهم بقوله: {غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ}.

٢ – وبإلزامهم بمقتضى قولهم بإبعادهم عن رحمة الله، حتى لا يجدوا جود الله وكرمه وفضله.

ثم أبطل الله سبحانه وتعالى دعواهم، فقال: **{بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ}** {بَلْ}: هنا للإضراب الإبطالي.

وانظر كيف اختلف التعبير: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ}، لأن المقام مقام تمدح بالكرم، والعطاء باليدين أكمل من العطاء باليد الواحدة.

**{مَبْسُوطَتَانِ}**: ضد قولهم: {مَغْلُولَةٌ}، فيد الله تعالى مبسوطتان واسعتا العطاء: كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يد الله ملأى سحاء (كثيرة العطاء) الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق مذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يغض ما فيه يمينه" (متفق عليه).

**{يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ}** قال هذا رداً على شبهتهم في قولهم: كيف يعطي بعض الناس كثيراً، ويعطي بعضهم قليلاً، ويعطي بعضهم وسطاً، فإن عطاءه تبع لما تقتضيه الحكمة، على أن هذا الذي أعطي قليلاً ليس محروماً من فضل الله وعطائه من جهة أخرى، فالله أعطاه صحة وسمعاً وبصراً وعقلاً وغير ذلك من النعم التي لا تحصى، ولكن لطغيان اليهود وعدوانهم وأنهم لم ينزهوا الله عن صفات العيب، قالوا: {يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ}.

فالآيتان السابقتان فيهما إثبات صفة اليدين لله عز وجل.

ولكن قد يقول قائل: إن لله أكثر من يدين، لقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً} [يس: ٧١]، فأيدينا هنا جمع، فلنأخذ بهذا الجمع، لأننا إذا أخذنا بالجمع، أخذنا بالمثنى وزيادة، فما هو الجواب؟ فالجواب أن يقال: جاءت اليد مفردة ومثناة وجمعاً:

أما اليد التي جاءت بالإفراد، فإن المفرد المضاف يفيد العموم فيشمل كل ما ثبت لله من يد، ودليل عموم المفرد المضاف قوله تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا} [إبراهيم: ٣٤]، فـ {نِعْمَتَ}: مفرد مضاف، فهي تشمل كثيراً، لقوله: {لا تُحْصُوهَا}، إذاً: فما هي واحدة ولا ألف ولا مليون ولا ملايين.

وأما المثنى والجمع، فنقول: إن الله ليس له إلا يدان اثنتان، كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة، ففي الكتاب:

ففي سورة ص قال: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص:٧٥] والمقام مقام تشريف، ولو كان الله خلق آدم بأكثر من يدين لذكرها، لأنه كلما ازدادت الصفة التي بها خلق الله هذا الشيء، ازداد تعظيم هذا الشيء.

وأيضاً: في سورة المائدة قال: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: ٦٤]، في الرد على من قالوا: {يَدُ اللَّهِ}، بالإفراد، والمقام مقام يقتضي كثرة النعم، وكلما كثرت وسيلة العطاء كثر العطاء، فلو كان لله تعالى أكثر من اثنتين لذكرهما.

أما السنة فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: "يطوي الله تعالى السماوات بيمينه والأرض بيده الأخرى" (متفق عليه). وقال صلى الله عليه وسلم: "كلتا يديه يمين" (رواه مسلم). ولم يذكر أكثر من اثنتين.

وأجمع السلف على أن لله يدين اثنتين فقط بدون زيادة، فثبت بالنص من القرآن والسنة والإجماع على أن لله تعالى يدين اثنتين.

فإن قيل: كيف نجمع بين هذا وبين ما ورد بالجمع كما في قول الله تعالى: {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا} [يس: ٧١]؟! الجواب: الجمع على أحد وجهين:

أحدهما: أنه لا يراد بالجمع حقيقة معناه ـ وهو الثلاثة فأكثر ـ بل المراد به التعظيم كما قال الله تعالى: {إِنَّا} و {نَحْنُ} و {وقُلْنَا} وما أشبه ذلك، وهو واحد، لكن يقول هذا للتعظيم.

ثانيهما: أن يقال: إن أقل الجمع اثنان، فلا يحصل هنا تعارض.

وأما قوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ} [الذاريات: ٤٧]، فالأيد هنا بمعنى القوة، وليس المراد بالأيد صفة الله، ولهذا ما أضافها الله إلى نفسه فلم يقل: بأيدينا، وإنما قال: {بِأَيْدٍ}، أي: بقوة.

ولا يلزم من إثبات اليد لله أن نمثل الخالق بالمخلوقين، لأن إثبات اليد جاء في القرآن والسنة وإجماع السلف كما سبق.

وقد خالف أهل التعطيل من المعتزلة والجهمية والأشعرية ونحوهم، أهل السنة والجماعة في إثبات اليد لله تعالى وقالوا: لا يمكن أن نثبت لله يداً حقيقية، بل المراد باليد أمر معنوي، وهو القوة كما في حديث النواس بن سمعان الطويل: "أن الله يوحي إلى عيسى أني أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم" (رواه مسلم)،

والمعنى: لا قوة لأحد بقتالهم، وهم يأجوج ومأجوج.!! أو أن المراد باليد النعمة كما في قول رسول قريش لأبي بكر: "لولا يد لك عندي لم أجزك بها، لأجبتك" (رواه البخاري)، يعني: نعمة، قالوا: فالمراد بيد الله: النعمة، وليس المراد باليد اليد الحقيقية، لأنك لو أثبت لله يداً حقيقية، لزم من ذلك التجسيم أن يكون الله تعالى جسماً، والأجسام متماثلة، وحينئذ تقع فيما نهى الله عنه في قوله: {فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ} [النحل: ٧٤]، ونحن أسعد بالدليل منك أيها المثبت للحقيقة!!

وجوابنا على هذا من عدة وجوه:

أولاً: أن تفسير اليد بالقوة أو النعمة مخالف لظاهر اللفظ، وما كان مخالفاً لظاهر اللفظ، فهو مردود إلا بدليل.

ثانياً: أنه مخالف لإجماع السلف، حيث إنهم كلهم مجمعون على أن المراد باليد اليد الحقيقية.

فإن قال قائل: أين إجماع السلف؟ هات لي كلمة واحدة عن أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي، يقولون: إن المراد بيد الله اليد الحقيقية!.

فنقول له: ائت لنا بكلمة واحدة عن أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي أو غيرهم من الصحابة والأئمة من بعدهم يقولون: إن المراد باليد القوة أو النعمة، فلا يستطيع أن يأت بذلك.

ذاً، فلو كان عندهم معنى يخالف ظاهر اللفظ لكانوا يقولون به ولنقل عنهم، فلما لم يقولوا به علم أنهم أخذوا بظاهر اللفظ وأجمعوا عليه.

وهذه فائدة عظيمة، وهي أنه إذا لم ينقل عن الصحابة ما يخالف ظاهر الكتاب والسنة، فإنهم لا يقولون بسواه، لأنهم الذين نزل القرآن بلغتهم، وخاطبهم النبي صلى الله عليه وسلم بلغتهم، فلا بد أن يفهموا الكتاب والسنة على ظاهرهما، فإذا لم ينقل عنهم ما يخالفه، كان ذلك قولهم.

ثالثاً: أنه يمتنع غاية الامتناع أن يراد باليد النعم أو القوة في مثل قوله: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥]، لأنه يستلزم أن تكون النعمة نعمتين فقط، ونعم الله لا تحصى!! ويستلزم أن القوة قوتان، والقوة بمعنى واحد لا يتعدد فهذا التركيب يمنع غاية المنع أن يكون المراد باليد القوة أو النعمة.

وهب أنه قد يمكن في قوله: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: ٦٤]: أن يراد بهما النعمة على تأويلهم، لكن لا يمكن أن يراد بقوله: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} النعمة أبداً.

أما القوة فيمتنع أن يكون المراد باليدين القوة في الآيتين جميعاً، في قوله: {بَلْ يَدَاهُ} وفي قوله: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}، لأن القوة لا تتعدد.

رابعاً: أنه لو كان المراد باليد القوة، ما كان لآدم فضل على إبليس بل ولا على الحمير والكلاب، لأنهم كلهم خلقوا بقوة الله، ولو كان المراد باليد القوة ما صح الاحتجاج على إبليس، إذ إن إبليس سيقول: وأنا يا رب خلقتني بقوتك، فما فضله علي؟!

خامساً: أن يقال: إن هذه اليد التي أثبتها الله جاءت على وجوه متنوعة يمتنع أن يراد بها النعمة أو القوة، فجاء فيها الأصابع والقبض والبسط والكف واليمين، وكل هذا يمتنع أن يراد بها القوة، لأن القوة لا توصف بهذه الأوصاف.

فتبين بهذا أن قول هؤلاء المحرفين الذين قالوا: المراد باليد القوة باطل من عدة أوجه، وبالله التوفيق.

## إثبات العينين لله تعالى

ثم ذكر المؤلف رحمه الله تعالى لإثبات العينين لله تعالى ثلاث آيات:

الآية الأولى: **قوله تعالى:{وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [الطور: ٤٨].**

الشرح: الخطاب هنا للنبي عليه الصلاة والسلام.

**{فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}** يعني: فإنك محروس غاية الحراسة، محفوظ غاية الحفظ، أعيننا معك نحفظك ونرعاك ونعتني بك، وفي الآية الكريمة إثبات العين لله عز وجل، وهي من الصفات الذاتية الخبرية.

وقد دل الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لله عينين اثنتين فقط، حين وصف الدجال وقال: "إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور" (متفق عليه)، ووجه الدلالة أنه لو كان لله أكثر من اثنتين، لكان البيان به أوضح من البيان بالعور، لأنه لو كان لله أكثر من عينين، لقال: إن ربكم له أعين، ولأنه إذا كان له أعين أكثر من اثنتين، صار وضوح أن الدجال ليس برب أبين.

وأيضاً: لو كان الله عز وجل أكثر من عينين، لكان ذلك من كماله، وكان ترك ذكره تفويتاً للثناء على الله، لأن الكثرة تدل على القوة والكمال والتمام، فلو كان لله أكثر من عينين، لبينها الرسول عليه الصلاة والسلام، لئلا يفوتنا اعتقاد هذا الكمال، وهو الزائد على العينين الثنتين.

ولقد ذكر ذلك عثمان بن سعيد الدرامي رحمه الله في "رده على بشر المريسي"، وكذلك أيضاً ذكره ابن خزيمة في "كتاب التوحيد"، وذكر أيضاً إجماع السلف على ذلك أبو الحسن الأشعري رحمه الله وأبو بكر الباقلاني، والأمر في هذا واضح، فعقيدتنا التي ندين لله بها: أن لله تعالى عينين اثنتين، لا زيادة.

فإن قيل: إن من السلف من فسر قوله تعالى: {بِأَعْيُنِنَا}، بقوله: بمرأى منا، فسره بذلك أئمة سلفيون معروفون، وأنتم تقولون: إن التحريف محرم وممتنع، فما الجواب؟

فالجواب: أنهم فسروها باللازم مع إثبات الأصل وهي العين، وأهل التحريف يقولون: بمرأى منا، بدون إثبات العين، وأهل السنة والجماعة يقولون: {بِأَعْيُنِنَا}: بمرأى منا، ومع إثبات العين.

لكن ذكر العين هنا أشد توكيداً وعناية من ذكر مجرد الرؤية، ولهذا قال: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}.

فإن قيل: بماذا تفسرون الباء في قوله: {بِأَعْيُنِنَا}؟

قلنا: نفسرها بالمصاحبة، إذا قلت: أنت بعيني، يعني: أن عيني تصحبك وتنظر إليك لا تنفك عنك، فالمعنى: أن الله عز وجل بقول لنبيه: أصبر لحكم الله، فإنك محوط بعنايتنا وبرؤيتنا لك بالعين حتى لا ينالك أحد بسوء.

ولا يمكن أن تكون الباء هنا للظرفية، لأنه يقتضي أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم في عين الله، وهذا محال.

وأيضاً، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم خوطب بذلك وهو في الأرض، فإذا قلتم: إنه كان في عين الله كانت دلالة القرآن كذباً، ومن اعتقد هذا فقد كفر.

الآية الثانية: قوله تعالى: **{وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ} [القمر: ١٣ – ١٤]**.

الشرح: **{تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا}**: هذا هو الشاهد: أي ذات الألواح والدسر بأعين الله عز وجل، والمراد بالأعين هنا عينان فقط، كما سبق، ومعنى تجري بها، أي: مصحوبة بنظرنا بأعيننا، فالباء هنا للمصاحبة.

الآية الثالثة: قوله: **{وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: ٣٩]**.

الشرح: الخطاب لموسى عليه الصلاة والسلام.

**{وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}**: الصنع: جعل الشيء على صفة معينة، وصنع كل شيء بحسبه، فصناعة البيت: بناءه، وصناعة الحديد: جعلها أواني مثلاً أو محركات، وصنع الآدمي: تربيته البدنية بالغذاء، وتربيته العقلية بالآداب والأخلاق وما أشبه ذلك، وموسى عليه الصلاة والسلام حصل له ذلك، فإنه ربي على عين الله كما هو مشهور من قصته.

وقوله: **{وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}** بالإفراد، هل ينافي ما سبق من ذكرها بالجمع؟!

الجواب: لا تنافي، وذلك لأن المفرد المضاف يعم فيشمل كل ما ثبت لله من عين، وحينئذ لا منافاة بين المفرد وبين الجمع أو التثنية، لكن يبقى النظر بين التثنية والجمع، فكيف نجمع بينهما؟!

الجواب أن نقول: إن كان أقل الجمع اثنين، فلا منافاة، لأننا نقول: هذا الجمع دال على اثنتين، فلا ينافيه، وإن كان أقل الجمع ثلاثة، فإن هذا الجمع لا يراد به الثلاثة، وإنما يراد به التعظيم والتناسب بين ضمير الجمع وبين المضاف إليه.

وقد فسر أهل التحريف والتعطيل العين بالرؤية بدون عين، وقالوا: {بِأَعْيُنِنَا}: برؤية منا، ولكن لا عين، والعين لا يمكن أن تثبت لله عز وجل أبداً، لأن العين جزء من الجسم فإذا أثبتنا العين لله، أثبتنا العين لله، أثبتنا تجزئة وجسماً، وهذا شيء ممتنع، فلا يجوز، ولكنه ذكر العين من باب تأكيد الرؤية، يعني: كأنما نراك ولنا عين، والأمر ليس كذلك!!

فنقول لهم: هذا القول خطأ من عدة أوجه:

الوجه الأول: أنه مخالف لظاهر اللفظ.

الثاني: أنه مخالف لإجماع السلف.

الثالث: أنه لا دليل عليه، أي: أن المراد بالعين مجرد الرؤية.

الرابع: أننا إذا قلنا بأنها الرؤية، وأثبت الله لنفسه عيناً، فلازم ذلك أنه يرى بتلك العين، وحينئذ يكون في الآية دليل على أنها عين حقيقية.

## إثبات صفتي السمع والبصر لله تعالى

ثم ذكر المؤلف رحمه الله في إثبات صفتي السمع والبصر آيات سبعاً:

الآية الأولى: قوله تعالى: **{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: ١]**.

الشرح: الشاهد من هذه الآيات قوله: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ}، ففي هذا إثبات السمع لله سبحانه وتعالى، وأنه يسمع الأصوات مهما بعدت ومهما خفيت. وقد تقدم الكلام حول هذه الصفتين عند قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١].

الآية الثانية: قوله: **{لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} [آل عمران: ١٨١]**.

الشرح : **{الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ}**: هم اليهود قاتلهم الله، فهم وصفوا الله بالعيب، قالوا: **{إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ}**، وسبب قولهم هذا: أنه لما نزل قوله تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ} [البقرة: ٢٤٥]، قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم: يا محمد! إن ربك افتقر، يسأل القرض منا.

الآية الثالثة: قوله: **{أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: ٨٠]**.

الشرح: السر: ما يسره الإنسان إلى صاحبه، والنجوى: ما يناجي به صاحبه ويخاطبه، فهو أعلى من السر، والنداء: ما يرفع به صوته لصاحبه، فهؤلاء يسرون ما يقولونه من المعاصي، ويتناجون بها، فيقول الله عز وجل مهدداً إياهم: **{أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى}** يعني: بلى نسمع، وزيادة على ذلك: **{وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}** أي: عندهم يكتبون ما يسرون وما به يتناجون، والمراد بالرسل هنا الملائكة الموكلون بكتابة أعمال بني آدم، ففي هذه الآية إثبات أن الله تعالى يسمع سرهم ونجواهم.

الآية الرابعة: قوله: **{قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦]**.

الشرح: الخطاب لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، يقول الله سبحانه وتعالى لهما: **{إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}** أي: أسمع ما تقولان، وأسمع ما يقال لكما، وأراكما، وأرى من أرسلتما إليه، وأرى ما تفعلان،

وأرى ما يفعل بكما، لأنه إما أن يساء إليهما بالقول أو بالفعل، فإن كان بالقول فهو مسموع عند الله، وإن كان بالفعل فهو مرئي عند الله.

الآية الخامسة: قوله: **{أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق: ١٤]**.

الشرح: الضمير في **{أَلَمْ يَعْلَمْ}** يعود إلى من يسيء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد ذكر المفسرون أن المراد به أبو جهل، وفي هذه الآية: إثبات صفة الرؤية لله عز وجل، والرؤية المضافة إلى الله لها معنيان:

المعنى الأول: العلم، ومنه قول الله تعالى عن يوم القيامة: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً} [المعارج: ٦ - ٧]، فالرؤية هنا رؤية العلم، لأن اليوم ليس جسماً يرى، وأيضاً هو لم يكن بعد، فمعنى: {وَنَرَاهُ قَرِيباً}، أي: نعلمه قريباً.

المعنى الثاني: رؤية المبصرات، يعني: إدراكها بالبصر ومنه قوله تعالى: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} [الشعراء: ٢١٨] ولا يصح هنا أن تكون الرؤية بمعنى العلم، لأن الله يعلم به حين يقوم وقبل أن يقوم.

وأما قوله: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى}، فهي صالحة لأن تكون بمعنى العلم وبمعنى الرؤية البصرية، وإذا كانت صالحة لهما ولا منافاة بينهما وجب أن تحمل عليهما جميعاً، فيقال: إن الله يرى، أي: يعلم ما يفعله هذا الرجل وما يقوله، ويراه أيضاً أي يبصره.

الآية السادسة: قوله: **{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الشعراء: ٢١٨ – ٢٢٠]**.

الشرح: أي: أن الله تعالى يراه حين يقوم للصلاة وحده وحين يتقلب في الصلاة مع الساجدين في صلاة الجماعة، **{إِنَّهُ}**أي: الله الذي يراك حين تقوم **{هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}**.

الآية السابعة: قوله: **{وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: ١٠٥]**.

الشرح: قال ابن كثير وغيره: قال مجاهد: هذا وعيد . يعني من الله تعالى . للمخالفين أوامره، بأن أعمالهم ستعرض عليه وعلى الرسول والمؤمنين، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، وقد يظهر ذلك للناس في الدنيا، والرؤية هنا شاملة للعلمية والبصرية، ففي الآية: إثبات الرؤية بمعنييها: الرؤية العلمية، والرؤية البصرية.

## إثبات صفات المحال والمكر والكيد

ثم ذكر المؤلف رحمه الله ثلاث صفات متقاربه في أربع آيات: المحال، والمكر، والكيد فقال:

الآية الأولى: في المحال، وهي قوله: **{وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} [سورة الرعد: ١٣]**.

الشرح: أي: شديد الأخذ بالعقوبة. وقيل: إن المحال بمعنى المكر؛ أي: شديد المكر، وكأنه على هذا التفسير مأخوذ من الحيلة وهي أن يتحيل بخصمه حتى يتوقع به. وهذا المعنى ظاهر صنيع المؤلف رحمه الله؛ لأنه ذكرها في سياق آيات المكر والكيد.

والمكر: قال العلماء في تفسيره: إنه التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالخصم وهو لا يحس ولا يدري. والمكر: يكون في موضع مدحاً ويكون في موضع ذماً: فإن كان في مقابلة من يمكر فهو مدح؛ لأنه يقتضي أنك أنت أقوى منه، وإن كان في غير ذلك فهو ذم ويسمي خيانة.

ولهذا لم يصف الله نفسه به إلا على سبيل المقابلة والتقييد؛ كما قال الله تعالى: {وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} [النمل: ٥٠] ، {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ} [الأنفال: ٣٠]، ولا يوصف الله سبحانه وتعالى به على الإطلاق؛ فلا يقال: إن الله ماكر! لا على سبيل الخبر، ولا على سبيل التسمية.

وأما قوله تعالى: {وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [آل عمران: ٥٤]؛ فهذا كمال؛ ولهذا لم يقل: أمكر الماكرين بل قال: {وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}؛ فلا يكون مكره إلا خيراً، ولهذا يصح أن نصفه بذلك؛ فنقول: هو خير الماكرين.

الآية الثانية: في المكر: قوله: **{وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [سورة آل عمران: ٥٤]**.

الشرح : هذه الآية نزلت في عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، مكر به اليهود ليقتلوه، ولكن كان الله تعالى أعظم منهم مكراً، رفعه الله وألقى شبهه على أحدهم، على الذي تولى كبره وأراد أن يقتله، فلما دخل عليه هذا الذي يريد القتل، وإذا عيسى قد رفع، فدخل الناس، فقالوا: أنت عيسى! قال: لست عيسى! فقالوا: أنت هو! لأن الله تعالى ألقى عليه شبهه، فقتل هذا الرجل الذي كان يريد أن يقتل عيسى بن مريم؛ فكان مكره عائداً عليه، {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}.

الآية الثالثة: في المكر أيضاً: قوله: **{وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} {النمل: ٥٠}**.

الشرح: {وَمَكَرُوا}: في الموضعين منكرة للتعظيم؛ أي: مكروا مكراً عظيماً، ومكرنا مكراً أعظم.

الآية الرابعة: في الكيد، وهي قوله: **{إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً} [الطارق: ١٥ – ١٦]**.

الشرح: **{إِنَّهُمْ}** أي: كفار مكة، **{يَكِيدُونَ}** للرسول صلى الله عليه وسلم **{كَيْداً}** لا نظير له، في التنفير منه ومن دعوته، ولكن الله تعالى يكيد كيداً أعظم وأشد، ولذا قال: **{وَأَكِيدُ كَيْداً}** يعني: كيداً أعظم من كيدهم.

وهكذا يكيد الله عز وجل لكل من انتصر لدينه، فإنه يكيد له ويؤيده، قال الله تعالى: {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ} [يوسف: ٧٦]، يعني: عملنا عملاً حصل به مقصوده دون أن يشعر به أحد، وهذا من فضل الله عز وجل على المرء، أن يقيه شر خصمه على وجه الكيد والمكر على هذا الخصم الذي أراد الإيقاع به.

وخلاصة القول: أن المكر والكيد والمحال من صفات الله الفعلية التي لا يوصف بها على سبيل الإطلاق؛ وإنما يوصف بها مقيدة فيقال: الله خير الماكرين، خير الكائدين، أو يقال: الله ماكر بالماكرين، خادع لمن يخادعه.

والاستهزاء من هذا الباب؛ فلا يصح أن نخبر عن الله بأنه مستهزئ على الإطلاق؛ لأن الاستهزاء نوع من اللعب، وهو منفي عن الله؛ قال الله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ} [الدخان: ٣٨]، لكن في مقابلة من يستهزئ به يكون كمالاً؛ كما قال تعالى: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [البقرة: ١٤]؛ قال الله: {اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} [البقرة: ١٥].

فأهل السنة والجماعة يثبتون هذه المعاني لله عز وجل على سبيل الحقيقة، لكن أهل التحريف يقولون: لا يمكن أن يوصف بها أبداً، وإنما ذكر مكر الله ومكرهم من باب المشاكلة اللفظية، والمعنى مختلف؛ مثل: {رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [المائدة: ١١٩].

ونحن نقول لهم ما قلناه سابقاً أن هذا خلاف ظاهر النص، وخلاف إجماع السلف.

## إثبات صفات العفو والقدرة والمغفرة والرحمة والعزة

ثم ذكر المؤلف رحمه الله أربع آيات في صفات العفو والقدرة والمغفرة والرحمة والعزة:

الآية الأولى: في العفو والمقدرة: قوله: **{إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً} [النساء: ١٤٩]**.

الشرح: أي: إن تفعلوا خيراً فتبدوه؛ أي: تظهروه للناس، **{أَوْ تُخْفُوهُ}** يعني: عن الناس، **{أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ}**: العفو: هو التجاوز عن العقوبة.

**{فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً}** أي متجاوزا عن سيئات عباده، والغالب أن العفو يكون عن ترك الواجبات، والمغفرة عن فعل المحرمات، **{ قَدِيراً}** : أي: ذو القدرة، وهي التي يتمكن بها الفاعل من الفعل بدون عجز.

ومعنى الآية : أي إذا عفوتم عن السوء عفا الله عنكم، ويؤخذ هذا الحكم من الجواب: **{فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً}** يعني: فيعفو عنكم مع قدرته على الانتقام منكم.

وجمع الله تعالى هنا بين العفو والقدير؛ لأن كمال العفو أن يكون عن قدرة، أما العفو الذي يكون عن عجز فهذا لا يمدح فاعله؛ لأنه عاجز عن الأخذ بالثأر، وهذان الاسمان يتضمنان صفتين: وهما العفو، والقدرة.

الآية الثانية: في المغفرة والرحمة: قوله: **{وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: ٢٢]**.

الشرح : قوله: **{وَلْيَعْفُوا}** يعني: يتجاوزوا عن الأخذ بالذنب، **{وَلْيَصْفَحُوا}** يعني: يعرضوا عن هذا الأمر ولا يتكلموا فيه.

والفرق بين العفو والصفح: أن الإنسان قد يعفو ولا يصفح، بل يذكر هذا العدوان وهذه الإساءة، لكنه لا يأخذ بالذنب فالصفح أبلغ من مجرد العفو.

وقوله: **{أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ}**: {أَلا}: للعرض، والجواب: بلى نحب ذلك، فإذا كنا نحب أن يغفر الله لنا، فلتتعرض لأسباب المغفرة.

**{وَاللَّهُ غَفُورٌ}**: المغفرة صفة دائمة لله عز وجل، وهي أيضاً فعل يقع بكثرة، فما أكثر مغفرة الله عز وجل وما أعظمها.

**{رَّحِيمٌ}**: صيغة مبالغة دالة على كثرة رحمة الله عز وجل وكثرة من يرحمهم الله عز وجل.

الآية الثالثة: في العزة، وهي قوله: **{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون: ٨]**.

الشرح: **{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ}** فيها إثبات العزة لله سبحانه وتعالى، وقد ذكر أهل العلم أن هذه العزة تنقسم إلي ثلاثة أقسام:

١ – عزة القدر: ومعناها: أن الله تعالي ذو قدر عزيز، يعني: لا نظير له.

٢ – عزة القهر: وهي عزة الغلبة، ومعناها: أن الله غالب كل شيء، قاهر كل شيء.

٣ – عزة الامتناع: ومعناها: أن الله تعالي يمتنع أن يناله سوء أو نقص.

فهذه معاني العزة التي أثبتها الله تعالي لنفسه، وهي تدل على كمال قهره وسلطانه، وعلى كمال صفاته، وعلى تمام تنزهه عن النقص.

**{وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}** يعني: أن الرسول صلى الله عليه وسلم، له عزة، وللمؤمنين أيضاً عزة وغلبة، ولكن يجب أن نعلم أن العزة التي أثبتها الله لرسوله وللمؤمنين ليست كعزة الله، فإن عزة الرسول عليه الصلاة والمؤمنين قد يشوبها ذلة، لقوله تعالي: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ} [آل عمران: ١٢٣]، وقد يغلبون أحياناً لحكمة يريدها الله عز وجل، ففي أحد لم يحصل لهم تمام العزة، لأنهم غلبوا في النهاية لحكم عظيمة، وكذلك في حنين ولوا مدبرين، ولم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم، من أثني عشر ألفاً إلا نحو مئة رجل. هذا أيضاً فقدٌ للعزة، لكنه مؤقت، أما عزة الله عز وجل، فلا يمكن أبداً أن تفقد.

ويمكن أن يؤخذ هذا من القاعدة العامة وهي أنه: لا يلزم من اتفاق الاسمين أن يتماثل المسميان، ولا من اتفاق الصفتين أن يتماثل الموصوفان.

الآية الرابعة: في العزة أيضاً، وهي قوله عن إبليس: **{قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص: ٨٢]**.

الشرح: الباء هنا للقسم، واختار القسم بالعزة دون غيرها من الصفات لأن المقام مقام مغالبة، فكأنه يقول: بعزتك التي تغلب بها من سواك لأغوين هؤلاء وأسيطر عليهم . يعني : بني آدم . حتى يخرجوا من الرشد إلي الغي، ويستثنى من هذا عباد الله المخلصون، فإن إبليس لا يستطيع أن يغويهم، كما قال تعالي: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [الحجر: ٤٢].

ففي الآيتين الأوليين إثبات العزة لله، وفي الآية الثالثة إثبات أن الشيطان يقر بصفات الله! فسبحان الله كيف نجد من بني آدم من ينكر صفات الله أو بعضها، أفيكون الشيطان أعلم بالله وأعقل مسلكاً من هؤلاء النفاة؟!

## إثبات الاسم لله

ثم ذكر المؤلف رحمه الله آية في إثبات الاسم لله تعالي فقال:

وقوله: {**تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ**} **[الرحمن: ٧٨]**.

الشرح: **{تَبَارَكَ}**: قال العلماء: إن وصف بها الله فمعناها: تعالى وتعاظم، كقوله: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنين: ١٤] ، وإن وصف بها اسم الله فمعناها: أن البركة تكون باسم الله، أي أن اسم الله إذا صاحب شيئاً صارت فيه البركة.

وعليه، فنقول: إن {تَبَارَكَ} هنا معناها: حلت البركة باسم الله.

**{ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ}**: {ذِي}: بمعني صاحب، وهي صفة لـ (رب)، لا لـ (اسم)، إذ لو كانت صفة لـ (اسم) لكانت ذو.

**{الْجَلالِ}** بمعني: العظمة.

**{الإِكْرَامِ}** ، بمعني: التكريم، وهو صالح لأن يكون الإكرام من الله لمن أطاعه، وممن أطاعه له. فـ {الْجَلالِ}: عظمته في نفسه، {وَالإِكْرَامِ}: عظمته في المؤمنين، فيكرمونه ويكرمهم.

## تنزيه الله تعالى ونفي المثيل عنه

ثم ذكر المؤلف رحمه الله آيات كثيرة في تنزيه الله تعالي ونفي المثيل عنه فقال:

الآية الأولى: قوله: **{فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً} [مريم: ٦٥]**.

الشرح: **{فَاعْبُدْهُ}** أي: تذلل له محبة وتعظيماً، **{وَاصْطَبِرْ}**: أي: اصبر وإن شق عليك ذلك، واثبت ثبات القرين لقرينه في القتال، فكلمة اصطبر أبلغ من اصبر.

**{هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً}**: هذا الاستفهام للنفي، فيكون مشرباً معني التحدي، يعني: إن كنت صادقاً فأخبرنا: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً}؟ و (السمي): الشبيه والنظير، يعني: هل تعلم له مسامياً أو نظيراً يستحق مثل اسمه؟ والجواب: لا، فإذا كان الجواب كذلك، فالواجب أن تعبده وحده.

وفيها من الصفات: قوله: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً} ، وهي من الصفات السلبية، والمعنى: هل تعلم له سمياً لثبوت كماله المطلق الذي لا يساميه أحد فيه؟

الآية الثانية: قوله: **{وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ} [الأخلاص: ٤]**.

الشرح:هذه الآية أيضاً فيها نفي الكفء لله عز وجل، وذلك لكمال صفاته، فلا أحد يكافئه، لا في علمه، ولا سمعه، ولا بصره، ولا قدرته، ولا عزته، ولا حكمته، ولا غير ذلك من صفاته، وقد تقدم الكلام عليها.

الآية الثالثة: قوله: **{فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٢]**.

الشرح: **{فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً}** [البقرة: ٢١ – ٢٢] يعني: في الألوهية، لأن أولئك القوم المخاطبين لم يجعلوا لله أنداداً في الربوبية، أي: فكما أنكم تقرون أنه ليس له أنداداً في الربوبية، فلا تجعلوا له أندادا في الألوهية.

**{أَنْدَاداً}**: جمع ند أي: مكافئاً له ومشابهاً، **{وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}**:يعني: وأنتم تعلمون أنه لا ند له، فإذا كنتم تعلمون ذلك فكيف تجعلون له ندا فتخالفون علمكم؟!

وهذه أيضاً صفة سلبية لأنه لا ند له وذلك لكمال صفاته.

الآية الرابعة: قوله: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ} [البقرة: ١٦٥]**.

الشرح: **{مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً}**: يعني: في المحبة، كما فسره بقوله: {يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ}، ويجوز أن نقول: إن المراد بالأنداد ما هو أعم من المحبة، يعني: أنداداً يعبدونهم كما يعبدون الله، وينذرون لهم كما ينذرون لله، لأنهم يحبونهم كحب الله عز وجل، وهذا إشراك في المحبة بحيث تجعل غير الله مثل الله في محبته.

وينطبق ذلك على من أحب رسول الله كحب الله، لأنه يجب أن تحب رسول الله صلي الله عليه وسلم محبة ليست كمحبة الله، لأنك إنما تحب الرسول صلي الله عليه وسلم تبعاً لمحبة الله عز وجل، لا علي أنه مناد لله، فكيف بمن يحبون الرسول صلي الله عليه وسلم أكثر مما يحبون الله؟!

الآية الخامسة: قوله: **{وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً} [الأسراء: ١١١]**.

الشرح : **{الْحَمْدُ لِلَّهِ}**: تقدم أن الحمد هو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

**{الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً}**: لكمال صفاته وكمال غناه عن غيره، ولأنه لا مثيل له فلو اتخذ ولداً لكان الولد مثله.

**{وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ}**: يعني: لا في الخلق، ولا في الملك، ولا في التدبير.

**{وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ}**: قيد بقوله: {مِنَ الذُّلِّ}، لأن الله تعالى له أولياء: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس: ٦٢ – ٦٣]، وقال تعالى في الحديث القدسي: "من عادى لي ولياً، فقد آذنته بالحرب .. " (رواه البخاري)، ولكن الولي المنفي هو الولي من الذل، لأن الله تعالى له العزة جميعاً، فلا يلحقه الذل بوجه من الوجوه، لكمال عزته.

**{وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً}** يعني: كبر الله عز وجل تكبيراً بلسانك وجنانك.

**{تَكْبِيراً}**: مصدر مؤكد يراد به التعظيم، أي: كبره تكبيراً عظيماً.

الآية السادسة: قوله تعالى: **{يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التغابن: ١]**.

الشرح : **{يُسَبِّحُ}** بمعنى: ينزه عن كل صفة نقص وعيب.

**{مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ}**: عام يشمل كل شيء.

**{لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**: هذه الصفات الأخيرة صفات ثبوتية، وسبق ذكر معناها، لكن {يُسَبِّحُ لِلَّهِ} صفة سلبية، لأن معناها تنزيهه عما لا يليق به.

الآية السابعة والثامنة: وقوله: **{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً} [الفرقان: ١ – ٢]**.

الشرح: **{تَبَارَكَ}** أي: تعالى وتعاظم، **{الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ}**: هو الله عز وجل، و**{الْفُرْقَانَ}** يعني به: القرآن، سمي فرقانا لأنه يفرق بين الحق والباطل، وبين المسلم والكافر، وغير ذلك مما فيه الفرقان.

**{عَلَى عَبْدِهِ}**: محمد عليه الصلاة والسلام، فوصفه بالعبودية في مقام التحدث عن تنزل القرآن عليه، وهذا المقام من أشرف مقامات النبي صلى الله عليه وسلم مما يدل على أن وصف الإنسان بالعبودية لله يعد كمالاً، لأن العبودية لله هي حقيقة الحرية، فمن لم يتعبد له، كان عابداً لغيره.

**{لِيَكُونَ}**: أي: النبي عليه الصلاة والسلام، **{لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً}**: يشمل الجن والإنس.

**{لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ}**: سبق معناهما، وهما صفة سلبية.

**{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً}**: الخلق: الإيجاد على وجه معين، والتقدير: بمعنى التسوية كما قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} [الأعلى:٢].

الآية التاسعة والعاشرة: قوله: **{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [المؤمنون: ٩١ – ٩٢]**.

الشرح: **{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ}** يعني: ما اصطفي أحداً يكون ولداً له، لا عزير، ولا المسيح، ولا الملائكة ولا غيرهم، لأنه الغني عما سواه، وإذا انتفي اتخاذه الولد فانتفاء أن يكون والداً من باب أولى. **{مِنْ إِلَهٍ}**: أي: ما كان معه من إله حق يعبد ويتذلل له، أما الآلهات الباطلة فهي موجودة، لكن لكونها باطلة كانت كالعدم، فصح أن يقال: ما كان مع الله من إله.

**{إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}**: أي: لو كان هناك إله آخر يساوي الله عز وجل، لكان له ملك خاص ولله ملك خاص، ولانفرد كل واحد منهم بما خلق وقال: هذا خلقي لي، وكذلك الآخر، فبين الله سبحانه وتعالى بدليل عقلي أنه لا يمكن التعدد، إذ لو أمكن التعدد لحصل الخلاف ولانفصل كل واحد عن الثاني ولذهب كل إله بما خلق.

**{سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ}** أي: تنزيهاً لله عز وجل عما يصفه به الملحدون المشركون الذي يقولون في الله سبحانه مالا يليق به.

**{عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ}**: الغيب: ما غاب عن الناس، والشهادة: ما شهده الناس.

**{فَتَعَالَى }** أي: ترفع وتقدس، **{عَمَّا يُشْرِكُونَ}**: من الأصنام التي جعلوها آلهة مع الله تعالى.

وفي هاتين الآيتين من صفات النفي: تنزه الله تعالى عن اتخاذ الولد الذي وصفه به الكافرون، وعن الشريك له في الألوهية الذي أشرك به المشركون، وهذا النفي لكمال غناه وكمال ربوبيته وإلهيته.

الآية الحادية عشرة: قوله: **{فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٧٤]**.

الشرح: **{فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ}** يعني: لا تجعلوا لله مثلاً، فتقولون: مثل الله كمثل كذا وكذا أو تجعلوا له شريكاً في العبادة.

**{إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ}** أي: أنه سبحانه وتعالى يعلم بأنه ليس له مثل، وقد أخبركم بأنه لا مثل له.

فإن قلت: كيف تجمع بين هذه الآية: {فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} وبين قوله {فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٢]؟!

فالجواب: أنه هناك يخاطب الذين يشركون به في الألوهية فيقول: {فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً} في العبادة والألوهية {وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} أنه لا ند له في الربوبية، أما هنا: ففي باب الصفات: {فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ}، فتقولوا: مثلاً: إن يد الله مثل يد كذا! وجه الله مثل وجه كذا! وذات الله مثل الذات الفلانية وما أشبه هذا، لأن الله تعالى يعلم وأنتم لا تعلمون وقد أخبركم بأنه لا مثيل له.

أو يقال: إن إثبات العلم لهم خاص في باب الربوبية، ونفيه عنهم خاص في باب الألوهية، حيث أشركوا بالله فيها، فنزلوا منزلة الجاهل.

وهذه الآية تتضمن من الكمال كمال صفات الله عز وجل، حيث إنه لا مثيل له.

الآية الثانية عشرة: قوله: **{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٣]**.

الشرح: **{قُلْ}**: الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، أي: قل معلناً للناس، **{إِنَّمَا}**: أداة حصر، وذلك لمقابلة تحريم من حرم ما أحل الله، **{حَرَّمَ}** بمعنى: منع، **{الْفَوَاحِشَ}**: جمع فاحشة، وهي الذنب الذي يستفحش، مثل: الزنى واللواط، **{مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ}**: قيل: إن المعنى ما ظهر فحشه وما خفي، وقيل: المعنى ما ظهر للناس وما بطن عنهم، **{وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ}** الإثم: المراد به ما يكون سبباً له من المعاصي، والبغي: العدوان على الناس.

**{وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً}**: يعني: أن تجعلوا له شريكاً لم ينزل به سلطاناً، أي حجة، وسميت الحجة سلطاناً، لأنها سلطة للمحتج بها.

**{وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ}**، أي: وحرم عليكم أن تقولوا على الله ما لا تعلمون، سواء كان في ذاته أو أسمائه أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه.

## إثبات استواء الله على عرشه

ثم ذكر المؤلف رحمه الله ثبوت استواء الله على عرشه وأنه في سبعة مواضع في القرآن:

الموضع الأول: قوله في سورة الأعراف: **{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الأعراف: ٥٤]**.

الشرح: **{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}**: {ثُمَّ}: للترتيب، و{الْعَرْشِ}: هو ذلك السقف المحيط بالمخلوقات، ولا نعلم مادة هذا العرش، لكننا نعلم أنه أكبر المخلوقات التي نعرفها.

وفي هذه الآية من صفات الله تعالى عدة صفات، لكن المؤلف قصد منها إثبات صفة واحدة، وهي الاستواء على العرش.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بأن الله تعالى مستوى على عرشه استواء يليق بجلاله ولا يماثل استواء المخلوقين.

فإن قيل: ما معنى الاستواء عندهم؟ فالجواب: معناه: العلو والاستقرار.

وقد ورد عن السلف في تفسيره أربعة معاني: الأول: علا، والثاني: ارتفع، والثالث: صعد. والرابع: استقر، لكن (علا) و (ارتفع) و (صعد) معناها واحد، وأما (استقر)، فهو يختلف عنها، ودليلهم في ذلك: أنها في جميع مواردها في اللغة العربية لم تأت إلا لهذا المعنى إذا كانت متعدية بـ (على): قال الله تعالى: {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ} [المؤمنون: ٢٨]، وقال تعالى: {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ} [الزخرف: ١٢ - ١٣].

وفسره أهل التعطيل بأن المراد به الاستيلاء، وقالوا: معنى: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الأعراف: ٥٤]، يعني: ثم استولى عليه، واستدلوا لتحريفهم هذا بدليل موجب وبدليل سالب:

- أما الدليل الموجب، فقالوا: إننا نستدل بقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف أو دم مهراق

وبشر هو ابن مروان، استوى على العراق أي: استولى عليه، قالوا: فهذا بيت من رجل عربي، ولا يمكن أن يكون المراد به استوى على العراق، يعني علا على العراق! لا سيما أنه في ذلك الوقت لا طائرات يمكن أن يعلو على العراق بها.

أما الدليل السلبي فقالوا: لو أثبتنا أن الله عز وجل مستو على عرشه بالمعنى الذي تقولون . وهو العلو والاستقرار . لزم من ذلك أن يكون محتاجاً إلى العرش وهذا مستحيل، واستحالة اللازم تدل على إستحالة الملزوم.

ويلزم من ذلك أن يكون جسماً لأن استواء شيء على شيء . بمعنى علوه عليه . يعني أنه جسم.

ويلزم أن يكون محدوداً لأن المستوي على الشيء يكون محدودا، فإذا استويت على البعير فأنت محدود في منطقة معينة محصور بها.

والرد عليهم من وجوه:

أولاً: تفسيركم هذا مخالف لتفسير السلف الذي أجمعوا عليه.

ثانياً: أنه مخالف لظاهر اللفظ، لأن مادة الاستواء إذا تعدت بـ (على) فهي بمعنى العلو والاستقرار، وهذه مواردها في القرآن وفي كلام العرب.

ثالثاً: أن تفسيركم لاستوى باستولى تلزم عليه لوازم باطلة:

١ – يلزم أن يكون الله عز وجل حين خلق السماوات والأرض ليس مستولياً على عرشه، لأن الله يقول: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الأعراف: ٥٤]، و {ثُمَّ} تفيد الترتيب، فيلزم أن يكون العرش قبل تمام خلق السماوات والأرض لغير الله.

٢ – أن الغالب من كلمة (استولى) أنها لا تكون إلا بعد مغالبة!

٣ – من اللوازم الباطلة أنه يصح أن نقول: إن الله استوى على الأرض والشجر والجبال، لأنه مستول عليها.

فهذه لوازم باطلة، وبطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم.

وأما استدلالهم بالبيت السابق فنقول:

١ – أثبتوا لنا سند هذا البيت وثقة رجاله، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلاً.

٢ – من هذا القائل؟ أفلا يمكن أن يكون قاله بعد تغير اللسان؟ لأن كل قول يستدل به على اللغة العربية بعد تغير اللغة العربية فإنه ليس بدليل.

٣ – أن تفسيركم "استوى بشر على العراق" بـ (استولى) تفسير تعضده القرينة، لأنه من المتعذر أن بشراً يصعد فوق العراق فيستوي عليه كما يستوي على السرير أو على ظهر الدابة فلهذا نلجأ إلى تفسيره بـ (استولى).

وهذا نقوله من باب التنزل، وإلا فعندنا في هذا جواب آخر وهو:

أن الاستواء في البيت بمعنى العلو، لأن العلو نوعان: علو حسي كاستوائنا على السرير، وعلو معنوي بمعنى السيطرة والغلبة، فيكون معنى "استوى بشر على العراق" يعني: علا علو غلبة وقهر.

وأما قولكم: إنه يلزم من تفسير الاستواء بالعلو أن يكون الله جسماً!

فجوابه: كل شيء يلزم من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهو حق، ويجب علينا أن نلتزم به، ولكن الشأن كل الشأن أن يكون هذا من لازم كلام الله ورسوله لأنه قد يمنع أن يكون لازماً، فإذا ثبت أنه لازم فليكن، ولا حرج علينا إذا قلنا به.

ثم نقول: ماذا تعنون بهذا الجسم الممتنع؟

فإن أردتم به أنه ليس لله ذات تتصف بالصفات اللازمة لها اللائقة بها فقولكم باطل، لأن لله ذاتاً حقيقية متصفة بالصفات، وأن له وجهاً ويداً وعيناً وقدماً، وقولوا ما شئتم من اللوازم التي هي لازم حق.

وإن أردتم بالجسم الذي قلتم يمتنع أن يكون الله جسماً: الجسم المركب من العظام واللحم والدم وما أشبه ذلك فهذا ممتنع على الله، وليس بلازم من القول بأن استواء الله على العرش علوه عليه.

وأما قولهم: إنه يلزم أن يكون محدوداً!

فجوابه أن نقول بالتفصيل: ماذا تعنون بالحد؟ فإن أردتم أن يكون محدوداً، أي: يكون مبايناً للخلق منفصلاً عنهم، كما تكون أرض لزيد وأرض لعمر، فهذه محدودة منفصلة عن هذه، فهذا حق ليس فيه شيء من النقص.

وإن أردتم بكونه محدوداً: أن العرش محيط به فهذا باطل وليس بلازم، فإن الله تعالى مستوى على العرش، وإن كان عز وجل أكبر من العرش ومن غير العرش، ولا يلزم أن يكون العرش محيطاً به بل لا يمكن أن يكون محيطاً به، لأن الله سبحانه وتعالى أعظم من كل شيء وأكبر من كل شيء والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه.

وأما قولهم: يلزم أن يكون محتاجاً إلى العرش، فنقول: لا يلزم، لأن معنى كونه مستوياً على العرش: أنه فوق العرش لكنه علو خاص، وليس معناه أن العرش يقله أبداً فالعرش لا يقله، وهذا اللازم الذي ادعيتموه ممتنع لأنه نقص بالنسبة إلى الله عز وجل، وليس بلازم من الاستواء الحقيقي، لأننا لسنا نقول: إن معنى {اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، يعني: أن العرش يقله ويحمله، فالعرش محمول: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} [الحاقة: ١٧]، وتحمله الملائكة الآن، لكنه ليس حاملاً لله عز وجل، لأن الله سبحانه وتعالى ليس محتاجاً إليه، ولا مفتقراً إليه، وبهذا تبطل حججهم السَّلبية.

الموضع الثاني: في سورة يونس، قال الله تعالى: **{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [يونس: ٣]**.

الموضع الثالث: في سورة الرعد قال الله تعالى: **{اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الرعد: ٢]**.

الشرح: نقول في معناهما ما قلنا في الآية الأولى.

الموضع الرابع: في سورة طه قال: **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥]**.

الشرح: قدم **{عَلَى الْعَرْشِ}** وهو معمول لـ **{اسْتَوَى}** لإفادة الحصر والتخصيص وبيان أنه سبحانه وتعالى لم يستو على شيء سوى العرش.

وفي ذكر **{الرَّحْمَنُ}** هنا إشارة إلى أنه مع علوه وعظمته موصوف بالرحمة.

الموضع الخامس: في سورة الفرقان قوله: **{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ} [الفرقان: ٥٩]**.

الشرح: **{الرَّحْمَنُ}**: فاعل **{اسْتَوَى}**.

الموضع السادس: في سورة آلم السجدة قال: **{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [السجدة: ٤]**.

الموضع السابع: في سورة الحديد قال: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الحديد: ٤]**.

الشرح: فهذه سبعة مواضع؛ كلها يذكر الله تعالى فيها الإستواء معدى بـ {عَلَى}.

**تنبيه:** إذا قلنا: استوى على العرش؛ بمعنى: علا؛ فها هنا سؤال، وهو: إن الله خلق السماوات ثم استوى على العرش؛ فهل يستلزم أنه قبل ذلك ليس عالياً؟

الجواب: لا يستلزم ذلك؛ لأن الاستواء على العرش أخص من مطلق العلو؛ لأن الاستواء على العرش علو خاص به، والعلو شامل على جميع المخلوقات؛ فعلوه عز وجل ثابت له أزلاً وابداً، لم يزل عالياً على كل شيء قبل أن يخلق العرش، ولا يلزم من عدم استوائه على العرش عدم علوه، بل هو عال، ثم بعد خلق السماوات والأرض علا علواً خاصاً على العرش.

فإن قلت: هل استواء الله تعالى على عرشه من الصفات الفعلية أو الذاتية؟

فالجواب: أنه من الصفات الفعلية لأنه يتعلق بمشيئته، وكل صفة تتعلق بمشيئته فهي من الصفات الفعلية.

## إثبات علو الله تعالى

ثم ذكر المؤلف رحمه الله في إثبات علو الله تعالى على خلقه ست آيات:

الآية الأولى: قوله: **{يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران: ٥٥]**.

الشرح: الخطاب لعيسى بن مريم الذي خلقه الله من أم بلا أب، ولهذا ينسب إلى أمه، فيقال: عيسى بن مريم، والشاهد لهذا الباب قوله: **{وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}**: فإن **{إِلَيَّ}** تفيد الغاية، وقوله: **{وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}** يدل على أن المرفوع إليه كان عالياً، وهذا يدل على علو الله عز وجل.

فلو قال قائل: المراد: رافعك منزلة؛ كما قال الله تعالى: {وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [آل عمران: ٤٥]، قلنا هذا لا يستقيم؛ لأن الرفع هنا عدى بحرف يختص بالرفع الذي هو الفوقية؛ رفع الجسد وليس رفع المنزلة.

الآية الثانية: قوله: **{بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} [النساء: ١٥٨]**.

الشرح : هذا صريح بأن الله تعالي عال بذاته، إذ الرفع إلي الشيء يستلزم علوه.

الآية الثالثة: قوله: **{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: ١٠]**.

الشرح :**{إِلَيْهِ}**: أي إلى الله عز وجل.

**{يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}**: الكلم الطيب يشمل كل كلمة يتقرب بها إلي الله فهي كلمة طيبة، تصعد إلي الله عز وجل وتصل إليه، والعمل الصالح يرفعه الله إليه، وهذا يدل على أن الله عال بذاته، لأن الأشياء تصعد إليه وترفع.

الآية الرابعة: قوله: **{يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً} [غافر:٣٦ – ٣٧]**.

الشرح: **{صَرْحاً}** أي بناء عالياً، **{لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ}** يعني: لعلي أبلغ الطرق التي توصل إلي السماء.

**{فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى}** يعني: أصل إليه مباشرة، وهذا يحتمل أن يكون قاله على سبيل التمويه، ويحتمل أنه قاله على سبيل التهكم، وأيا كان، فقد قال: {وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً}، للتمويه على قومه وإلا فهو يعلم أنه صادق، وقد قال له موسي: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلاّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ} [الإسراء: ١٠٢]، فلم يقل: ما علمت! بل أقره على هذا الخبر المؤكد باللام و (قد) والقسم، الله عز وجل يقول في آية أخري: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً} [النمل: ١٤].

الشاهد من هذا: أن أمر فرعون ببناء صرح يطلع به إلى إله موسى يدل على أن موسى صلي الله عليه وسلم قال لفرعون وآله: إن الله في السماء، فيكون علو الله تعالى ذاتياً قد جاءت به الشرائع السابقة.

الآية الخامسة والسادسة: قوله: **{أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [الملك: ١٦ – ١٧]**.

الشرح: الذي في السماء هو الله عز وجل وهو دليل على علو الله بذاته، لكنه كنى عن نفسه بهذا لأن المقام مقام إظهار عظمته، وأنه فوقكم، قادر عليكم، مسيطر عليكم، مهيمن عليكم، لأن العالي له سلطة على من تحته، والشاهد من هذه الآية هو قوله: {مَنْ فِي السَّمَاءِ}.

ولكن ها هنا إشكال، وهو أن (في) للظرفية، فإذا كان الله في السماء، و(في) للظرفية، فإن الظرف محيط بالمظروف! أرأيت لو قلت: الماء في الكأس، فالكأس محيط بالماء وأوسع من الماء! فإذا كان الله يقول: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ}، فهذا ظاهره أن السماء محيطة بالله، وهذا الظاهر باطل، وإذا كان الظاهر باطلاً، فإننا نعلم علم اليقين أنه غير مراد لله، لأنه لا يمكن أن يكون ظاهر الكتاب والسنة باطلاً. فما الجواب على هذا الإشكال؟

قال العلماء: الجواب أن نسلك أحد طريقين:

١ – فإما أن نجعل السماء بمعنى العلو، وقد ورد في اللغة، بل في القرآن إطلاق لفظ السماء على العلو كما قال تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} [الرعد: ١٧]، والمراد بالسماء هنا العلو، لأن الماء ينزل من السحاب المسخر بين السماء والأرض لا من السماء التي هي السقف المحفوظ، فيكون معنى {مَنْ فِي السَّمَاءِ}، أي: من في العلو، وعلى هذا فلا يوجد إشكال فهو في العلو ليس يحاذيه شيء وليس فوقه شيء.

٢ – أو أن نجعل (في) بمعني (على) ، ونجعل السماء هي السقف المحفوظ المرفوع، يعني: الأجرام السماوية، وتأتي (في) بمعني (على) في اللغة العربية، بل في القرآن الكريم، قال فرعون لقومه السحرة الذين آمنوا: {وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [طه:٧١] ، أي: على جذوع النخل، فيكون معني {مَنْ فِي السَّمَاءِ}، أي: من على السماء، ولا إشكال بعد هذا.

فإن قلت: كيف تجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ} [الزخرف: ٨٤]، وقوله: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ} [الأنعام: ٣]؟! فالجواب: أما الآية الأولى، فإن الله يقول: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ}، فالظرف هنا لألوهيته، يعني: أن ألوهيته ثابتة في السماء وثابتة في الأرض، كما تقول: فلان أمير في المدينة ومكة، فهو نفسه في واحدة منهما، وفيهما جميعاً بإمارته وسلطته، فالله تعالى ألوهيته في السماء وفي الأرض، وأما هو عز وجل ففي السماء.

أما الآية الثاني: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ} فنقول فيها كما قلنا في التي قبلها: {وَهُوَ اللَّهُ}، أي: وهو الإله الذي ألوهيته في السماوات وفي الأرض، أما هو نفسه، ففي السماء. فيكون المعنى: هو المألوه في السماوات المألوه في الأرض، فألوهيته في السماوات وفي الأرض.

واعلم أن علو الله عز وجل ينقسم إلى قسمين: علو صفات، علو ذات:

١ – أما علو الصفات فمعناه: أن صفات الله تعالى كلها علياً، ليس فيها نقص بوجه من الوجوه، وهذا ثابت لله بإجماع أهل القبلة، وقد دل عليه قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى} [النحل: ٦٠].

٢ – وأما علو الذات فمعناه: أن الله تعالى فوق كل شيء بذاته، ليس فوقه شيء ولا حذاءه شيء، وأن علوه من الصفات الذاتية الأزلية الأبدية، وهذا العلو يثبته أهل السنة، ولا يثبته أهل البدعة.

وقد استدل أهل السنة والجماعة على علو الله تعال علواً ذاتياً بالكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة:

أولاً: فالكتاب تنوعت دلالته على علو الله؛ فتارة بذكر العلو، وتارة بذكر الفوقية، وتارة بذكر نزول الأشياء من عنده، وتارة بذكر صعودها إليه، وتارة بكونه في السماء.

أ) فأما بذكر العلو ففي مثل قوله تعالى: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: ٢٥٥] ، وقوله: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى} [الأعلى: ١].

ب)وأما بذكر الفوقية ففي مثل قوله تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [الأنعام: ١٨]، وقوله:{يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [النحل:٥٠].

ت)وأما بذكر نزول الأشياء من عنده ففي مثل قوله تعالى: {يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ} [السجدة: ٥] ، وقوله:{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ} [الحجر: ٩] وما أشبه ذلك.

ث)وأما بذكر صعود الأشياء إليه؛ ففي مثل قوله تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: ١٠] ، وقوله: {تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} [المعارج: ٤].

ج) وأما بذكر كونه في السماء؛ ففي مثل قوله تعالى: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ} [الملك: ١٦].

ثانياً: وأما السنة فقد تواترت عن النبي صلى الله عليه وسلم من قوله وفعله وإقراره:

أ) فأما قوله صلى الله عليه وسلم فجاء بذكر العلو والفوقية، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "سبحان ربي الأعلى" (رواه مسلم)، وقوله لما ذكر السماوات؛ قال: "والله فوق العرش" (رواه ابن خزيمة)، وجاء بذكر أن الله في السماء؛ مثل قوله صلى الله عليه وسلم: "ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء" (متفق عليه).

ب) وأما الفعل؛ فمثل رفع أصبعه إلى السماء، وهو يخطب الناس في يوم عرفة عام حجة الوداع؛ فكان صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم أشهد"؛ يشير إلى السماء بأصبعه، وينكتها إلى الناس (رواه مسلم). ومن ذلك رفع يديه إلى السماء في الدعاء.

ت) وأما التقرير؛ فإنه في حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه؛ وفيه أنه أتى بجارية يريد أن يعتقها، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: "أين الله؟ ". قالت: في السماء. فقال: "من أنا؟". قالت: رسول الله. قال: "أعتقها؛ فإنها مؤمنة" (رواه مسلم). فهذه جارية لم تتعلم، والغالب على الجواري الجهل، لا سيما أمة غير حرة، لا تملك نفسها، تعلم أن ربها في السماء، وضلال بني آدم ينكرون أن الله في السماء، ويقولون: إما أنه لا فوق العالم ولا تحته ولا يمين ولا شمال! أو أنه في كل مكان!!

ثالثاً: وأما دلالة الإجماع، فقد أجمع المسلمون قبل ظهور هذه الطوائف المبتدعة على أن الله تعالى مستو على عرشه فوق خلقه، فإن قلت كيف أجمعوا؟

فنقول: إمرارهم لهذه الآيات والأحاديث مع تكرار ذكر العلو فيها والفوقية ونزول الأشياء منه وصعودها إليه دون أن يأتوا بما يخالفها إجماع منهم على مدلولها. قال شيخ الإسلام: "ليس في كلام الله ولا رسوله، ولا كلام الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ما يدل لا نصاً ولا ظاهراً على أن الله تعالى ليس فوق العرش وليس في السماء، بل كل كلامهم متفق على أن الله فوق كل شيء".

رابعاً: وأما دلالة العقل؛ فنقول: لا شك أن الله عز وجل إما أن يكون في العلو أو في السفل، وكونه في السفل مستحيل؛ لأنه نقص يستلزم أن يكون فوقه شيء من مخلوقاته فلا يكون له حينئذ العلو التام والسيطرة التامة والسلطان التام، فإذا كان السفل مستحيلاً كان العلو واجباً.

وهناك تقرير عقلي آخر، وهو أن نقول: إن العلو صفة كمال باتفاق العقلاء، وإذا كان صفة كمال؛ وجب أن يكون ثابتاً لله؛ لأن كل صفة كمال مطلقة؛ فهي ثابتة لله.

خامساً: وأما دلالة الفطرة: فأمر لا يمكن المنازعة فيها ولا المكابرة؛ فكل إنسان مفطور على أن الله في السماء، ولهذا عندما يفجؤك الشيء الذي لا تستطيع دفعه، وإنما تتوجه إلى الله تعالى بدفعه؛ فإن قلبك ينصرف إلى السماء حتى الذين ينكرون علو الذات لا يقدرون أن ينزلوا أيديهم إلى الأرض.

فالحاصل أن: كون الله في السماء أمر معلوم بالفطرة، ووالله لولا فساد فطرة هؤلاء المنكرين لذلك؛ لعلموا أن الله في السماء بدون أن يطالعوا أي كتاب؛ لأن الأمر الذي تدل عليه الفطرة لا يحتاج إلى مراجعة الكتب.

وخالف أهلَ السنة والجماعة في إثبات علو الذات لله طائفتان:

الطائفة الأولى: قالوا: إن الله بذاته في كل مكان، واستدلوا بقول الله تعالى: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} [المجادلة: ٧]، واستدلوا أيضا بقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: ٤]، وعلى هذا، فهو ـ عندهم ـ ليس عالياً بذاته، بل العلو هنا علو صفة.

ولكننا نرد على هؤلاء فنقول : دعواكم هذه دعوى باطلة يردها السمع والعقل:

– أما السمع، فإن الله تعالى أثبت لنفسه أنه العلي، والآية التي استدللتم بها لا تدل على ما ذهبتم إليه لأن المعية لا تستلزم الحلول في المكان، ألا ترى إلى قول العرب: القمر معنا، ومحله في السماء؟ ويقول الرجل: زوجتي معي، وهو في المشرق وهي في المغرب؟ ويقول الضابط للجنود: اذهبوا إلى المعركة وأنا معكم، وهو في غرفة القيادة وهم في ساحة القتال؟ فلا يلزم من المعية أن يكون الصاحب في مكان المصاحب أبداً.

– وأما الدليل العقلي فنقول: إذا قلت: إن الله معك في كل مكان، فهذا يلزم عليه لوازم باطلة، فيلزم عليه:

أولاً: إما التعدد أو التجزؤ، وهذا لازم باطل بلا شك، وبطلان اللازم يدل على بطلان اللزوم.

ثانياً: ويلزم منه أن يزداد بزيادة الناس، وينقص بنقصهم.

ثالثاً: ويلزم منه ألا تنزهه عن المواضع القذرة، فإذا قلت: إن الله معك وأنت في الخلاء فيكون هذا أعظم قدح في الله عز وجل.

فتبين بهذا أن قولهم مناف للسمع ومناف للعقل، وأن القرآن لا يدل عليه بأي وجه من الدلالات أبداً.

الطائفة الثانية: قالوا: إن الله لا يوصف بجهة، لأننا لو وصفناه بذلك لكان جسماً، والأجسام متماثلة، وهذا يستلزم التمثيل، وعلى هذا فننكر أن يكون في أي جهة، بل نقول: ليس فوق العالم ولا تحت العالم ولا في العالم ولا يمين ولا شمال ولا منفصل عن العالم ولا متصل!

ونرد عليهم فنقول:

أولاً: إن نفيكم للجهة يستلزم نفي الرب عز وجل، إذ لا نعلم شيئاً لا يكون فوق العالم ولا تحته ولا يمين ولا شمال، ولا متصل ولا منفصل، إلا العدم، ولهذا قال بعض العلماء: لو قيل لنا صفوا الله بالعدم لما وجدنا أصدق وصفاً للعدم من هذا الوصف.

ثانياً: قولكم: أن إثبات الجهة يستلزم التجسيم! نحن نناقشكم في كلمة الجسم: ما هذا الجسم الذي تنفرون الناس عن إثبات صفات الله من أجله؟! أتريدون بالجسم الشيء المكون من أشياء مفتقر بعضها إلى بعض

ولا يمكن أن يقوم إلى باجتماع هذه الأجزاء؟! فإن أردتم هذا، فنحن لا نقره، ونقول: إن الله ليس بجسم بهذا المعنى، ومن قال: إن إثبات علوه يستلزم هذا الجسم، فقوله مجرد دعوى ويكفينا أن نقول: لا قبول.

وأما إن أردتم بالجسم الذات القائمة بنفسها المتصفة بما يليق بها، فنحن نثبت ذلك، ونقول: إن لله تعالى ذاتاً، وهو قائم بنفسه، متصف بصفات الكمال، وهذا هو الذي يعلمه كل إنسان.

وبهذا يتبين بطلان قول هؤلاء الذين أثبتوا أن الله بذاته في كل مكان، أو أن الله تعالى ليس فوق العالم ولا تحته ولا متصل ولا منفصل.

## إثبات معية الله تعالى لخلقه

ثم شرع المؤلف رحمه الله بسوق أدلة معية الله تعالى لخلقه، وناسب أن يذكرها بعد العلو لأنه قد يبدو للإنسان أن هناك تناقضاً بين كونه فوق كل شيء وكونه مع العباد، فكان من المناسب جداً أن يذكر الآيات التي تثبت معية الله للخلق بعد ذكر آيات العلو، وفي معية الله تعالى لخلقه عدة مباحث:

المبحث الأول: أقسام المعية: معية الله عز وجل تنقسم إلى قسمين:عامة، وخاصة، والخاصة تنقسم إلى قسمين: مقيدة بشخص، ومقيدة بوصف:

فأما المعية العامة: فهي التي تشمل كل أحد من مؤمن وكافر وبر وفاجر، وهي تستلزم الإحاطة بالخلق علماً وقدرة وسمعاً وبصراً وسلطاناً وغير ذلك من معاني ربوبيته ودليلها قوله تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} [الحديد: ٤].

وأما المعية الخاصة المقيدة بوصف: فمثل قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل: ١٢٨].

وأما المعية الخاصة المقيدة بشخص معين: فمثل قوله تعالى عن نبيه: {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة ٤٠]، وقال لموسى وهارون: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦]. وهذه أخص من المقيدة بوصف، غير أنها بنوعيها تستلزم النصر والتأييد.

المبحث الثاني: هل المعية حقيقية أو هي كناية عن علم الله عز وجل وسمعه وبصره وقدرته وسلطانه وغير ذلك من معاني ربوبيته؟

الجواب: أكثر عبارات السلف رحمهم الله يقولون: إنها كناية عن العلم وعن السمع والبصر والقدرة وما أشبه ذلك، فيجعلون معنى قوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ} أي: وهو عالم بكم سميع لأقوالكم، بصير بأعمالكم، قادر عليكم حاكم بينكم، وهكذا، فيفسرونها بلازمها.

واختار شيخ الإسلام رحمه الله في هذا الكتاب وغيره أنها على حقيقتها، وأن كونه معنا حق على حقيقته، لكن ليست معيته كمعية الإنسان للإنسان التي يمكن أن يكون الإنسان مع الإنسان في مكانه؛ لأن معية

الله عز وجل ثابتة له وهو في علوه؛ فهو معنا وهو عال على عرشه فوق كل شيء، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون معنا في الأمكنة التي نحن فيها، وعلى هذا، فإنه يحتاج إلى الجمع بينها وبين العلو.

ولهذا عقد لها المؤلف رحمه الله فصلاً خاصاً بيّن فيه أنه لا منافاة بين العلو والمعية، لأن الله تعالى ليس كمثله شيء في جميع صفاته، فهو علي في دنوه، قريب في علوه، وسيأتي بإذن الله تعالى.

سؤال: هل يصح أن نقول: أن الله معنا بذاته؟

الجواب: هذا اللفظ يجب أن يبعد عنه؛ لأنه يوهم معنىً فاسدًا يحتج به من يقول بالحلول، ولا حاجة إليه؛ لأن الأصل أن كل شيء أضافه الله إلى نفسه؛ فهو له نفسه؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ}؛ هل يحتاج أن نقول: جاء بذاته؟! وإلى قوله صلى الله عليه وسلم: "ينزل ربنا إلى السماء الدنيا" (متفق عليه)، هل يحتاج أن نقول: ينزل بذاته؟! إننا لا نحتاج إلى ذلك؛ اللهم إلا في مجادلة من يدعي أنه جاء أمره أو ينزل أمره، لرد تحريفه.

المبحث الثالث: هل المعية من الصفات الذاتية أو من الصفات الفعلية؟

فيه تفصيل:

– أما المعية العامة: فهي ذاتية، لأن الله لم يزل ولا يزال محيطاً بالخلق علماً وقدرة وسلطاناً وغير ذلك من معاني ربوبيته.

– وأما المعية الخاصة: فهي صفة فعلية لأنها تابعة لمشيئة الله، وكل صفة مقرونة بسبب هي من الصفات الفعلية، كذلك المعية الخاصة إذا وجدت التقوى أو غيرها من أسبابها في شخص، كان الله معه.

المبحث الرابع في المعية: هل بينها وبين العلو تناقض؟

الجواب: لا تناقض بينهما، لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن الله جمع بينهما فيما وصف به نفسه، ولو كانا يتناقضان ما صح أن يصف الله بهما نفسه.
الوجه الثاني: ليس بين العلو والمعية تعارض أصلاً، إذ من الممكن أن يكون الشيء عالياً وهو معك، ومنه ما يقوله العرب: القمر معنا ونحن نسير، والشمس معنا ونحن نسير، والقطب معنا ونحن نسير، مع أن القمر

والشمس والقطب كلها في السماء، فإذا أمكن اجتماع العلو والمعية في المخلوق، فاجتماعهما في الخالق من باب أولى.

أرأيت لو أن إنساناً على جبل عالٍ، وقال للجنود: اذهبوا إلى مكان بعيد في المعركة، وأنا معكم، وهو واضع المنظار على عينيه، ينظر إليهم من بعيد، فصار معهم، لأنه الآن يبصر كأنهم بين يديه، وهو بعيد عنهم، فالأمر ممكن في حق المخلوق، فكيف لا يمكن في حق الخالق؟!

الوجه الثالث: أنه لو تعذر اجتماعهما في حق المخلوق، لم يكن متعذراً في حق الخالق، لأن الله أعظم وأجل، ولا يمكن أن تقاس صفات الخالق بصفات المخلوقين، لظهور التباين بين الخالق والمخلوق، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول في دعاء السفر: "اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل" (رواه مسلم)، فجمع بين كونه صاحباً له وخليفة له في أهله، مع أن هذا بالنسبة للمخلوق غير ممكن.

إذاً، يمكن أن يكون الله معنا حقاً وهو على عرشه في السماء حقاً، ولا يفهم أحداً أنهما يتعارضان، إلا من أراد أن يمثل الله بخلقه، ويجعل معية الخالق كمعية المخلوق.

**تنبيه**: تأمل في الآية، تجد كل الضمائر تعود على الله سبحانه وتعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى}، {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ}، فكذلك ضمير {وَهُوَ مَعَكُمْ}، فيجب علينا أن نؤمن بظاهر الآية الكريمة، ونعلم علم اليقين أن هذه المعية لا تقتضي أن يكون الله معنا في الأرض، بل هو معنا مع استوائه على العرش.

أما أهل الحلول فقالوا: إن الله معنا بذاته في أمكنتنا، إن كنت في المسجد فالله معك في المسجد! والذين في السوق الله معهم في السوق! والذين في الحمامات الله معهم في الحمامات! ما نزهوه عن الأقذار والأنتان ولا عن أماكن اللهو والرفث!! تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

المبحث الخامس: في شبهة القائلين بأن الله معنا في أمكنتنا والرد عليهم:

شبهتهم يقولون: هذا ظاهر اللفظ: {وَهُوَ مَعَكُمْ}؛ لأن كل الضمائر تعود على الله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ} ، {ثُمَّ اسْتَوَى} ، {يَعْلَمُ} ، {وَهُوَ مَعَكُمْ} ، وإذا كان معنا؛ فنحن لا نفهم من هذه المعية إلا المخالطة أو المصاحبة في المكان!!

والرد عليهم من وجوه:

أولاً: أن ظاهرها ليس كما ذكرتم؛ إذ لو كان الظاهر كما ذكرتم؛ لكان في الآية تناقض: أن يكون مستوياً على العرش، وهو مع كل إنسان في أي مكان! والتناقض في كلام الله تعالى مستحيل.

ثانياً: قولكم: "إن المعية لا تعقل إلا مع المخالطة أو المصاحبة في المكان! هذا ممنوع؛ فالمعية في اللغة العربية أسم لمطلق المصاحبة، وهي أوسع مدلولاً مما زعمتم؛ فقد تقتضي الاختلاط، وقد تقتضي المصاحبة في المكان، وقد تقتضي مطلق المصاحبة وإن اختلف المكان؛ هذه ثلاثة أشياء:

أ – فمثال المعية التي تقتضي المخالطة: أن يقال: اسقوني لبناً مع ماء؛ أي: مخلوطاً بماء.

ب – ومثال المعية التي تقتضي المصاحبة في المكان: قولك: وجدت فلاناً مع فلان يمشيان جميعاً وينزلان جميعاً.

ج – ومثال المعية التي لا تقتضي الاختلاط ولا المشاركة في المكان: أن يقال: فلان مع جنوده. وإن كان في غرفة القيادة، لكن يوجههم، فهذا ليس فيه اختلاط ولا مشاركة في مكان، ويقال: زوجة فلان معه. وإن كانت هي في المشرق وهو في المغرب.

فالمعية إذا كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وكما هو ظاهر من شواهد اللغة: مدلولها مطلق المصاحبة، ثم هي بحسب ما تضاف إليه. فإذا قيل: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا} [النحل: ١٢٨]؛ فلا يقتضي ذلك لا اختلاطاً ولا مشاركة في المكان، بل هي معية لائقة بالله، ومقتضاها النصر والتأييد. ثالثاً: نقول: وصفكم الله بهذا! من أبطل الباطل وأشد التنقص لله عز وجل، والله عز وجل ذكرها هنا عن نفسه متمدحاً؛ أنه مع علوه على عرشه فهو مع الخلق وإن كانوا أسفل منه، فإذا جعلتم الله في الأرض؛ فهذا نقص.

رابعاً: يلزم على قولكم هذا أحد أمرين لا ثالث لهما، وكلاهما ممتنع: إما أن يكون الله متجزئاً، كل جزء منه في مكان، وإما أن يكون متعدداً؛ يعني: كل إله في جهة لضرورة تعدد الأمكنة.

خامساً: قولكم هذا أيضاً يستلزم أن يكون الله حالاً في الخلق؛ فكل مكان في الخلق؛ فالله تعالى فيه، وصار هذا سلماً لقول أهل وحدة الوجود.

فأنت ترى أن هذا القول باطل، ومقتضى هذا القول الكفر، ولهذا نرى أن من قال: إن الله معنا في الأرض فهو كافر يستتاب ويبين له الحق، فإن رجع وإلا وجب قتله.

وهذه آيات المعية:

الآية الأولى: **قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: ٤]**.

الشرح : الشاهد قوله: **{وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ}** ، وهذه من المعية العامة؛ لأنها تقتضي الإحاطة بالخلق علماً وقدرة وسلطاناً وسمعاً وبصراً وغير ذلك من معاني الربوبية.

الآية الثانية: قوله: **{مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: ٧]**.

الشرح: فما من اثنين فأكثر يتناجيان بأي مكان من الأرض؛ إلا والله عز وجل معهم، وهذه المعية عامة؛ لأنها تشمل كل أحد: المؤمن، والكافر، والبر، والفاجر، ومقتضاها الإحاطة بهم علماً وقدرة وسمعاً وبصراً وسلطاناً وتدبيراً وغير ذلك.

**{ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ}** يعني: أن هذه المعية تقتضي إحصاء ما عملوه؛ فإذا كان يوم القيامة نبأهم بما عملوا؛ يعني: أخبرهم به وحاسبهم عليه؛ لأن المراد بالإنباء لازمه وهو المحاسبة.

الآية الثالثة: قوله: **{لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: ٤٠]**.

الشرح : الخطاب لأبي بكر من النبي صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: {إِلاّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: ٤٠].

**{إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}**: هذه المعية خاصة، مقيدة بالنبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضي الله عنه، وتقتضي مع الإحاطة التي هي المعية العامة النصر والتأييد، ولهذا وقفت قريش على الغار، ولم يبصروهما! أعمى الله أبصارهم.

الآية الرابعة: قوله: **{إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦]**.

الشرح : هذا الخطاب موجه لموسى وهارون عليهما السلام، لما أمرهما الله عز وجل أن يذهبا إلى فرعون؛ قال: {اذْهَبا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه:٤٣ - ٤٦].

**{أَسْمَعُ وَأَرَى}**: هذا سمع ورؤية خاصان تقتضيان النصر والتأييد والحماية من فرعون الذي قالا عنه: {إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى}.

الآية الخامسة: قوله: **{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل: ١٢٨]**.

الشرح: المعية هنا خاصة مقيدة بصفة: كل من كان من المتقين المحسنين؛ فالله معه.

الآية السادسة: قوله: **{وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال:٤٦]**.

الآية السابعة: قوله: **{كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩]**.

الشرح : المعية في هذه الآية والتي قبلها كسابقتهما معية خاصة مقيدة بصفة الصبر .

## إثبات الكلام لله تعالى

ثم ذكر المؤلف رحمه الله الآيات الدالة على كلام الله تعالى وأن القرآن من كلامه تعالى:

الآية الأولى والثانية: قوله: **{وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً} [النساء: ٨٧] {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً} [النساء: ١٢٢]**.

الشرح: **{حَدِيثاً}** و **{قِيلاً}**: تمييز لـ **{أَصْدَقُ}**، وإثبات الكلام في هاتين الآيتين يؤخذ من: قوله: **{أَصْدَقُ}** لأن الصدق يوصف به الكلام، وقوله: **{حَدِيثاً}** لأن الحديث هو الكلام، ومن قوله في الآية الثانية: **{قِيلاً}** يعني: قولاً، والقول لا يكون إلا باللفظ، ففيهما إثبات الكلام لله عز وجل، وأن كلامه حق وصدق، ليس فيه كذب بوجه من الوجوه.

الآية الثالثة: قوله: **{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ} [المائدة: ١١٦]**.

الشرح: في هذه الآية إثبات أن الله يقول، وأن قوله مسموع فيكون بصوت، وأن قوله كلمات وجمل فيكون بحرف.

ولهذا كانت عقيدة أهل السنة والجماعة: أن الله يتكلم بكلام حقيقي متى شاء، كيف شاء، بما شاء، بحرف وصوت، لا يماثل أصوات المخلوقين.

"متى شاء ": باعتبار الزمن.

"بما شاء": باعتبار موضوع الكلام من أمر أو نهي أو غير ذلك.

"كيف شاء": يعني على الكيفية والصفة التي يريدها سبحانه وتعالى.

"بحرف" لدلالة هذه الآية الكريمة على ذلك: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ}: فهذه حروف.

"وصوت" لأن عيسى يسمع ما قال.

" لا يماثل أصوات المخلوقين" لأن الله قال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١].

الآية الرابعة: قوله: **{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً} [الأنعام: ١١٥]**.

الشرح: أي: تمت كلمات الله عز وجل على هذين الوصفين: الصدق والعدل، والذي يوصف بالصدق الخبر، والذي يوصف بالعدل الحكم، ولهذا قال المفسرون: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام، فكلمات الله عز وجل في الأخبار صدق لا يعتريها الكذب بوجه الوجوه، وفي الأحكام عدل لا جور فيها بوجه من الوجوه، وهنا وصفت الكلمات بالصدق فدلّ ذلك على أنها أقوال؛ لأن القول هو الذي يقال فيه: كاذب أو صادق.

الآية الخامسة: قوله: **{وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً} [النساء:١٦٤]**.

الشرح: **{اللَّهُ}**: فاعل؛ فالكلام واقع منه، **{تَكْلِيماً}**: مصدر مؤكِد، – بكسر الكاف – فهو ينفي احتمال المجاز. فدل على أنه كلام حقيقي، بحرف وصوت سمعه موسى عليه السلام، ولهذا جرت بينهما محاورة؛ كما في سورة طه وغيرها.

الآية السادسة: قوله: **{مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ} [البقرة:٢٥٣]**.

الشرح: **{مِنْهُمْ}** أي: من الرسل، **{مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ}**: الاسم الكريم **{اللَّهُ}** فاعل كلّم، ومفعولها محذوف يعود على {مَنْ} ، والتقدير: كلمه الله.

الآية السابعة: قوله: **{وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف:١٤٣]**.

الشرح: أفادت هذه الآية أن الكلام يتعلق بمشيئته، وذلك لأن الكلام صار حين المجيء لا سابقاً عليه، فيبطل به قول من قال: إن كلامه هو المعنى القائم بالنفس، وإنه لا يتعلق بمشيئته، كما تقوله الأشاعرة. وفي هذه الآية إبطال زعم من زعم أن موسى فقط هو الذي كلم الله، وحرّف قوله تعالى: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً} إلى نصب الاسم الكريم؛ لأنه في هذه الآية لا يمكنه زعم ذلك ولا تحريفها.

الآية الثامنة: قوله: **{وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً}. [مريم:٥٢]**.

الشرح: **{وَنَادَيْنَاهُ}**: ضمير الفاعل يعود إلى الله، وضمير المفعول يعود إلى موسى؛ أي: نادى الله موسى، **{نَجِيّاً}**: حال، أي: مناجيا، والفرق بين المناداة والمناجاة أن المناداة تكون للبعيد، والمناجاة تكون للقريب وكلاهما كلام.

وفي كون الله عز وجل يتكلم مناداة ومناجاة على ما قاله السلف: " من أنه تعالى يتكلم كيف شاء".

الآية التاسعة: قوله: **{وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [الشعراء:١٠]**.

الشرح: الشاهد قوله: **{نَادَى رَبُّكَ مُوسَى}**: إذ فسر هذا النداء بقوله: **{أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}**. فالنداء يدل على أنه بصوت، و**{أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}**: يدل على أنه بحرف.

الآية العاشرة: قوله: **{وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ} [الأعراف:٢٢]**.

الشرح: **{وَنَادَاهُمَا}**: ضمير المفعول يعود على آدم وحواء.

**{أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ}**: يقرر أنه نهاهما عن تلكما الشجرة، وهذا يدل على أن الله كلمهما من قبل، وأن كلام الله بصوت وحرف، ويدل على أنه يتعلق بمشيئته؛ لقوله: **{أَلَمْ أَنْهَكُمَا}**؛ فإن هذا القول بعد النهي، فيكون متعلقاً بالمشيئة.

الآية الحادية عشرة: قوله: **{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [القصص:٦٥]**.

الشرح: **{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ}**: يوم القيامة، والمنادي هو الله عز وجل: **{فَيَقُولُ}**، ففي هذه الآية إثبات الكلام من وجهين: النداء والقول.

## إثبات أن القرآن كلام الله تعالى

ثم ذكر المؤلف رحمه الله الآيات الدالة على أن القرآن كلام الله، وهذه المسألة وقع فيها النزاع الكثير بين المعتزلة وأهل السنة، وحصل بها شر كثير على أهل السنة، وممن أوذي في الله بسبب ذلك الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إمام أهل السنة، الذي قال فيه بعض العلماء: "إن الله سبحانه وتعالى حفظ الإسلام (أو قال: نصره) بأبي بكر يوم الردة، وبالإمام أحمد يوم المحنة" (سير أعلام النبلاء).

والقول في القرآن جزء من القول في كلام الله على العموم، لكن لما وقعت فيه المحنة وصار محك النزاع بين المعتزلة وأهل السنة؛ صار الناس يفردون القول في القرآن بكلام خاص.

وعقيدة أهل السنة والجماعة في القرآن؛ يقولون: إن القرآن كلام الله، منزل، غير مخلوق منه بدأ، وإليه يعود.

"منزل": دليله قوله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} [البقرة:١٨٥] ، وقوله: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [القدر: ١] ، وقوله: {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً} [الإسراء:١٠٦]، وسيأتي بعد هذا الباب باب خاص لأدلة أن القرآن منزل من الله تعالى.

"غير مخلوق": دليله: قوله تعالى: {أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [الأعراف:٥٤]؛ فجعل الخلق شيئاً والأمر شيئاً آخر؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، والقرآن من الأمر؛ بدليل قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} [الشورى:٥٢]؛ فإذا كان القرآن أمراً، وهو قسيم للخلق؛ صار غير مخلوق؛ لأنه لو كان مخلوقاً ما صح التقسيم، وهذا دليل سمعي.

وهناك دليل عقلي وهو: أن القرآن كلام الله، والكلام ليس عيناً قائمة بنفسها حتى يكون بائناً من الله، ولو كان عيناً قائمة بنفسها بائنة من الله؛ لقلنا: إنه مخلوق، لكن الكلام صفة للمتكلم به، فإذا كان صفة للمتكلم به، وكان من الله؛ كان غير مخلوق لأن صفات الله عز وجل كلها غير مخلوقة.

"منه بدأ"؛ أي: هو الذي ابتدأ به، وتكلم به أولاً.

والقرآن أضيف إلى الله تعالى، وإلى جبريل عليه السلام، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم:

مثال الأول: قول الله عز وجل: {فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ} [التوبة:٦] ، فأضاف الكلام إلى نفسه جل وعلا لأنه منه بدأ.

ومثال الثاني: قوله تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} [التكوير: ١٩ - ٢٠].
ومثال الثالث:- قوله: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ} [الحافة: ٤٠ - ٤١] فأضافه إليهما لأنهما يبلغانه، لا لأنهما ابتدءاه، وإلا فلا يمكن أن نحمل الآيتين على أن الرسولين تكلما به حقيقة، وأنه صدر منهما؛ لأن كلامًا واحدًا لا يمكن أن يصدر من متكلمَين!!

"وإليه يعود": في معناه وجهان: الأول: أنه كما جاء في بعض الآثار: يسرى عليه في ليلة، فيصبح الناس ليس بين أيديهم قرآن؛ لا في صدورهم، ولا في مصاحفهم، يرفعه الله عز وجل في ليلة (السلسلة الصحيحة ٨٧).

الوجه الثاني: أنه يعود إلى الله وصفاً؛ أي أنه لا يوصف به أحد سوى الله فيكون المتكلم بالقرآن هو الله عز وجل، وهو الموصوف به، ولا مانع أن نقول: إن المعنيين كلاهما صحيح.

فهذه عقيدة أهل السنة والجماعة في القرآن الكريم.

ويرى المعتزلة أن القرآن مخلوق، وأنه ليس كلام الله!

ويستدلون لذلك بقول الله تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [الزمر:٦٢] ، والقرآن شيء، فيدخل في عموم قوله: {كُلِّ شَيْءٍ} ، ولأنه ما ثم إلا خالق ومخلوق، والله خالق، وما سواه مخلوق!

والجواب من وجهين:

الأول: أن القرآن كلام الله تعالى، وهو صفة من صفات الله، وصفات الخالق غير مخلوقة.

الثاني: أن مثل هذا التعبير {كُلِّ شَيْءٍ} عام قد يراد به الخاص؛ مثل قوله تعالى عن ملكة سبأ: {وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ}[النمل:٢٣]، وقد خرج شيء كثير لم يدخل في ملكها منه شيء؛ مثل ملك سليمان عليه السلام.

فإن قال قائل: ما توجيهكم لقول الإمام أحمد: "من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق؛ فهو مبتدع" (السنة لعبدالله بن أحمد)؟

فالجواب أن نقول: اللفظ يطلق على معنيين: على المصدر الذي هو فعل الفاعل (التلفظ)، وعلى الملفوظ به:

- فأما على المعنى الأول الذي هو المصدر (التلفظ) فلا شك أن ألفاظنا بالقرآن وغير القرآن مخلوقة، لأن هذا الصوت الخارج من حركة الفم واللسان والشفتين مخلوق، سواء كان الملفوظ به قرآنًا أو حديثًا أو كلامًا أحدثته من عندك.

- أما إذا قصد باللفظ الملفوظ به؛ فهذا منه مخلوق، ومنه غير مخلوق، وعليه: فإذا كان الملفوظ به هو القرآن فليس بمخلوق، هذا تفصيل القول في هذه المسألة.

وقول الإمام أحمد رحمه الله:"من قال: لفظي بالقرآن مخلوق؛ فهو جهمي"! قال ذلك لأحد احتمالين:

- أما أن هذا القول من شعار الجهمية، كأن الإمام أحمد يقول: إذا سمعت الرجل يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، فاعلم أنه جهمي.

- وإما أن يكون ذلك حين يريد القائل باللفظ الملفوظ به، وهذا أقرب؛ لأن الإمام أحمد نفسه فسره فقال: "من قال: لفظي بالقرآن مخلوق؛ -يريد القرآن-، فهو جهمي".

وأما قوله رحمه الله: " ومن قال: غير مخلوق؛ فهو مبتدع" فلأن هذا ما عهد عن السلف، وما كانوا يقولون مثل هذا القول، وإنما يقولون: القرآن كلام الله؛ فقط لا يزيدون على هذا.

فإن قال قائل: هل هناك فرق كبير بين قولنا: إن القرآن منزل، وقولنا: إنه مخلوق؟

فالجواب: نعم؛ بينهما فرق كبير، جرت بسببه المحنة الكبرى في عصر الإمام أحمد.

وذلك أننا إذا قلنا: إنه منزل، فهذا ما جاء به القرآن؛ كما قال الله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} [الفرقان:١].

وأما إذا قلنا: إنه مخلوق فيلزم من ذلك:

أولاً: تكذيب القرآن الكريم؛ لأن الله يقول: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا} [الشورى:٥٢]، فجعله الله تعالى موحى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، ولو كان مخلوقاً؛ ما صح أن يكون موحى؛ وإذا كان وحياً لزم ألا يكون مخلوقاً؛ لأن الله هو الذي تكلم به.

ثانياً: إبطال مدلول الأمر والنهي والخبر والاستخبار؛ لأن هذه الصيغ لو كانت مخلوقة؛ لكانت مجرد شكل خلق على هذه الصورة؛ كما خلقت الشمس على صورتها، والقمر على صورته، والنجم على صورته وهكذا، ولم تكن أمراً ولا نهياً ولا خبراً ولا استخباراً؛ فمثلاً: كلمة (قل) (لا تقل) (قال فلان) (هل قال فلان) كلها نقوش على هذه الصورة، فتبطل دلالتها على الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وتبقى كأنها صور ونقوش لا تفيد شيئاً، ولهذا قال ابن القيم في "النونية": "إن هذا القول يبطل به الأمر والنهي؛ لأن الأمر كأنه شيء خلق على هذه الصورة دون أن يعتبر مدلوله، والنهي خلق على هذه الصورة دون أن يعتبر مدلوله، والنهي خلق على هذه الصورة دون أن يقصد مدلوله، وكذلك الخبر والاستخبار".

ثالثاً: إذا قلنا: إن القرآن مخلوق، وقد أضافه إلى نفسه إضافة خلق؛ صح أن نطلق على كل كلام من البشر وغيرهم أنه كلام الله؛ لأن كل كلام الخلق مخلوق، وبهذا التزم أهل الحلول والاتحاد؛ حيث يقول قائلهم ( وهو ابن عربي في الفتوحات المكية):

وكل كلام في الوجوه كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه

وهذا اللازم باطل، وإذا بطل اللازم بطل الملزوم.

والوجه الرابع: أن نقول: إذا جوزتم أن يكون الكلام – وهو معنى لا يقوم إلا بمتكلم – مخلوقاً؛ لزمكم أن تجوزوا أن تكون جميع صفات الله مخلوقة إذ لا فرق؛؛ فقولوا إذا: سمعه مخلوق، وبصره مخلوق وهكذا.

فإن أبيتم إلا أن تقولوا: إن السمع معنى قائم بالسامع لا يُسمع منه ولا يُرى بخلاف الكلام فإنه جائز أن الله يخلق أصواتاً في الهواء فتسمع!! قلنا لكم: لو خلق أصواتاً في الهواء فسمعت؛ لكان المسموع وصفاً للهواء، وهذا أنتم بأنفسكم لا تقولونه؛ فكيف تعيدون الصفة إلى غير موصوفها؟!

فهذه وجوه أربعة كلها تدل على أن القول بخلق القرآن باطل، ولو لم يكن منه إلا إبطال الأمر والنهي والخبر والاستخبار؛ لكان ذلك كافياً.

وقد ساق المؤلف رحمه الله هذه الآيات الدالة على أن القرآن كلام الله فقال:

الآية الأولى: قوله: **{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ} [التوبة:٦]**.

الشرح: **{اسْتَجَارَكَ}** أي: طلب جوارك، والجوار: بمعنى العصمة والحماية.

**{حَتَّى يَسْمَعَ}**: **{حَتَّى}**: للغاية؛ والمعنى: إن أحد استجارك ليسمع كلام الله؛ فأجره حتى يسمع كلام الله أي: القرآن، وهذا بالاتفاق.

**{كَلامَ اللَّهِ}**: أضاف الكلام إلى نفسه، فدل هذا على أن القرآن كلام الله.

الآية الثانية: قوله: **{وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة:٧٥]**.

الشرح : **{فَرِيقٌ مِنْهُمْ}**: طائفة من اليهود وهم علماؤهم، **{يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ}**: يحتمل أن يراد به القرآن، وهو ظاهر صنيع المؤلف، فيكون دليلاً على أن القرآن كلام الله، ويحتمل أن يراد به كلام الله تعالى لموسى حين اختار موسى سبعين رجلاً لميقات الله تعالى فكلمه الله وهم يسمعون، فحرفوا كلام الله تعالى من بعدما عقلوه وهم يعلمون. ولم أر الاحتمال الأول لأحد من المفسرين.

أيا كان؛ ففيه إثبات أن كلام الله بصوت مسموع، والكلام صفة المتكلم، وليس شيئاً بائناً منه؛ فوجب أن يكون القرآن كلام الله لا كلام غيره.

**{يُحَرِّفُونَهُ}**: أي: يغيرون معناه.

**{مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}**: هذا أشد في قبح عملهم وجرأتهم على الله سبحانه وتعالى: أن يحرفوا الشيء من بعد ما وصل إلى عقولهم وهم يعلمون أنهم محرفون له؛ لأن الذي يحرف المعنى عن جهل أهون من الذي يحرفه بعد العقل والعلم.

الآية الثالثة: **{يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ} [الفتح:١٥]**.

الشرح : في هذه الآية إثبات أن القرآن كلام الله؛ لقوله: **{يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ}**، وفيها ايضاً إثبات القول لله تعالى؛ لقوله: **{كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ}**.

الآية الرابعة: قوله: **{وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} [الكهف: ٢٧]**.

الشرح : **{مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ}**؛ يعني: القرآن، والوحي لا يكون إلا قولاً؛ فهو إذا غير مخلوق.

**{مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ}**: أضافه إليه سبحانه وتعالى؛ لأنه هو الذي تكلم به.

**{لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ}** يعني: لا أحد يبدل كلمات الله، أما الله عز وجل؛ فيبدل آية مكان آية؛ كما قال تعالى: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ} [النحل: ١٠١]، وقوله: **{لِكَلِمَاتِهِ}** دليل على أن القرآن كلام الله تعالى.

الآية الخامسة: قوله: **{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [النمل:٧٦]**.

الشرح: **{يَقُصُّ}** هذا هو الشاهد لأن القصص لا يكون إلا قولاً؛ فإذا كان القرآن هو الذي يقص؛ فهو كلام الله؛ لأن الله تعالى هو الذي قص هذه القصص؛ قال الله سبحانه وتعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ} [يوسف:٣] ، وحينئذ يكون القرآن كلام الله عز وجل.

## إثبات أن القرآن منزل من الله تعالى

ثم ذكر المؤلف رحمه الله الآيات التي فيها أن القرآن منزل من الله تعالى:

الآية الأولى: قوله: **{وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ} [الأنعام:١٥٥]**.

الشرح: الشاهد في قوله: **{أَنْزَلْنَاهُ}**، وثبوت نزوله من الله دليل على أنه كلامه.

الآية الثانية: قوله: **{لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [الحشر: ٢١]**.

الشرح: الشاهد قوله: **{لَوْ أَنْزَلْنَا}**.

الآية الثالثة والرابعة والخامسة: قوله: **{وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} [النحل: ١٠١ – ١٠٣]**.

الشرح: **{بَدَّلْنَا}** أي: جعلنا آية مكان آية، وهذا إشارة إلى النسخ المذكور في قوله تعالى: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا} [البقرة:١٠٦]، فالله سبحانه إذا نسخ آية؛ جعل بدلها آية، سواء نسخها لفظاً، أو نسخها حكماً.

**{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ}**: هذه جمله اعتراضية، وهي من أحسن ما يكون في هذا الموضع، والمعنى أن تبديلنا للآية ليس سفهاً وعبثاً، بل هو صادر عن علم بما يصلح الخلق، فنبدل آية مكان آية؛ لعلمنا أن ذلك أصلح للخلق وأنفع لهم.

وفيها أيضاً فائدة أخرى، وهي أن هذا التبديل ليس من عمل الرسول عليه الصلاة والسلام. بل هو من الله أنزله بعلمه، وأبدل آية مكان آية بعلمه، وليس منك أيها الرسول كما قال تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي} [يونس:١٥].

**{ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ}**: هو جبريل، ووصفه بذلك لطهارته من الخيانة عليه الصلاة والسلام. ولهذا قال في آية أخرى {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} [التكوير:١٩ - ٢٠].

**{مِنْ رَبِّكَ}** قال: {مِنْ رَبِّكَ} ولم يقل: من رب العالمين؛ إشارة إلى الربوبية الخاصة؛ ربوبية الله للنبي صلى الله عليه وسلم، وهي ربوبية أخص الخاصة.

**{بِالْحَقِّ}**: إما أن يكون وصفاً للنازل أو للمنزول به، فإن كان وصفاً للنازل؛ فمعناه: أن نزوله حق، وليس بكذب، وإن كان وصفاً للمنزول به؛ فمعناه: أن ما جاء به فهو حق، وكلاهما مراد؛ فهو حق من عند الله، ونازل بالحق، كما قال الله تعالى: {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ} [الإسراء:١٠٥] .

**{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ}** سبب نزول هذه الآية أن قريشاً قالت: إن هذا القرآن الذي يأتي به محمد ليس من عند ربه، وإنما هو من شخص يعلمه ويقص عليه من قصص الأولين، ويأتي ليقول لنا: هذا من عند الله! فادعوا أنه كلام البشر! والعجيب أنهم يدعون أنه كلام بشر، ثم يقال لهم: ائتوا بمثله، ولا يستطيعون!!

وقد أبطل الله افتراءهم هذا بقوله تعالى: **{لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ}** ، معنى **{يُلْحِدُونَ}** يميلون؛ لأن قولهم هذا ميل عن الصواب بعيد عن الحق، والأعجمي: هو الذي لا يفصح بالكلام وإن كان عربياً، فهذا لسان الذي يلحدون إليه أعجمي لا يفصح بالكلام العربي.

وأما القرآن؛ فإن الله قال فيه: **{وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}**. بين في نفسه مبين لغيره.

والشاهد هو قوله: **{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ}**، وقوله:**{قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ}** ، وقوله **{وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}**، وكل هذه تدل على أن القرآن كلام الله تعالى منزل من عنده.

## إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة

ثم ذكر المؤلف رحمه الله أربع آيات في إثبات رؤية الله تعالى فقال:

الآية الأولى: قوله: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة:٢٢ – ٢٣]**.

الشرح: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ}** يعني بذلك اليوم الآخر، **{نَاضِرَةٌ}** أي: حسنة، من النضارة بالضاد، وهي: الحسن، يدل على ذلك قوله تعالى: {فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً} [الإنسان:١١]؛ أي: حسناً في وجوههم، وسروراً في قلوبهم.

**{إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}**: **{نَاظِرَةٌ}** بالظاء، من النظر، وهنا عدي النظر بـ (إلى) الدالة على الغاية، وهو نظر صادر من الوجوه، والنظر الصادر من الوجوه يكون بالعين؛ بخلاف النظر الصادر من القلوب؛ فإنه يكون بالبصيرة والتدبر والتفكر؛ فهنا صدر النظر من الوجوه إلى الرب عز وجل؛ لقوله: **{إِلَى رَبِّهَا}**.

فتفيد الآية الكريمة: أن هذه الوجوه الناضرة الحسنة تنظر إلى ربها عز وجل، فتزداد حسناً إلى حسنها. وفي هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يرى يوم القيامة بالأبصار وهذا هو قول أهل السنة والجماعة.

واستدلوا لذلك بالآيات التي ساقها المؤلف، واستدلوا أيضاً بالأحاديث المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم والتي نقلها عنه صحابة كثيرون ونقلها عن هؤلاء الصحابة تابعون كثيرون، ونقلها عن التابعين من تابع التابعين كثيرون، والنصوص فيها قطعية الثبوت والدلالة؛ لأنها في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله، صلى الله عليه وسلم المتواترة.

وأهل السنة والجماعة يقولون: إن النظر هنا بالبصر حقيقة، ولا يلزم منه الإدراك؛ لأن الله تعالى يقول: {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} [الأنعام: ١٠٣]؛ كما أن العلم بالقلب أيضاً لا يلزم منه الإدراك؛ قال الله تعالى: {وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً} [طه: ١١٠]، فنحن نعلم ربنا بقلوبنا، لكن لا ندرك كيفيته وحقيقته، وفي يوم القيامة نرى ربنا بأبصارنا، ولكن لا تدركه أبصارنا.

الآية الثانية: قوله: **{عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ} [المطففين:٢٣]**.

الشرح: **{الأَرَائِكِ}**: جمع أريكة، وهي السرير الجميل المغطى بما يشبه الناموسية.

**{يَنْظُرُونَ}**: لم يذكر المنظور إليه، فيكون عاماً لكل ما يتنعمون بالنظر إليه، وأعظمه وأنعمه النظر إلى الله تعالى.

الآية الثالثة: قوله: **{لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦]**.

الشرح: **{الْحُسْنَى}**: هي الجنة، **{وَزِيَادَةٌ}**: هي النظر إلى وجه الله، هكذا فسره النبي صلى الله عليه وسلم: كما ثبت ذلك في "صحيح مسلم" وغيره، ففي هذه الآية دليل على ثبوت رؤية الله من تفسير الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو أعلم الناس بمعاني القرآن بلا شك، وقد فسرها بالنظر إلى وجه الله، وهي زيادة على نعيم الجنة ليست من جنس النعيم الذي في الجنة؛ لأن جنس النعيم الذي في الجنة نعيم بدن، أنهار، وثمار، وفواكه، وأزواج مطهرة، وسرور القلب فيها تبع، لكن النظر إلى وجه الله نعيم قلب، لا يرى أهل الجنة نعيماً أفضل منه، نسأل الله أن يجعلنا ممن يراه.

الآية الرابعة: قوله: **{لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} [ق: ٣٥]**.

الشرح: **{مَا يَشَاءُونَ فِيهَا}** أي: في الجنة، **{وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}** أي: مزيد على ما يشاؤون، وقد فسر كثير من العلماء المزيد هنا بما فسر به النبي صلى الله عليه وسلم الزيادة التي في سورة يونس، وهي: النظر إلى وجه الله الكريم.

فهذه أربع آيات ساقها المؤلف لإثبات رؤية الله تعالى، وهناك آية الخامسة استدل بها الشافعي رحمه الله، وهي قوله تعالى: **{كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين: ١٥]**.

ووجه الدلالة أنه ما حجب هؤلاء في الغضب، إلا لما رآه أولئك في الرضى، فإذا كان أهل الغضب محجوبين عن الله فأهل الرضى يرون الله عز وجل، وهذا استدلال قوي جداً لأنه لو كان الكل محجوبين لم يكن هناك مزية لذكر حجب هؤلاء.

فهذا قول أهل السنة والجماعة في رؤية الله تعالى وأدلتهم، وهي ظاهر جلية، لا ينكرها إلا جاهل أو مكابر.

وخالفهم في ذلك طوائف من أهل التعطيل من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم، واستدلوا بأدلة سمعية متشابهة وأدلة عقلية متداعية:

أما الأدلة السمعية:

فالأول: قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً} [الأعراف: ١٤٣]. ووجه الدلالة أن (لن) للنفي المؤبد، والنفي خبر، وخبر الله تعالى صدق، لا يدخله النسخ.

والرد عليهم في هذا من وجوه:

- الأول: منع كون (لن) للنفي المؤبد؛ لأنه مجرد دعوى: قال ابن مالك في "الكافية":

ومن رأى النفي بلن مؤبداً ... فقوله اردد وسواه فاعضدا

- الثاني: أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يطلب من الله الرؤية في الآخرة؛ وإنما طلب رؤية حاضرة؛ لقوله: {أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ}؛ أي: الآن. فقال الله تعالى له: {لَنْ تَرَانِي}؛ يعني: لن تستطيع أن تراني الآن، ثم ضرب الله تعالى له مثلاً بالجبل حيث تجلى الله تعالى له فجعله دكاً، فقال: {وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي} ، فلما رأى موسى ما حصل للجبل؛ علم أنه هو لا طاقة له برؤية الله، وخر صعقاً لهول ما رأى.

ونحن نقول: إن رؤية الله تعالى في الدنيا مستحيلة؛ لأن الحال البشرية لا تستطيع تحمل رؤية الله عز وجل كيف وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل: "حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه" (رواه مسلم).

أما رؤية الله تعالى في الآخرة فممكنة؛ لأن الناس في ذلك اليوم يكونون في عالم آخر تختلف فيه أحوالهم عن حالهم في الدنيا؛ كما يعلم ذلك من نصوص الكتاب والسنة فيما يجري للناس في عرصات القيامة وفي مقرهم في دار النعيم أو الجحيم.

- الوجه الثالث: استحالة رؤية الله في الآخرة عند المنكرين لها مبنية على أن إثباتها يتضمن نقصاً في حق الله تعالى! كما يعللون نفيهم بذلك، وحينئذ يكون سؤال موسى لربه الرؤية دائراً بين الجهل بما يجب لله ويستحيل في حقه، أو الاعتداء في دعائه حين طلب من الله ما لا يليق به إن كان عالماً بأن ذلك مستحيل

في حق الله، وحينئذ يكون هؤلاء النفاة أعلم من موسى عليه السلام فيما يجب لله تعالى ويستحيل في حقه!! وهذا غاية الضلال! وبهذا الوجه يتبين أن في الآية دليلاً عليهم لا دليلاً لهم.

الدليل الثاني لنفاة رؤية الله تعالى: قوله تعالى: {لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: ١٠٣].

والرد عليهم: أن الآية فيها نفي الإدراك، والرؤية لا تستلزم الإدراك؛ ألا ترى أن الرجل يرى الشمس ولا يحيط بها إدراكاً؟! فإذا أثبتنا أن الله تعالى يرى؛ لم يلزم أن يكون يدرك بهذه الرؤية لأن الإدراك أخص من مطلق الرؤية.

ولهذا نقول: إن نفي الإدراك يدل على وجود أصل الرؤية لأن نفي الأخص يدل على وجود الأعم ولو كان الأعم منتفياً لوجب نفيه وقيل: لا تراه الأبصار، لأن نفيه يقتضي نفي الأخص ولا عكس، ولأنه لو كان الأعم منتفياً لكان نفي الأخص إيهاماً وتلبيساً ينزه عنه كلام الله عز وجل، وعلى هذا يكون في الآية دليل عليهم لا دليل لهم.

وأما أدلة نفاة الرؤية العقلية: فقالوا: لو كان الله يرى لزم أن يكون جسماً والجسم ممتنع على الله تعالى لأنه يستلزم التشبيه والتمثيل!

والرد عليهم: أنه إن كان يلزم من رؤية الله تعالى أن يكون جسماً فليكن ذلك، لكننا نعلم علم اليقين أنه لا يماثل أجسام المخلوقين؛ لأن الله تعالى يقول: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، على أن القول بالجسم نفياً أو إثباتاً مما أحدثه المتكلمون وليس في الكتاب والسنة إثباته ولا نفيه.

قال المؤلف رحمه الله: **"وهذا الباب في كتاب الله كثير ومن تدبر القرآن طالباً للهدى تبين له طريق الحق"**.

الشرح: **"وهذا الباب"**: يعني باب الأسماء والصفات، **"في كتاب الله كثير"**: ولذلك ما من آية من كتاب الله إلا وتجد فيها غالباً اسماً من أسماء الله أو فعلاً من أفعاله أو حكماً من أحكامه، بل لو شئت لقلت: كل آية في كتاب الله فهي صفة من صفات الله لأن القرآن الكريم كلام الله عز وجل؛ فكل آية منه هي صفة من صفات الله عز وجل.

"**ومن تدبر القرآن**": أي تفكر فيه، كأن الإنسان يستدبره مرة ويستقبله أخرى فهو يكرر اللفظ ليفهم المعنى.

"**طالباً للهدى**": أي ناويا بتدبر القرآن طلب الهدى منه، وليس قصده بتدبر القرآن أن ينتصر لقوله، أو أن يتخذ منه مجادلة بالباطل.

فمن كان هذا شأنه فستكون النتيجة قول المؤلف: "**تبين له طريق الحق**". وما أعظمها من نتيجة!!

## فصل في ما جاء في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال المؤلف رحمه الله: **"ثمّ سُنَّةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم تُفَسِّرُ القُرْآنَ وَتُبيِّنُهُ وَتَدُلُّ عَلَيْهِ وَتُعَبِّرُ عَنْهُ"**.

الشرح: **السنة** : هي قول النبي صلى الله عليه وسلم وفعله وإقراره، فتشمل الواجب والمستحب.

والسنة هي المصدر الثاني في التشريع، ومعنى قولنا: "المصدر الثاني": يعني: في العدد، وليس في الترتيب؛ فإن منزلتها إذا صحت عن النبي صلى الله عليه وسلم كمنزلة القرآن، لكن الناظر في القرآن يحتاج إلى شيء واحد، وهو صحة الدلالة على الحكم، والناظر في السنة يحتاج إلى شيئين: الأول: صحة نسبتها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، والثاني: صحة دلالتها على الحكم؛ لأن القرآن سنده متواتر، ليس فيه ما يوجب الشك؛ بخلاف ما ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فإذا صحت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كانت بمنزلة القرآن تمامًا في تصديق الخبر والعمل بالحكم: كما قال تعالى: {وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [النساء:١١٣]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم :"لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته؛ يأتيه الأمر من أمري؛ يقول: لا ندري! ما وجدنا في كتاب الله؛ اتبعناه، ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه" (رواه أحمد وغيره).

**"تفسر القرآن"** يعني: توضح المعنى المراد منه: كما في تفسير قوله تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦]؛ حيث فسرها النبي صلى الله عليه وسلم بأنها النظر إلى وجه الله عز وجل، وكما فَسَّر النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال: ٦٠]، فقال: "ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي" (رواه مسلم).

**"وتبيِّنُه"**؛ يعني: تبين المجمل منه؛ حيث إن في القرآن آيات مجملة، لكن السنة بينتها ووضحتها؛ مثل: قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} [البقرة: ٤٣]: أمر الله بإقامتها، وبيَّنت السنة كيفيتها، وكقوله تعالى: {وَآتُوا الزَّكَاةَ} [البقرة: ٤٣]، بينت السنة: الأنصبة والأموال الزكوية.

**"وتدل عليه"**: أي: تفسر القرآن.

"**وتعبر عنه**" يعني: تأتي بمعانٍ جديدة أو بأحكام جديدة ليست في القرآن، وهذا كثير، فإن كثيرًا من الأحكام الشرعية استقلت بها السنة، ولم يأت بها القرآن، لكن دل على أن لها حكم ما جاء في القرآن مثل قوله تعالى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} [النساء:٨٠]، وقوله: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر:٧]، وقوله: {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} [الأحزاب:٣٦].

أما الحكم المعين؛ فقد استقلت السنة بأحكام كثيرة عن القرآن الكريم، ومن ذلك ما سيذكره المؤلف في هذا الفصل: "ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ... " (متفق عليه)، فإن هذا ليس في القرآن الكريم.

ثم قال رحمه الله قاعدة مهمة: "**وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّه عَزَّ وَجَلَّ مِن الأَحَادِيثِ الصِّحاح الَّتي تَلَقَّاها أَهْلُ المَعْرِفَةِ بالقَبُولِ، وَجَبَ الإيمانُ بِهَا كَذَلِكَ**".

الشرح: "**ما وصف الرسول به ربه**" وكذلك ما سمى به ربه، لأن هناك أسماء مما سمى به الرسول ربه لم تكن موجودة في القرآن الكريم؛ مثل (الشافي)؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم:"واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك" (متفق عليه). ومثل : "الرب": لم يأت في القرآن بدون إضافة لكن في السنة قال الرسول صلى الله عليه وسلم : "أما الركوع فعظموا فيه الرب" (رواه مسلم).

"**التي تلقاها أَهْلُ المَعْرِفَةِ بالقَبُولِ**": هذا بيان لحال الأحاديث الصحيحة.

"**وَجَبَ الإيمانُ بها**": لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [النساء: ١٣٦]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [النساء: ٥٩]، وقوله تعالى: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ} [القصص: ٦٥، ٦٦] والنصوص في هذا كثيرة معلومة.

واعلم أن موقف أهل الأهواء والبدع تجاه الأحاديث المخالفة لأهوائهم يدور على أمرين: إما التكذيب، وإما التحريف: فإن كان يمكنهم تكذيبه كذبوه؛ كقولهم في القاعدة الباطلة: أخبار الآحاد لا تقبل في العقيدة!! وقد رد ابن القيم رحمه الله هذه القاعدة وأبطلها بأدلة كثيرة في آخر "مختصر الصواعق".

وإن كان لا يمكنهم تكذيبه حرفوه؛ كما حرفوا نصوص القرآن.

أما أهل السنة؛ فقبلوا كل ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم في الأمور العلمية والأمور العملية؛ لقيام الدليل على وجوب قبول ذلك.

"**كذَلِك**" يعني: كما يجب الإيمان بما في القرآن؛ من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل.

**إثبات نزول الله تعالى إلى السماء الدنيا** : وقوله رحمه الله: "**فَمِنْ ذَلِكَ: مِثْلُ قَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم : (يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟))**. **مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.**

الشرح: هذا هو الحديث الأول في إثبات نزول الله إلى السماء الدنيا، وهذا الحديث قال بعض أهل العلم: إنه من الأحاديث المتواترة، واتفقوا على أنه من الأحاديث المشهورة المستفيضة عند أهل العلم بالسنة.

"**ينزل ربنا**": ينزل تعالى نزولا حقيقيا؛ لأنه كما مرَّ علينا من قبل: أن كل شيء كان الضَّمير يعود فيه إلى الله فهو ينسب إليه حقيقة، "**إلى السماء الدنيا**": هي أقرب السماوات إلى الأرض، "**كل ليلة**": يشمل جميع ليالي العام، "**حين يبقى ثلث الليل الآخر**": والليل يبتدئ من غروب الشمس اتفاقًا لكن حصل الخلاف في انتهائه هل يكون بطلوع الفجر أو بطلوع الشمس، والظاهر أن الليل الشرعي ينتهي بطلوع الفجر والليل الفلكي ينتهي بطلوع الشمس.

"**فيقول: من يدعوني**" أي: من يقول: يا رب!

"**فأستجيبَ له** ": بالنصب؛ لأنها جواب الطلب.

"**من يسألني**": يقول: أسألك الجنة، أو نحو ذلك من المسائل.

"**من يستغفرني**": فيقول: اللهم اغفر لي، أو: أستغفرك اللهم!

"**فأغفرَ له**": والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه.

وبهذا يتبيَّن لكل إنسان قرأ هذا الحديث أن المراد بالنزول هنا نزول الله نفسه، ولا نحتاج أن نقول: بذاته؛ ما دام الفعل أُضيف إليه فهو له، لكن بعض العلماء قالوا: ينزل بذاته؛ لأنهم لجؤوا إلى ذلك واضطروا إليه؛ لأن

هناك من حرَّف الحديث وقال: الذي ينزل أمر الله! وقال آخرون: بل الذي ينزل رحمة الله! وقال آخرون: بل الذي ينزل مَلَكٌ من ملائكة الله!

وهذا كله باطل؛ فإن نزول أمر الله دائمًا وأبدًا، ولا يختص نزوله في الثلث الأخير من الليل؛ قال الله تعالى: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ}[السجدة:٥]، وقال:{وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ}[هود: ١٢٣].

وأما قولهم: تنزل رحمة الله إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر! فسبحان الله! الرحمة لا تنزل إلا في هذا الوقت! قال الله تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} [النحل: ٥٣]؛ كل النعم من الله، وهي من آثار رحمته، وهي تترى كل وقت!!

ثم نقول: أي فائدة لنا بنزول الرحمة إلى السماء الدنيا في هذا الوقت فقط؟!

ثم نقول لمن قال: إنه ملَك من ملائكته: هل من المعقول أنَّ الملَك من ملائكة الله يقول: مَن يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له؟!

فتبيَّن بهذا أن هذه الأقوال كلها تحريف باطل يبطله نص الحديث.

ومما يورده هؤلاء المعطلة على أهل السنة في هذا أنهم يقولون: كيف تقولون: إن الله ينزل؟! إذا نزل؛ أين العلو؟! وإذا نزل؛ أين الاستواء على العرش؟! إذا نزل؛ فالنزول حركة وانتقال!! إذا نزل فالنزول حادث، والحوادث لا تقوم إلا بحادث!!

فنقول: هذا جدال بالباطل، وليس بمانع من القول بحقيقة النزول!! هل أنتم أعلم بما يستحقُّه الله عزَّ وجلَّ من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ؟! فأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ما قالوا هذه الاحتمالات أبدًا؛ بل قالوا: سمعنا وآمنَّا وقبلنا وصدَّقنا، وأنتم أيها الخالفون المخالفون تأتون الآن وتجادلون بالباطل وتقولون: كيف؟! وكيف؟!

نحن نقول: ينزل، ولا نتكلَّم عن استوائه على العرش؛ هل يخلو منه العرش أو لا يخلو؟!

أما العلو؛ فنقول: ينزل، لكنه عال عزَّ وجلَّ على خلقه؛ لأنه ليس معنى النزول أن السماء تُقِلُّه، وأن السماوات الأخرى تظلُّه؛ إذ إنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته.

فنقول: هو ينزل حقيقة مع علوه حقيقة، وليس كمثله شيء.

أما الاستواء على العرش فهو فعل، ليس من صفات الذات، وليس لنا حق – فيما أرى– أن نتكلم هل يخلو منه العرش أو لا يخلو، بل نسكت كما سكت عن ذلك الصحابة رضي الله عنهم.

وعلماء أهل السنة لهم في هذا ثلاثة أقوال: قول بأنه يخلو، وقول بأنه لا يخلو، وقول بالتوقُّف.

وشيخ الإسلام رحمه الله في "الرسالة العرشية" يقول: إنه لا يخلو منه العرش، لأن أدلة استوائه على العرش محكمَة، والحديث هذا محكم، والله عزَّ وجلَّ لا تُقاس صفاته بصفات الخلق؛ فيجب علينا أن نبقي نصوص الاستواء على إحكامها، ونصُّ النزول على إحكامه، ونقول: هو مستو على عرشه، نازل إلى السماء الدنيا، والله أعلم بكيفية ذلك، وعقولنا أقصر وأدنى وأحقر من أن تحيط بالله عزَّ وجلَّ.

وأورد المتأخرون الذين عرفوا أن الأرض كروية وأن الشمس تدور على الأرض إشكالًا فقالوا: كيف ينزل في ثلث الليل الآخر؟! وثلث الليل الآخر إذا انتقل عن الجزيرة العربية ذهب إلى أوروبا وما قاربها؟! أفيكون نازلًا دائمًا؟!

فنقول: آمن أولًا بأن الله ينزل في هذا الوقت المعين، وإذا آمنت ليس عليك شيء وراء ذلك، لا تقل: كيف؟! وكيف؟! بل قل: إذا كان ثلث الليل الآخر في جزيرة العرب فالله نازل، وإذا كان في أمريكا ثلث الليل يكون نزول الله أيضًا، وإذا طلع الفجر انتهى وقت النزول في كل مكان بحسبه.

وفي هذا الحديث من الفوائد غير إثبات النزول: إثبات العلو لله من قوله: "ينزل"، وإثبات الأفعال الاختيارية التي هي الصفات الفعلية من قوله: "ينزل ربنا حين يبقى ثلث الليل الآخر"، وإثبات القول لله من قوله: "يقول"، وإثبات الكَرَم لله عزَّ وجلَّ من قوله: "مَن يدعوني ... مَن يسألني ... مَن يستغفرني ...".

**<u>إثبات الفرح لله تعالى</u>**: الحديث الثاني وهو في إثبات الفرح لله تعالى: **"وقوله صلى الله عليه وسلم: "لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ ... " الحديث، متفق عليه.**

الشرح: في هذا الحديث: أن هذا الرجل كان معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فضلَّت عنه، فذهب يطلبها، فلم يجدها، فأيس من الحياة، ثم اضطجع تحت شجرة ينتظر الموت؛ فإذا بخطام ناقته متعلقًا بالشجرة . ولا

أحد يستطيع أن يقدر هذا الفرح إلا من وقع فيه . فأمسك بخطام الناقة، وقال: اللهمَّ! أنت عبدي وأنا ربك؛ أخطأ من شدة الفرح؛ لم يملك كيف يتصرَّف في الكلام!!

وفي هذا الحديث: إثبات الفرح لله عزَّ وجلَّ؛ فنقول في هذا الفرح: إنه فرح حقيقي وأشد فرح، ولكنه ليس كفرح المخلوقين، وإنما هو فرح يليق به عزَّ وجلَّ؛ مثل بقية الصفات.

فنؤمن بأن الله تعالى له فرح كما أثبت ذلك أعلم الخلق به محمد صلى الله عليه وسلم، وهو أنصح الخلق للخلق، وأفصح الخلق فيما ينطق به عليه الصلاة والسلام.

وقال أهل التحريف: إن الله لا يفرح، وإنما المراد بفرحه: إثابته التائب، أو: إرادة الثواب؛ وهذا تحريف ظاهر للنص وهم به على خطر عظيم.

**إثبات الضحك لله تعالى**: الحديث الثالث: وهو في إثبات الضحك لله تعالى: **وقوله صلى الله عليه وسلم :"يَضْحَكُ اللهُ إلى رَجُلَيْنِ، يَقْتُلُ أحَدُهُما الآخَرَ، كِلاهُما يَدْخُلُ الجَنَّةَ" (متفق عليه).**

الشرح: في هذا الحديث إثبات الضحك لله عزَّ وجلَّ، وهو ضحك حقيقي، لكنه لا يماثل ضحك المخلوقين؛ ضحك يليق بجلاله وعظمته، ولا يمكن أن نمثِّله؛ لأننا لا يجوز أن نقول: إن لله فمًا أو أسنانًا أو ما أشبه ذلك، لكن نثبت الضحك لله على وجه يليق به سبحانه وتعالى.

فإذا قال قائل: يلزم من إثبات الضحك أن يكون الله مماثلًا للمخلوق!! فالجواب: لا يلزم أن يكون مماثلًا للمخلوق؛ لأن الذي قال: "يضحك ": هو الذي أُنزِل عليه قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[الشورى:١١]، ومن جهة أخرى؛ فالنبي عليه الصلاة والسلام لا يتكلم في مثل هذا إلا عن وحي؛ لأنه من أمور الغيب وليس من الأمور الاجتهادية التي قد يجتهد فيها الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم يقرُّه الله على ذلك أو لا يقرُّه، ولكنه من الأمور الغيبية التي يتلقَّاها الرسول عليه الصلاة والسلام عن طريق الوحي.

فإن قال قائل: المراد بالضحك الرضى؛ لأن الإنسان إذا رضي عن الشيء؛ سُرَّ به وضحك، والمراد بالرضى الثواب أو إرادة الثواب؛ كما قال ذلك أهل التعطيل.

فالجواب أن نقول: هذا تحريف للكَلِم عن مواضعه؛ فما الذي أدراكم أن المراد بالرضى الثواب؟!

فأنتم الآن قلتم على الله ما لا تعلمون من وجهين:

الوجه الأول: صرفتم النص عن ظاهره بلا علم.

الثاني: أثبتُّم له معنى خلاف الظاهر بلا علم.

ثم نقول لهم: الإرادة؛ إذا قلتم: إنها ثابتة لله عزَّ وجلَّ؛ فإنه تنتقض قاعدتكم لأن للإنسان إرادة؛ كما قال تعالى: {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ} [آل عمران: ١٥٢]؛ فللإنسان إرادة، بل للجدار إرادة؛ كما قال تعالى: {فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ} [الكهف: ٧٧]؛ فأنتم إما أن تنفوا الإرادة عن الله عزَّ وجلَّ كما نفيتم ما نفيتم من الصفات، وإما إن تثبتوا لله عزَّ وجلَّ ما أثبته لنفسه، وإن كان للمخلوق نظيره في الاسم لا في الحقيقة.

**إثبات العجب وصفات أخرى لله تعالى** : الحديث الرابع وهو في إثبات العجب وصفات أخرى: **وقوله صلى الله عليه وسلم: "عَجِبَ رَبُّنا مِنْ قُنوطِ عِبادِه وقُربِ غِيَرِهِ؛ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلينَ قَنِطينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ؛ يَعْلَمُ أنَّ فرَجَكُمْ قَرِيبٌ". حديث حسن** (الصحيحة ٢٨١٠).

الشرح: العجب: هو استغراب الشيء، ويكون ذلك لسببين:

السبب الأول: خَفاء الأسباب على هذا المستغرب للشيء المتعجَّب منه؛ بحيث يأتيه بغتة بدون توقع، وهذا مستحيل على الله تعالى لأن الله بكل شيء عليم، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

والثاني: أن يكون السبب فيه خروج هذا الشيء عن نظائره وعمّا ينبغي أن يكون عليه، بدون قصور من المتعجب؛ بحيث يعمل عملًا مستغربًا لا ينبغي أن يقع من مثله، وهذا ثابت لله تعالى؛ لأنه ليس عن نقص من المتعجِّب، ولكنه عجب بالنظر إلى حال المتعجَّب منه.

**"عَجِبَ ربُّنا من قنوط عباده"**: القنوط: أشد اليأس، فيعجب الرب عزَّ وجلَّ من دخول اليأس الشديد على قلوب العباد، **"وقُربِ غِيَرِه"**: الواو بمعنى (مع)، يعني: مع قرب غِيَرِه، و (الغِيَر): اسم جمع غِيَرَة، وهي اسم بمعنى التغيير، وعلى هذا؛ فيكون المعنى: وقرب تغييره، فيعجب الرب عزَّ وجلَّ كيف نقنط وهو سبحانه وتعالى قريب التغيير، يغير الحال إلى حال أخرى بكلمة واحدة، وهي: كُنْ، فيكون.

"**ينظر إليكم أَزِلين**" أي: ينظر الله إلينا بعينه، "**أَزِلين**": الأزِل: الواقع في الشدة. و"**قنطينَ**": جمع قانط، والقانط: اليائس من الفرج وزوال الشدة، فذكر النبي صلى الله عليه وسلم حال الإنسان وحال قلبه، حاله أنه واقع في شدة، وقلبه قانط يائس مستبعد للفَرَجِ.

"**فيظل يضحك**": يظل يضحك من هذه الحال العجيبة الغريبة؛ كيف تقنط من رحمة أرحم الراحمين الذي يقول للشيء: كنْ. فيكون؟ "**يعلم أن فرجكم قريب**" أي: زوال شدتكم قريب.

وفي هذا الحديث عدة صفات:

أولًا: العجب، لقوله: "عجب ربنا من قنوط عباده"، وقد دلَّ على هذه الصفة القرآن الكريم، قال الله تعالى: {بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ} [الصافات: ١٢]؛ على قراءة ضم التاء.

ثانيا: بيان قدرة الله عزَّ وجلَّ، لقوله: "وقرب غِيَرِه"، وأنه عزَّ وجلَّ تام القدرة، إذا أراد؛ غيَّر الحال من حال إلى ضدها في وقت قريب.

ثالثا: إثبات النظر، لقوله: "ينظر إليكم".

رابعا: إثبات الضحك، لقوله: "فيظل يضحك".

خامسا: إثبات العلم، "يعلم أن فرجكم قريب".

سادسا: إثبات الرحمة؛ لأن الفرج من الله دليل على رحمته بعباده.

وكل هذه الصفات التي دلَّ عليها الحديث يجب علينا أن نثبتها لله عزَّ وجلَّ حقًّا على حقيقتها، ولا نتأول فيها.

**إثبات الرجل أو القدم لله تعالى**: الحديث الخامس وهو في إثبات الرجل أو القدم لله تعالى:"**وقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال جهَنَّمُ يُلْقى فيها، وهيَ تَقولُ: هَلْ مِنْ مَزيدٍ، حتّى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فيها رِجْلَهُ (وفي رواية: عليها قَدَمَهُ)، فيَنْزَوي بَعْضُها إلى بَعْضٍ، فَتَقولُ: قَطْ قَطْ". متفق عليه.**

الشرح: "**لا تزال جهنمُ يُلْقى فيها**": هذا يوم القيامة، "**وهي تقول: هل من مزيد؟** ": (هل): للطلب؛ يعني: زيدوا"، وأبعد النجعة من قال: إن الاستفهام هنا للنفي، والمعنى على زعمه: لا مزيد على ما فيَّ!!

والدليل على بطلان هذا التأويل قوله: "**حتى يضع رب العزة فيها رجله (وفي رواية: عليها قدمه)** ": لأن هذا يدل على أنها تطلب زيادة، وإلا لما وضع الله عليها رجله حتى ينزوي بعضها إلى بعض؛ فكأنها تطلب بشوق إلى من يلقى فيها زيادة على ما فيها.

"**حتى يضع رب العزة**": (رب) هنا بمعنى: صاحب، وليست بمعنى خالق، لأن العزة صفة من صفات الله، وصفات الله تعالى غير مخلوقة، وعَبَّر برب العزة؛ لأن المقام مقام عزَّة وغلبة وقهر.

"**فيها رجله**"، **وفي رواية**: "**عليها قدمه**": (في) و (على): معناهما واحد هنا، والظاهر أن (في) بمعنى (على)؛ كقوله: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [طه: ٧١]؛ أي: عليها.

أما الرجل والقدم فمعناهما واحد، وسميت رجل الإنسان قدمًا لأنها تتقدم في المشي؛ فإن الإنسان لا يستطيع أن يمشي برجله إلا إذا قدمها.

"**فينزوي بعضها إلى بعض**" يعني: ينضم بعضها إلى بعض من عظمة قدم الباري عزَّ وجلَّ.

"**فتقول: قط قط**"، بمعنى: حسبي حسبي؛ يعني: لا أريد أحدًا.

ففي هذا الحديث أن لله تعالى رجلًا وقدمًا حقيقية، لا تماثل أرجل المخلوقين، ويسمي أهل السنة مثل هذه الصفة: الصفة الذاتية الخبرية؛ لأنها لم تعلم إلا بالخبر، ولأن مسماها أبعاض لنا وأجزاء، لكن لا نقول بالنسبة لله: إنها أبعاض وأجزاء؛ لأن هذا ممتنع على الله عزَّ وجلَّ.

وخالف الأشاعرة وأهل التحريف في ذلك، فقالوا: "يضع عليها رجله"؛ يعني: طائفة من عباده مستحقين للدخول، والرجل تأتي بمعنى الطائفة؛ كما في حديث أيوب عليه الصلاة والسلام: أرسل الله إليه رجل جراد من ذهب (رواه البخاري) يعني: طائفة من جراد، وهذا تحريف باطل؛ لأن قوله: "عليها": يمنع ذلك.

وأيضًا؛ لا يمكن أن يضيف الله عزَّ وجلَّ أهل النار إلى نفسه؛ لأن إضافة الشيء إلى الله تكريم وتشريف. وقالوا في القدم: قدم؛ بمعنى: مقدم؛ أي: يضع الله تعالى عليها مقدمه؛ أي: من يقدمهم إلى النار!

وهذا باطل أيضًا؛ فإن أهل النار لا يقدمهم الباري عزَّ وجلَّ، ولكنهم {يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا} [الطور: ١٣]، ويلقون فيها إلقاء.

فهؤلاء المحرفون فروا من شيء ووقعوا في شرٍّ منه؛ فروا من تنزيه الله عن القدم والرجل، لكنهم وقعوا في السفه ومجانبة الحكمة في أفعال الله عزَّ وجلَّ.

والحاصل أنه يجب علينا أن نؤمن بأن لله تعالى قدمًا، وإن شئنا؛ قلنا: رجلًا؛ على سبيل الحقيقة؛ مع عدم المماثلة، ولا نكيِّف الرجل؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرنا بأن لله تعالى رجلًا أو قدمًا، ولم يخبرنا كيف هذه الرجل أو القدم، وقد قال الله تعالى:{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[الأعراف:٣٣].

**إثبات الكلام والصوت لله تعالى**: الحديث السادس وهو في إثبات الكلام والصوت لله تعالى: **"وقوله صلى الله عليه وسلم: "يَقُولُ اللهُ تَعالى: يا آدَمُ! فَيَقولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيُنادِي بِصَوْتٍ: إنَّ اللهَ يَأمُرُكَ أنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إلى النَّارِ ... ". متفق عليه.**

الشرح: **"فينادي"** أي: الله؛ فالفاعل هو الله عزَّ وجلَّ، **"بصوت"**: هذا من باب التأكيد؛ لأن النداء لا يكون إلا بصوت مرتفع، **"إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار"**: ولم يقل: إني آمرك! وهذا من باب الكبرياء والعظمة؛ حيث كنى عن نفسه تعالى بكنية الغائب، فقال: "إن الله يأمرك"، وجاء في القرآن مثل هذا: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء: ٥٨]، ولم يقل: إني آمركم.

الحديث السابع وهو في إثبات الكلام لله تعالى: **"وقوله صلى الله عليه وسلم:"ما مِنكمْ مِنْ أحَدٍ إلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، ولَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمان" (متفق عليه).**

الشرح: **"إلا سيكلمه ربه"**؛ يعني: سيكلمه الله عز وجل يوم القيامة، **"ليس بينه وبينه ترجمان"** الترجمان: هو الذي يكون واسطة بين متكلمين مختلفين في اللغة، ينقل إلى أحدهما كلام الآخر باللغة التي يفهمها.

وفي هذا الحديث من صفات الله: الكلام، وأنه بصوت مسموع مفهوم.

**إثبات العلو لله تعالى وصفات أخرى**: الحديث الثامن: في إثبات العلو لله وصفات أخرى: **"قوله صلى الله عليه وسلم في رُقْيَةِ المريض: "رَبَّنا اللهُ الذي في السَّماءِ! تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أمْرُكَ في السَّماءِ والأرْضِ؛ كما رَحْمَتُكَ في السَّماءِ؛ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ في الأرْضِ، اغْفِرْ لَنا حُوبَنا وخَطايانا، أنتَ رَبُّ**

**الطَّيِّبينَ، أنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ وَشِفاءً مِنْ شفائِكَ على هذا الوَجِع؛ فَيَبْرَأ". حديث حسن، رواه أبو داود وغيره.**

الشرح : هذا الحديث ضعيف جدا، انظر ضعيف أبي داود وضعيف الترغيب والترهيب وضعيف الجامع الصغير للألباني، وفي غيره من النصوص الثابتة غنية عنه.

الحديث التاسع: في إثبات العلو أيضًا: **وقوله صلى الله عليه وسلم: "أَلا تَأمَنوني وأَنا أَمينُ مَنْ في السَّماءِ" (متفق عليه).**

الشرح: **"ألا تأمنوني"** أي: ألا تعتبروني أمينًا، **"وأنا أمين من في السماء"**: والذي في السماء هو الله عز وجل، والشاهد قوله: **"من في السماء"**، ونقول فيها ما قلناه فيما سبق في الآيات.

الحديث العاشر: في إثبات العلو أيضًا: **وقوله صلى الله عليه وسلم: "وَالعَرْشُ فَوْقَ الماءِ، وَاللهُ فَوْقَ العَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ". حديث حسن، رواه أبو داود وغيره.**

الشرح: لما ذكر النبي عليه الصلاة والسلام المسافات التي بين السماوات؛ قال: "والعرش فوق الماء"، ويشهد لهذا قوله تعالى: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} [هود: ٧].

**"والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه"**: هو فوق العرش، ومع ذلك لا يخفى عليه شيء من أحوالنا وأعمالنا، **"وهو يعلم ما أنتم عليه"**: يفيد إحاطة علم الله بكل ما نحن عليه.

الحديث الحادي عشر: في إثبات العلو أيضًا: **وقوله صلى الله عليه وسلم للجارية: "أَيْنَ اللهُ؟ ". قالت: في السماء. قال: "مَنْ أنا؟ ". قالت: أنت رسول الله. قال: "أَعْتِقْها" فإنَّها مُؤْمِنَة". رواه مسلم.**

الشرح: **"أين الله؟ "**: (أين): يستفهم بها عن المكان، واستفهام النبي صلى الله عليه وسلم بـ (أين) يدل على أن لله مكانًا، ولكن يجب أن نعلم أن الله تعالى لا تحيط به الأمكنة، لأنه أكبر من كل شيء، وأن ما فوق الكون عدم، ما ثَمَّ إلا الله؛ فهو فوق كل شيء.

**"قالت: في السماء"**، يعني: على السماء، أو: في العلو؛ على حسب الاحتمالين السابقين.

**"قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله. قال: أعتقها فإنها مؤمنة"**. وعند أهل التعطيل هي بقولها: "في السماء": إذا أرادت أنه في العلو؛ هي كافرة!! لأنهم يرون أن من أثبت أن الله في جهة فهو كافر، إذ يقولون: إن الجهات خالية منه.

الحديث الثاني عشر: في إثبات المعية: **وقوله صلى الله عليه وسلم:"أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت". حديث حسن، أخرجه الطبراني من حديث عبادة بن الصامت.**

الشرح: هذا الحديث ضعيف ، انظر ضعيف الجامع الصغير للألباني، وفي غيره من النصوص الثابتة غنية عنه.

**إثبات كون الله قبل وجه المصلي**: الحديث الثالث عشر: في إثبات كون الله قبل وجه المصلي: **وقوله صلى الله عليه وسلم:"إذا قامَ أحَدُكُمْ إلى الصَّلاة؛ فَلا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلا عَنْ يَمينِه؛ فإنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، ولكِنْ عَنْ يَسارِهِ، أو تَحْتَ قَدَمِهِ". متفق عليه.**

الشرح: **"قبل وجهه"**؛ يعني: أمامه، قال الله تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} [البقرة: ١١٥]، **"يمينه"**: ورد فيه حديث: "فإن عن يمينه ملكًا (رواه البخاري)، ولأن اليمين أفضل من الشمال، فيكون اليسار أولى بالبصاق ونحوه، ولهذا قال: **"ولكن عن يساره أو تحت قدمه"**، فإن كان في المسجد؛ قال العلماء: فإنه يجعل البصاق في خرقة أو منديل أو ثوبه، ويحك بعضه ببعض، حتى تزول صورة البصاق، وإذا كان الإنسان في المسجد عند الجدار، والجدار قصير عن يساره، فإنه يمكن أن يبصق عن يساره إذا لم يؤذ أحدًا من المارة.

يستفاد من هذا الحديث: أن الله تبارك وتعالى أمام وجه المصلي، ولكن يجب أن نعلم أن الذي قال: إنه أمام وجه المصلي، هو الذي قال: إنه في السماء، ولا تناقض في كلامه هذا وهذا؛ إذ يمكن الجمع من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن الشرع جمع بينهما، ولا يجمع بين متناقضين.

الوجه الثاني: أنه يمكن أن يكون الشيء عاليًا، وهو قِبَل وجهك؛ فها هو الرجل يستقبل الشمس أول النهار فتكون أمامه وهي في السماء، ويستقبلها في آخر النهار تكون أمامه وهي في السماء، فإذا كان هذا ممكنًا في المخلوق، ففي الخالق من باب أولى بلا شك.

الوجه الثالث: هب أن هذا ممتنع في المخلوق فإنه لا يمتنع في الخالق، لأن الله تعالى ليس كمثله شيء في جميع صفاته.

**إثبات صفات أخرى**: الحديث الرابع عشر:**وقوله صلى الله عليه وسلم:"اللهُمَّ! رَبَّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَالأَرْضِ وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ! رَبَّنا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ! فالِقَ الحَبِّ والنَّوَى! مُنْزِلَ التَّوْراةِ وَالإِنْجيلِ وَالقُرْآنِ! أعوذُ بِكَ مِنْ شَر نَفْسي، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِناصِيَتِها. أَنْتَ الأَوَّلُ؛ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وأَنْتَ الآخِرُ؛ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْء، وأَنْتَ الظَّاهِرُ؛ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وأَنْتَ الباطِنُ؛ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ؛ اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وأَغْنِني مِنَ الفَقْرِ". رواه مسلم.**

الشرح: هذا حديث عظيم، توسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى بربوبيته في قوله: **"اللهم! رب السماوات السبع والأرض! ورب العرش العظيم! ربنا ورب كل شيء! ".**

**"فالق الحب والنوى"**: حب الزروع. و"النوى": نوى الغرس، فالأشجار التي تخرج: إما زروع أصلها الحب، وإما أشجار أصلها النوى، فما للأشجار يسمى نوى، وما للزروع يسمى حبًّا.

**"منزل التوراة والإنجيل والقرآن"**: وهذه أعظم كتب أنزلها الله عزَّ وجلَّ، وبدأها على الترتيب الزمني: التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والفرقان على محمد صلى الله عليهم وسلم، وفي هذا نص صريح على أن التوراة منزلة كما جاء في القرآن: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ} [المائدة: ٤٤]، وقال في أول سورة آل عمران: {نزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ} [آل عمران: ٣ - ٤].

**"أعوذ بك من شر نفسي"**: أعتصم بالله من شر نفسي، إذًا؛ في نفسك شر، {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ} [يوسف: ٥٣]، **"ومن شر كل دابة"**: الدابة: كل ما يدب على الأرض، حتى الذي يمشي على بطنه داخل في هذا؛ لقوله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ} [النور: ٤٥]، وقوله: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} [هود: ٦]، **"أنت آخذ بناصيتها"**: الناصية: مقدم الرأس، وإنما نص على الناصية؛ لأنه هو المقدم، وهو الذي يمسك به لقيادة البعير وشبهه.

**"أنت الأول؛ فليس قبلك شيء"**: هذا تفسير من النبي صلى الله عليه وسلم لقوله: "الأول" والأول من أسماء الله.

"**وأنت الظاهر؛ فليس فوقك شيء**": الظاهر من الظهور، وهو العلو؛ كما قال تعالى: {فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} [الكهف: ٩٧]؛ {يظهروه} أي: يعلوا عليه.

وأما من قال: الظاهر بآياته؛ فهذا خطأ؛ لأنه لا أحد أعلم بتفسير كلام الله من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال: "الظاهر؛ فليس فوقك شيء"؛ بل هو فوق كل شيء سبحانه.

"**وأنت الباطن؛ فليس دونك شيء**": المعنى: ليس دون الله شيء، لا أحد يدبر دون الله، ولا أحد ينفرد بشيء دون الله، ولا أحد يخفى على الله؛ كل شيء فالله محيط به، ولهذا قال: "ليس دونك شيء"؛ يعني: لا يحول دونك شيء، ولا يمنع دونك شيء، ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

وفي هذا الحديث أسماء وصفات:

فمن الأسماء: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن.

- ومن الصفات: الأولية والآخرية، وفيهما الإحاطة الزمانية.

والظاهرية والباطنية، وفيهما الإحاطة المكانية. ومنها: العلو، وعموم ربوبيته، وتمام قدرته.

ومنها: كمال رحمته وحكمته بإنزال الكتب؛ لتحكم بين الناس وتهديهم صراط الله.

**إثبات قرب الله تعالى**: الحديث الخامس عشر: في إثبات قرب الله تعالى: **وقوله صلى الله عليه وسلم لمَّا رفع الصحابة أصواتهم بالذكر: "أيُّها النَّاسُ! أرْبَعُوا عَلى أنْفُسِكُمْ، فَإنكمْ لا تَدْعُون أصَمَّ وَلا غائِبًا؛ إنَّما تَدْعونَ سَميعًا بَصيرًا، إنَّ الذي تَدْعونَهُ أقْرَبُ إلى أحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ راحِلَتِهِ". متفق عليه.**

الشرح: كان الصحابة رضي الله عنهم مع النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذا علوا نشزًا كبروا، وإذا نزلوا واديًا سبحوا؛ لأن الإنسان إذا ارتفع قد يتعاظم في نفسه ويرى أنه مرتفع عظيم؛ فناسب أن يقول: الله أكبر! تذكيرًا لنفسه بكبرياء الله عزَّ وجلَّ، وأما إذا نزل فهذا سفول ونزول فيقول: سبحان الله! تذكيرًا لنفسه بتنزه الله عن السفل، فكان الصحابة رضي الله عنهم يرفعون أصواتهم بالذكر جدًّا فقال النبي عليه الصلاة والسلام:"**أيها الناس! اربعوا على أنفسكم**"؛ يعني: هوّنوا عليها، "**فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا**"؛ لا تدعون أصم لا يسمع، ولا غائبًا لا يرى، "**إنما تدعون سميعًا**"؛ يسمع ذكركم، "**بصيرًا**"؛ يرى أفعالكم.

"**إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**": عنق الراحلة للراكب قريب جدًّا؛ فالله تعالى أقرب من هذا إلى الإنسان، ومع هذا فهو فوق سماواته على عرشه.

ولا منافاة بين القرب والعلو؛ لأن الشيء قد يكون بعيدًا قريبًا؛ هذا بالنسبة للمخلوق؛ فكيف بالخالق؟! فالرب عزَّ وجلَّ قريب مع علوه، أقرب إلى أحدنا من عنق راحلته.

هذا الحديث فيه فوائد:

فيه من الصفات السلبية: نفي كونه أصم أو غائبًا؛ لكمال سمعه ولكمال بصره وعلمه وقربه.

وفيه أيضًا: أن الله قريب، وقد دل عليه قوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: ١٨٦].

**إثبات رؤية المؤمنين لربهم**: الحديث السادس عشر: إثبات رؤية المؤمنين لربهم: **وقوله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَما تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، لا تُضامُّونَ في رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا على صَلاةٍ قَبْلَ طُلوعِ الشَّمْسِ وَصَلاةٍ قَبْلَ غُروبِها" فَافْعَلوا". متفق عليه.**

الشرح: "**إنكم سترون ربكم**": السين للتحقيق، وتخلص الفعل المضارع إلى الاستقبال بعد أن كان صالحًا للحال والاستقبال، والخطاب للمؤمنين.

"**كما ترون القمر**": (ما) هذه مصدرية، فيحوَّل الفعل بعدها إلى مصدر، ويكون التقدير: كرؤيتكم القمر، فالتشبيه حينئذ للرؤية بالرؤية، وليس للمرئي بالمرئي، لأن الله تعالى ليس كمثله شيء.

والنبي عليه الصلاة والسلام يقرب المعاني أحيانًا بذكر الأمثلة الحسية الواقعية، كما سأله أبو رزين العقيلي لقيط بن عامر؛ قال: يا رسول الله! أكلنا يرى ربه يوم القيامة، وما آية ذلك في خلقه؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم:"كلكم ينظر إلى القمر مخليًا به". قال: بلى. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فالله أعظم" (رواه أحمد وأبو داود)، وقوله: "مُخليًا به"، يعني: خاليًا به.

"**كما ترون القمر ليلة البدر**": أي: ليلة إبداره، وهي الليلة الرابعة عشرة كما قال ابن القيم: كالبدر ليل الست بعد ثمان.

**"لا تضامُّون في رؤيته"**، وفي لفظ:"لا تضارون": "لا تُضامون": بضم التاء وتخفيف الميم، أي: لا يلحقكم ضيم، والضيم الظلم، والمعنى: لا يحجب بعضكم بعضًا عن الرؤية فيظلمه بمنعه إياه، لأن كل واحد يراه.

"لا تضامُّون": بتشديد الميم وفتح التاء وضمها: يعني: لا ينضم بعضكم إلى بعض في رؤيته؛ لأن الشيء إذا كان خفيًّا؛ ينضم الواحد إلى صاحبه ليريه إياه.

- أما "لا تضارُون" أو "لا تضارُّون"؛ فالمعنى: لا يلحقكم ضرر؛ لأن كل إنسان يراه سبحانه وتعالى وهو في غاية ما يكون من الطمأنينة والراحة.

وفي هذا الحديث من صفات الله: إثبات أن الله يرى، وقد سبق شرح هذه الصفة عند ذكر الآيات الدالة عليها، والأحاديث في هذا متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ فثبوتها قطعي ودلالتها قطعية، ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أن من أنكر رؤية الله تعالى فهو كافر مرتد، وأن الواجب على كل مؤمن أن يقر بذلك.

قال: وإنما كفرناه؛ لأن الأدلة قطعية الثبوت وقطعية الدلالة، ولا يمكن لأحد أن يقول: إن قول الرسول عليه الصلاة والسلام: "إنكم سترون ربكم"؛ إنه ليس قطعي الدلالة؛ إذ ليس هناك شئ أشد قطعًا من مثل هذا التركيب.

لو كان الحديث: "إنكم ترون ربكم": لربما تحتمل التأويل، وأنه عبر عن العلم اليقيني بالرؤية البصرية، ولكنه صرح بأنا نراه كما نرى القمر، وهو حسي.

قوله: **"إلى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه بما يخبر به، فإن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك، كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه، من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل "**.

الشرح: يعني: انظر إلى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه؛ فما كان مثلها ثبوتًا ودلالة؛ فحكمه حكمها.

وقد سبق شرح مفردات هذه الجملة من كلام المؤلف رحمه الله تعالى بما فيه الكفاية، وبالله التوفيق.

## فصل مكانة أهل السنة والجماعة بين فرق الأمة واتصافهم بالوسطية

قال المؤلف رحمه الله: "**بَلْ هُمُ الوَسَطُ في فِرَقِ الأُمَّةِ، كما أنَّ الأُمَّةَ هِيَ الوَسَطُ في الأُمَمِ**".

الشرح: "**الأمة هي الوسط بين الأمم**"؛ يعني: الأمم السابقة، وذلك من عدة أوجه:

- ففي حق الله تعالى: كانت اليهود تصف الله تعالى بالنقائص، فتلحقه بالمخلوق، وكانت النصارى تلحق المخلوق الناقص بالرب الكامل، أما هذه الأمة فلم تصف الرب بالنقائص، ولم تلحق المخلوق به.
- وفي حق الأنبياء كذبت اليهود عيسى بن مريم، وكفرت به، وغلت النصارى فيه حتى جعلته إلهًا، أما هذه الأمة فآمنت به بدون غلو، وقالت: هو عبد الله ورسوله.

- وفي العبادات، النصارى يدينون لله عزَّ وجلَّ بعدم الطهارة فلا يتطهرون من الخبث، فيبول الواحد منهم، ويصيب البول ثيابه، ويصلي في الكنيسة على هذه الحالة!!

واليهود بالعكس إذا أصابتهم النجاسة فإنهم يقرضونها من الثوب ولا يطهرها الماء عندهم؛ حتى إنهم يبتعدون عن الحائض لا يؤاكلونها ولا يجتمعون بها!

أما هذه الأمة، فهم وسط، فيقولون: لا هذا ولا هذا، لا يُشَق الثوب ولا يُصَلى بالنجاسة، بل يغسل غسلًا حتى تزول النجاسة منه ويصلى به، ولا يبتعدون عن الحائض، بل يؤاكلونها ويباشرها زوجها في غير الجماع.

- وكذلك أيضًا في باب المحرَّمات من المآكل والمشارب؛ فالنصارى استحلوا الخبائث وجميع المحرمات، واليهود حرِّم عليهم كل ذي ظفر كما قال تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إلا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} [الأنعام: ١٤٦]، أما هذه الأمة فهم وسط أحلت لهم الطيبات وحرمت عليهم الخبائث.

- وفي القصاص؛ القصاص فرض على اليهود، والتسامح عن القصاص فرض على النصارى، أما هذه الأمة، فهي مخيرة بين القصاص والدية والعفو مجانًا.

فكانت الأمة الإسلامية وسطًا بين الأمم بين الغلو والتقصير، وأهل السنة والجماعة وسط بين فرق الأمة كالأمة بين الديانات الأخرى.

ثم ذكر المؤلف رحمه الله أصولًا خمسة كان أهل السنة والجماعة فيها وسطًا بين فرق الأمة:

**الأصل الأول: باب الأسماء والصفات**: قال المؤلف: "**فَهُمْ وَسَطٌ في باب صِفاتِ اللهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطيلِ الجَهْمِيَّةِ، وَأَهْلِ التَّمْثيلِ المُشَبِّهَةِ**".

الشرح: هذان طرفان متطرفان: أهل التعطيل الجهمية، وأهل التمثيل المشبهة.

- فالجهمية: ينكرون صفات الله عزَّ وجلَّ، بل غلاتهم ينكرون الأسماء ويقولون: لا يجوز أن نثبت لله اسمًا ولا صفةً، لأنك إذا أثبت له اسمًا شبهته بالمسميات، أو صفة شبهته بالموصوفات!! وعندهم أن ما أضافه الله إلى نفسه من الأسماء فهو من باب المجاز، وليس من باب التسمي بهذه الأسماء!!

- والمعتزلة: ينكرون الصفات ويثبتون الأسماء.

- والأشعرية: يثبتون الأسماء وسبعًا من الصفات.

وكل هؤلاء يشملهم اسم التعطيل، لكن بعضهم معطل تعطيلًا كاملًا كالجهمية، وبعضهم معطلا تعطيلًا نسبيًّا مثل المعتزلة والأشاعرة، وكل هؤلاء غلوا في التنزيه.

وأما أهل التمثيل المشبهة فيثبتون لله الصفات، ويقولون: يجب أن نثبت لله الصفات لأنه أثبتها لنفسه، لكن يقولون: إنها مثل صفات المخلوقين، فهؤلاء غلوا في الإثبات فقالوا: يجب عليك أن تثبت لله وجهًا، وهذا الوجه مثل وجه أحسن واحد من بني آدم. قالوا: لأن الله خاطبنا بما نعقل ونفهم؛ قال: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)} [الرحمن: ٢٧]، ولا نعقل ونفهم من الوجه إلا ما نشاهد، وأحسن ما نشاهد الإنسان، فهو على زعمهم - والعياذ بالله - على مثل أحسن واحد من الشباب الإنساني!! ويدَّعون أن هذا هو المعقول!!

وأما أهل السنة والجماعة؛ فقالوا: نحن نأخذ بالحق الذي مع الجانبين؛ فنأخذ بالحق في باب التنزيه فلا نمثل، ونأخذ بالحق في باب الإثبات فلا نعطل؛ بل إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل، فنأخذ بالأدلة من هنا ومن هنا.

والخلاصة: أن أهل السنة وسط في باب الصفات بين طائفتين متطرفتين: طائفة غلت في التنزيه والنفي وهم أهل التعطيل من الجهمية وغيرهم، وطائفة غلت في الإثبات، وهم الممثلة.

**الأصل الثاني**: **باب أفعال الله**: قال المؤلف: "**وَهُمْ وَسَطٌ في بابِ أفْعالِ اللهِ بَيْنَ الجَبْرِيَّةِ وَالقَدَرِيَّةِ**".

الشرح: انقسم الناس في باب القدر إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الجبرية: وهم آمنوا بقدر الله عزَّ وجلَّ وغلوا في إثباته، حتى سلبوا الإنسان قدرته واختياره، وقالوا: إن الله فاعل كل شيء، وليس للعبد اختيار ولا قدرة، وإنما يفعل الفعل مجبرًا عليه، بل إن بعضهم ادعى أن فعل العبد هو فعل الله، ولهذا دخل من بابهم أهل الاتحاد والحلول.

القسم الثاني: القدرية مجوس هذه الأمة، قالوا: إن العبد مستقل بفعله، وليس لله فيه مشيئة ولا تقدير، حتى غلا بعضهم، فقال: إن الله لا يعلم فعل العبد إلا إذا فعله، أما قبل فلا يعلم عنه شيئًا.

القسم الثالث: أهل السنة والجماعة؛ قالوا: نحن نأخذ بالحق الذي مع الجانبين؛ فنقول: إن فعل العبد واقع بمشيئة الله وخلق الله، ولا يمكن أن يكون في ملك الله ما لا يشاؤه أبدًا، والإنسان له اختيار وإرادة، ويفرق بين الفعل الذي يضطر إليه والفعل الذي يختاره، فأفعال العباد باختيارهم وإرادتهم، ومع ذلك؛ فهي واقعة بمشيئة الله وخلقه.

لكن سيبقى عندنا إشكال: كيف تكون خلقًا لله وهي فعل الإنسان؟!

والجواب: أن أفعال العبد صدرت بإرادة وقدرة، والذي خلق فيه الإرادة والقدرة هو الله عزَّ وجلَّ، ولو شاء الله تعالى لسلبه القدرة فلم يستطع أن يفعل شيئا، ولو أن أحدًا قادرًا لم يرد فعلًا لم يقع الفعل منه، وكل إنسان قادر أن يفعل الفعل فإنه يفعله بإرادته اللهمَّ إلا من أكره، فنحن نفعل باختيارنا وقدرتنا، والذي خلق فينا الاختيار والقدرة هو الله جل وعلا.

**الأصل الثالث**: **باب الوعيد**: قال المؤلف: "**وَفي بابِ وَعيدِ اللهِ بَيْنَ المُرْجِئَةِ وَبَيْنَ الوَعيدِيَّةِ مِنَ القَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ**".

الشرح: المرجئة: وسُمُّوا مرجئة: إما من الرجاء؛ لتغليبهم أدلة الرجاء على أدلة الوعيد، وإما من الإرجاء بمعنى: التأخير؛ لتأخيرهم الأعمال عن مسمَّى الإيمان، وهم يقولون: أن الأعمال ليست من الإيمان، وأن الإيمان إنما هو الاعتراف بالقلب فقط، ولهذا يقولون: إن فاعل الكبيرة كالزاني والسارق وشارب الخمر وقاطع الطريق لا

يستحق دخول النار لا دخولًا مؤبَّدًا ولا مؤقتًا؛ إذ لا يضر ـ عندهم ـ مع الإيمان معصية؛ مهما كانت صغيرة أم كبيرة؛ إذا لم تصل إلى حد الكفر.

وأما الوعيديَّة فقابلوهم وغلَّبوا جانب الوعيد، وقالوا: أي كبيرة يفعلها الإنسان ولم يتب منها؛ فإنه مخلَّد في النار بها: إن سرق؛ فهو من أهل النار خالدًا مخلدًا، وإن شرب الخمر؛ فهو في النار خالدًا مخلدًا، وهكذا.

والوعيدية يشمل طائفتين: المعتزلة، والخوارج، ولهذا قال المؤلف: "من القدرية وغيرهم"؛ فيشمل المعتزلة – والمعتزلة قدرية، يرون أن الإنسان مستقل بعمله، وهم وعيدية – ويشمل الخوارج.

فاتفقت الطائفتان على أن فاعل الكبيرة مخلد في النار لا يخرج منها أبدًا، وأن من شرب الخمر مرة كمن عبد الصنم ألف سنة كلهم مخلَّدون في النار، لكن يختلفون في الاسم كما سيأتي إن شاء الله في الباب التالي.

وأما أهل السنة والجماعة؛ فيقولون: لا نغلب جانب الوعيد كما فعل المعتزلة والخوارج، ولا جانب الوعد كما فعل المرجئة، بل نقول: فاعل الكبيرة مستحق للعذاب، وإن عذِّب لا يخلد في النار.

وسبب الخلاف بين الوعيدية وبين المرجئة: أن كل واحد منهما نظر إلى النصوص بعين عوراء؛ ينظر من جانب واحد، فهؤلاء نظروا إلى نصوص الوعد فأدخلوا الإنسان في الرجاء، وقالوا: نأخذ بها وندع ما سواها، وحملوا نصوص الوعيد على الكفار، بينما نظرت الوعيدية إلى نصوص الوعيد فأخذوا بها، وغفلوا عن نصوص الوعد، فلهذا اختل توازن الطائفتين لما نظرت كل واحدة منهما للنصوص من جانب واحد.

وأما أهل السنة والجماعة فأخذوا بهذا وهذا، وقالوا: نصوص الوعيد محكمة فنأخذ بها، ونصوص الوعد محكمة فنأخذ بها، وأخذوا من نصوص الوعد ما ردوا به على الوعيدية، ومن نصوص الوعيد ما ردوا به على المرجئة، وقالوا: فاعل الكبيرة مستحق لدخول النار لئلا نهدر نصوص الوعيد؛ وغير مخلَّد فيها لئلا نهدر نصوص الوعد، فأخذوا بالدليلين ونظروا بالعينين.

**الأصل الرابع**: **باب أسماء الإيمان والدين**: قال المؤلف: **"وفي باب أسماءِ الإيمانِ والدِّينِ بَيْنَ الحَرُورِيَّةِ وَالمُعْتَزِلَةِ، وَبَيْنَ المُرْجِئَةِ الجَهمِيَّة"**.

الشرح: هذا في باب الأسماء والدين، وهو غير باب الأحكام الذي هو الوعد والوعيد؛ ففاعل الكبيرة ماذا نسميه؟! أمؤمن هو أم كافر؟!

وأهل السنة . في هذا . وسط بين طائفتين: الحرورية والمعتزلة من وجه، والمرجئة الجهمية من وجه آخر:

– فالحرورية والمعتزلة أخرجوه من الإيمان، لكن الحرورية قالوا: إنه كافر يحل دمه وماله ولهذا خرجوا على الأئمة، وكفَّروا الناس.

. وأما المعتزلة فقالوا: فاعل الكبيرة خرج من الإيمان، ولم يدخل في الكفر فهو في منزلة بين منزلتين؛ لا نتجاسر أن نقول: إنه كافر! وليس لنا أن نقول: إنه مؤمن وهو يفعل الكبيرة؛ وقالوا: نحن أسعد الناس بالحق!

والحقيقة أنهم إذا قالوا: إن هذا لا يتساوى مع مؤمن عابد؛ فقد صدقوا، لكن كونهم يخرجونه من الإيمان ثم يحدثون منزلة بين منزلتين: بدعة ما جاءت لا في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، إذ كل النصوص تدل على أنه لا يوجد منزلة بين منزلتين: كقوله تعالى: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [سبأ: ٢٤]. وقوله: {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إلا الضَّلَالُ} [يونس: ٣٢]، وقوله: {فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [التغابن: ٢]، وفي الحديث: "القرآن حجة لك أو عليك" (رواه مسلم)، فأين المنزلة بين المنزلتين؟!

وهم مع هذا ينفذون عليه الوعيد، فيوافقون الخوارج في أن فاعل الكبيرة مخلَّد في النار، أما في الدنيا فقالوا: تجرى عليه أحكام الإسلام؛ لأنه هو الأصل؛ فهو عندهم في الدنيا بمنزلة الفاسق العاصي، فيا سبحان الله! كيف نصلي عليه، ونقول: اللهمَّ! اغفر له، وهو مخلَّد في النار؟!

فيجب عليهم أن يقولوا في أحكام الدنيا: إنه يُتَوَقَّف فيه! لا نقول: مسلم، ولا: كافر، ولا نعطيه أحكام الإسلام، ولا أحكام الكفر!! إذا مات: لا نصلي عليه، ولا نكفنه، ولا نغسله، ولا يدفن مع المسلمين، ولا ندفنه مع الكفار؛ إذًا؛ نبحث له عن مقبرة بين مقبرتين!!

– وأما المرجئة الجهمية فخالفوا هؤلاء وقالوا: هو مؤمن كامل الإيمان!! يسرق ويزني ويشرب الخمر ويقتل النفس ويقطع الطريق؛ ونقول له: أنت مؤمن كامل الإيمان!! كرجل فعل الواجبات والمستحبات وتجنَّب المحرمات!! أنت وهو في الإيمان سواء!! فهؤلاء وأولئك على الضد في الاسم وفي الحكم.

– وأما أهل السنة والجماعة؛ فكانوا وسطًا بين هذه الطوائف؛ فقالوا: نسمي المؤمن الذي يفعل الكبيرة مؤمنًا ناقص الإيمان، أو نقول: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، وهذا هو العدل فلا يعطى الاسم المطلق، ولا يسلب مطلق الاسم.

ويترتَّب على هذا: أن الفاسق لا يجوز لنا أن نكرهه كرهًا مطلقًا، ولا أن نحبه حبًّا مطلقًا، بل نحبه على ما معه من الإيمان، ونكرهه على ما معه من المعصية.

**الأصل الخامس: في الصحابة رضي الله عنهم**: قال المؤلف: **"وَفي أَصْحابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَيْنَ الرَّافِضَةِ وَالخَوارِجِ"**.

الشرح: **"أصحاب"**: جمع صاحب، وهو الملازم للشيء، والصحابي: هو الذي اجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم مؤمنًا به ومات على ذلك، وهذا خاص في الصحابة، وهو من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم أن الإنسان يكون من أصحابه وإن لم يجتمع به إلا لحظة واحدة؛ لكن بشرط أن يكون مؤمنًا به.

– وأهل السنة والجماعة وسط في الصحابة بين الرافضة والخوارج:

– فالرافضة: هم فرقة من فرق الشيعة، وسموا رافضة لأنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي ينتسب إليه الآن الزيدية؛ رفضوه لأنهم سألوه: ما تقول في أبي بكر وعمر؟ يريدون منه أن يسبهما ويطعن فيهما! ولكنه رضي الله عنه قال لهم: نعم الوزيران وزيرا جدي . يريد بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأثنى عليهما . فرفضوه وغضبوا عليه وتركوه! فسموا رافضة!!

هؤلاء الروافض – والعياذ بالله – يقولون: إن الصحابة كفار، وكلهم ارتدوا بعد النبي صلى الله عليه وسلم؛ حتى أبو بكر وعمر . عند بعضهم . كانا كافرين وماتا على النفاق والعياذ بالله، ولا يستثنون من الصحابة إلا آل البيت، ونفرًا قليلًا ممن قالوا: إنهم من أولياء آل البيت، وقد قال صاحب كتاب "الفصل": "إن غلاتهم كفّروا علي بن أبي طالب؛ قالوا: لأن عليًّا أقر الظلم والباطل حين بايع أبا بكر وعمر، وكان الواجب عليه أن ينكر بيعتهما، فلما لم يأخذ بالحق والعدل، ووافق على الظلم؛ صار ظالمًا كافرًا".

- أما الخوارج فهم على العكس من الرافضة؛ فكفروا علي بن أبي طالب، وكفروا معاوية بن أبي سفيان، وكفروا كل من لم يكن على طريقتهم، واستحلوا دماء المسلمين، فكانوا كما وصفهم النبي عليه الصلاة والسلام: "يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة" (متفق عليه)، وإيمانهم لا يتجاوز حناجرهم.

فالرافضة غلوا في آل البيت وأشياعهم وبالغوا في ذلك، حتى إن منهم من ادعى ألوهية علي، ومنهم من ادعى أنه أحق بالنبوة من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والخوارج بالعكس.

- أما أهل السنة والجماعة؛ فكانوا وسطًا بين الطائفتين: فقالوا: نحن ننزل آل البيت منزلتهم، ونرى أن لهم حقين علينا: حق الإسلام والإيمان، وحق القرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقالوا: قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لها الحق علينا، لكن من حقها علينا أن ننزلها منزلتها، وأن لا نغلو فيها.

ويقولون في بقية أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم: لهم الحق علينا بالتوقير والإجلال والترضي، وأن نكون كما قال الله تعالى: {يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: ١٠]، ولا نعادي أحدًا منهم أبدًا لا آل البيت ولا غيرهم؛ فكل منهم نعطيه حقه؛ فصاروا وسطًا بين جفاة وغلاة.

## فصل في الجمع بين المعية وعلو الله واستوائه على عرشه

قال المؤلف رحمه الله: **"وَقَدْ دَخَلَ فِيما ذَكَرْناهُ مِنَ الإيمانِ باللهِ: الإيمانُ بما أخْبَرَ اللهُ بهِ في كِتابِهِ، وَتَواتَرَ عَنْ رَسولِهِ صلى الله عليه وسلم، وَأجْمَعَ عَلَيهِ سَلَفُ الأمَّةِ، مِنْ أنَّه سُبحانَهُ فوقَ سماواتِهِ على عرشِهِ عليٌّ على خلقِهِ"**.

الشرح: هذه ثلاثة أدلة على علو الله تعالى: الكتاب، والسنة، والإجماع، وقد تقدم سردها وأضفنا عليها دليلا رابعا ودليلا خامسا وهما: العقل والفطرة.

وقوله رحمه الله:" **وَهُوَ – سُبْحانَهُ – مَعَهُمْ أيْنَما كانُوا؛ يَعْلَمُ ما هُمْ عاملونَ"**.

الشرح: قد سبق الكلام على المعية بما فيه الكفاية.

وقوله رحمه الله: **"كمَا جَمَعَ بَينَ ذلِكَ في قَوْلِهِ: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: ٤]**.

الشرح: **"بين ذلك"**؛ أي: بين العلو والمعية، ففي قوله: **{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}**: إثبات العلو، وفي قوله: **{وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ}**: إثبات المعية، فجمع بينهما في آية واحدة، ولا منافاة بينهما كما سبق.

وقوله رحمه الله: **"وَلَيْسَ مَعْنى قَوْلِهِ: {وَهُوَ مَعَكُمْ}، أنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالخَلْقِ، فإنَّ هذا لا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ "**.

الشرح: **{وَلَيْسَ مَعْنى قَوْلِهِ: {وَهُوَ مَعَكُمْ} أنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالخَلْقِ}**، لأن هذا المعنى نقص، وقد سبق بيان هذا.

**"فإنَّ هذا لا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ"** وإذا كانت اللغة لا توجبه لم يتعين، وهذا أحد الوجوه الدالة على بطلان مذهب الحلولية من الجهمية وغيرهم؛ القائلين بأن الله مع خلقه مختلطًا بهم.

ولم يقل: لا تقتضيه اللغة؛ لأن اللغة قد تقتضيه، وفرق بين كون اللغة تقتضي ذلك وبين كونها توجب ذلك، فالمعية في اللغة قد تقتضي الاختلاط؛ مثل الماء واللبن؛ تقول: ماء مع لبن مخلوطًا.

وقوله رحمه الله: **"وَهُوَ خِلافُ ما أجْمَعَ عَلَيهِ سَلَفُ الأمَّةِ، وَخِلافُ ما فَطَرَ اللهُ عَلَيْهِ الخَلْقَ"**.

الشرح: وذلك لأن الإنسان مفطور على أن الخالق بائن من المخلوق، وليس من أحد يقول: يا الله! إلا ويعتقد أن الله تعالى بائن من خلقه، ولا يعتقد أنه حالٌّ في خلقه؛ فدعوى أنه مختلط بالخلق مخالف للشرع ومخالف للعقل ومخالف للفطرة.

وقوله رحمه الله: **"بَلِ القَمَرُ آيَةٌ مِنْ آياتِ اللهِ مِنْ أصْغَرِ مَخْلوقاتِهِ، وَهُوَ مَوْضوعٌ في السَّماءِ، وَهُوَ مَعَ المُسافِرِ وَغَيْرِ المُسافِرِ أيْنَما كانَ"**.

الشرح: هذا مثل ضربه المؤلف رحمه الله تقريبًا للمعنى وتحقيقًا لصحة كون الشيء مع الإنسان حقيقةً مع تباعد ما بينهما، فإذا كان هذا المخلوق الذي هو من أصغر المخلوقات؛ نقول: إنه معنا، وهو في السماء ولا يعد ذلك تناقضًا ولا يقتضي اختلاطًا؛ فلماذا لا يصح أن نجري آيات المعية على ظاهرها، ونقول: هو معنا حقيقة، وإن كان هو في السماء فوق كل شيء؟!

وهذا هو الذي حققه شيخ الإسلام في كتبه وقال: إنه لا حاجة إلى أن نؤول الآية، بل الآية على ظاهرها، لكن مع اعتقادنا بأن الله تعالى في السماء على عرشه؛ فهو معنا حقًّا وهو على عرشه حقًّا؛ كما نقول: إنه ينزل إلى السماء الدنيا حقًّا وهو في العلو، ولا أحد من أهل السنة ينكر هذا أبدًا.

وفيما حققه رحمه الله دفع لحجة بعض أهل التعطيل الذين احتجوا على أهل السنة، فقالوا: أنتم تمنعون التأويل، مع أنكم تؤولون في المعية فتقولون: المعية بمعنى العلم والسمع والبصر والقدرة والسلطان وما أشبه ذلك!!

فنقول: إن المعية حق على حقيقتها، ولكنها ليست في المفهوم الذي فهمه الجهمية ونحوهم، بأنه مع الناس في كل مكان، وتفسير بعض السلف لها بالعلم ونحوه تفسير باللازم.

وقد عثرت على تقرير للشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله يبين هذا المعنى تمامًا؛ أي أن المعية حق على حقيقتها، ولا تستلزم أن يكون مختلطًا بالخلق أو أنه في الأرض؛ إذ قال رحمه الله جوابًا على قول بعض السلف: "معهم بعلمه":"إذا جاءت هذه الكلمة فهي تفسير للمعية بالمقتضى وليس تفسيرًا لحقيقة الكلمة، والذي يحمل ويحدو على التفسير بهذا أن المنازع في هذا المبتدعة الذين يقولون: إنه مختلط بهم، فيأتي البعض من السلف بالمراد بالسياق وهو أنه بكمال علمه، ولكن لا يريدون أن كلمة (مع) مدلولها بكل شيء عليم،

بل اجتمعت معها في العلم، وزادت المعية في المعنى وهو كونه معهم؛ فتفسيرها بالمقتضى لا يدل على أن معناها باطل؛ فالكل حق ... ".

إلى أن قال: "ولهذا؛ شيخ الإسلام في عقيدته الأخرى المباركة المختصرة؛ بين أن قوله "معهم" حق على حقيقته؛ فمن فسرها من السلف بالمقتضى فلحاجة دعت إلى ذلك، وهو الرد على أهل الحلول الجهمية الذين ينكرون العلو كما تقدم، والقرآن يفسر بالمطابقة وبالمفهوم وبالاستلزام وبالمقتضى وبغير ذلك من الدلالات، وهؤلاء العلماء الذين روي عنهم التفسير بالمقتضى لا ينكرون المعية، بل هي عندهم كالشمس" اهـ من "الفتاوى"؛ تقريرًا على الحموية.

وقوله رحمه الله: **"وهو سبحانه فوق عرشه، رقيب على خلقه، مهيمن عليهم، مطلع عليهم، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته"**.

الشرح : **"وهو سبحانه فوق عرشه"**: مع أنه مع الخلق، لكنه فوق عرشه.

**"رقيب على خلقه"**: يعني: مراقبًا حافظًا لأقوالهم وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم.

**"مهيمن عليهم"**؛ أي: حاكم مسيطر على عباده، فله الحكم، وإليه يرجع الأمر كله، وأمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن! فيكون.

**"إلى غير ذلك من معاني ربوبيته"**: يعني بذلك ما تضمنه معنى الربوبية من ملك وسلطان وتدبير وغير ذلك، فإن معاني الربوبية كثيرة؛ لأن الرب هو الخالق المالك المدبر، وهذه تحمل معاني كثيرة جدًّا.

وقوله رحمه الله: **"وَكُلُّ هذا الكَلامِ الذي ذَكَرَهُ اللهُ مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ العَرْشِ وَأَنَّهُ مَعَنا: حَقٌّ على حَقِيقَتِهِ، لا يَحْتاجُ إلى تَحْرِيفٍ"**.

الشرح: هذه الجملة تأكيد لما سبق، وإنما كرر معنى ما سبق لأهمية الموضوع؛ فبين رحمه الله أن ما ذكره الله من كونه فوق العرش حق على حقيقته، وكذلك ما ذكره من كونه معنا حق على حقيقته، لا يحتاج إلى تحريف، يعني: لا يحتاج أن نصرف معنى الفوقية إلى فوقية القدر كما ادعاه أهل التحريف والتعطيل، بل هي فوقية ذات وقدر، كما لا يحتاج أن نصرف معنى المعية عن ظاهرها، بل نقول: هي حق على ظاهرها، ومن

فسرها بغير حقيقتها فهو محرف؛ لكن ما ورد من تفسيرها بلازمها ومقتضاها مما هو وارد عن السلف إنما جاء لحاجة دعت إلى ذلك، وهو لا ينافي الحقيقة، لأن لازم الحق حق.

ثم استدرك المؤلف رحمه الله، فقال:"**–ولكن يصان عن الظنون الكاذبة– " مِثْلَ أنْ يُظَنَّ أنَّ ظاهِرَ قَوْلِهِ: {فِي السَّمَاءِ} [الملك: ١٧]: أن السَّماءَ تُقِلُّهُ أوْ تُظِلُّهُ، وَهذا باطِلٌ بِإجْماعِ أهْلِ العِلْمِ وَالإيْمانِ**".

الشرح: الظنون الكاذبة هي الأوهام التي ليس لها أساس من الصحة؛ فيجب أن يصان عنها كلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ومثال ذلك أن يُظَنَّ أن ظاهر قوله: **{فِي السَّمَاءِ}**؛ أن السماء تُقِلُّه؛ أي: تحمله كما يحمل سقف البيت من كان على ظهره. **"أو تُظِلُّهُ"**؛ يعني: تكون فوقه؛ كالسقف على الإنسان، إذا ظن الإنسان هذا فهو ظن كاذب، يجب صون الأدلة الدالة على أن الله في السماء عن ذلك.

**تنبيه**: قد يقول قائل: كان على المؤلف أن يقول: ومثل أن يظن أن ظاهر قوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ} [الحديد: ٤]؛ أنه مختلط بالخلق؛ لأن هذا الظن كاذب أيضًا؟

وجوابه أن نقول: إن المؤلف رحمه الله ذكر ذلك سابقًا في قوله: **"وليس معنى قوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ}؛ أنه مختلط بالخلق"**.

قوله رحمه الله: **"فإن الله قد {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [البقرة: ٢٥٥] "**.

الشرح: " يعني: أحاط بالسماوات السبع والأرضين السبع؛ فكيف يظنُّ ظانٌّ أن السماء تظل الله أو تقلُّه؟!

وقوله رحمه الله: **"وهو الذي {يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا} [فاطر: ٣١] "**.

الشرح: يمسكهما أن تزولا عن أماكنهما، ولولا إمساك الله لهما؛ لاضطربتا ومادتا وزالتا، ولكن الله عزَّ وجلَّ بقدرته وقوته يمسك السماوات والأرض أن تزولا، بل قال تعالى: {وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ} [فاطر: ٤١]؛ ما أمسكهما أحد بعد الله أبدًا.

وقوله رحمه الله: **" {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إلا بِإِذْنِهِ} [الحج: ٦٥] "**.

الشرح: السماء فوق الأرض، ووالله لولا إمساك الله لها لوقعت على الأرض؛ لأنها أجرام عظيمة؛ كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا} [الأنبياء: ٣٢]، وقال: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}

[الذاريات: ٤٧]؛ فلولا أن الله يمسكها؛ لوقعت على الأرض، وإذا وقعت على الأرض أتلفتها، فالذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؛ هل يتصور متصور أن السماء تقلُّه أو تظلُّه؟! لا أحد يتصور ذلك.

وقوله: " **{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ} [الروم: ٢٥]** ".

الشرح: **{وَمِنْ آيَاتِهِ}** يعني: من العلامات الدالة على كماله عز وجل من كل وجه: **{أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ}**: الكوني والشرعي.

## فصل في الجمع بين قرب الله تعالى وعلوه وفوقيته

قوله:"**وقد دخل في ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه مجيب**".

الشرح: "**وقد دخل في ذلك**"؛ يعني: فيما وصف به نفسه، "**الإيمان بأنه قريب من خلقه مجيب**": قريب في نفسه، ومجيب لعباده، ودليل ذلك قوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: ١٨٦]، ففي هذه الآية ستة ضمائر تعود كلها على الله، وعلى هذا فيكون القرب قربه عزَّ وجلَّ، ولكن نقول في **{قَرِيبٌ}** كما قلنا في المعية؛ أنه لا يستلزم أن يكون في المكان الذي فيه الإنسان.

وقوله رحمه الله: "**كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذلِكَ في قَوْلِهِ: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: ١٨٦]، وَقَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ الذي تَدْعونَهُ أَقْرَبُ إلى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ راحِلَتِهِ (متفق عليه)** ".

الشرح: قوله: "كما جمع بين ذلك": المشار إليه القرب والإجابة.

قال المؤلف رحمه الله: "**وَمَا ذُكِرَ في الكِتابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ لا يُنافي ما ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فإنهُ سُبْحانَهُ لَيْسَ كمِثْلِهِ شَيْءٌ في جَميعِ نُعوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ في دُنُوِّهِ، قَريبٌ في عُلُوِّهِ**".

الشرح : قوله: "نعوته"؛ يعني: صفاته. هو عليٌّ مع أنه دانٍ، قريبٌ مع أنه عال، ولا تناقض في ذلك، وقد سبق بيان ذلك في الكلام على المعية.

## فصل في الإيمان بأن القرآن كلام الله حقيقة

قال المؤلف رحمه الله: "**فَصْل: وَمِنَ الإيمانِ بِاللهِ وَكُتُبِهِ: الإيمانُ بِأَنَّ القُرْآنَ كلامُ اللهِ، مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلوقٍ؛ مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعودُ، وأن الله تكلم به حقيقة**".

الشرح: "**الإيمان بأن القرآن كلام الله**": وجه كون الإيمان بالقرآن على هذا الوجه من الإيمان بالله: أن القرآن من كلام الله، وكلام الله صفة من صفاته، وأيضًا فإن الله وصف القرآن بأنه كلامه وأنه منزل؛ فتصديق ذلك من الإيمان بالله.

"**كلام الله، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود**" قد سبق الكلام عن معناها وذكر الأدلة عليها في شرح الآيات عند البحث عن كلام الله.

"**وأن الله تكلم به حقيقة**": بناء على الأصل أن جميع الصفات حقيقية، وإذا كان كلام الله حقيقة؛ فلا يمكن أن يكون مخلوقًا لأنه صفته، وصفة الخالق غير مخلوقة؛ كما أن صفة المخلوق مخلوقة.

وقوله رحمه الله: "**وَأَنَّ هذا القُرْآنَ الذي أُنْزِلَ عَلى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم هُوَ كَلامُ اللهِ حَقيقَةً، لا كَلامُ غَيرِهِ**".

الشرح: كرر المؤلف هذا لأن المقام مقام عظيم، فإن هذه المسألة حصل فيها على علماء المسلمين من المحن ما هو معلوم، وهلك فيها أمم كثيرة، ولكن حمى الله الحق بالإمام أحمد وأشباهه، الذين أبوا أن يقولوا إلا أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

"**لا كلام غيره**": خلافًا لمن قال: إن القرآن من كلام جبريل؛ ألهمه الله إياه، أو من كلام محمد، أو ما أشبه ذلك، وقد تقدم بيان وجه إضافته إليهما عليهما السلام بما فيه الكفاية.

وقوله رحمه الله: "**وَلا يَجوزُ إطْلاقُ القَوْلِ بِأَنَّهُ حِكايَةٌ عَنْ كلامِ اللهِ أو عِبارَةٌ عنه**".

الشرح: "**لا يجوز إطلاق القول**": ولم يقل: لا يجوز القول! يعني: لا يجوز أن نقول: هذا القرآن عبارة عن كلام الله؛ إطلاقًا، ولا يجوز أن نقول: إنه حكاية عن كلام الله؛ على سبيل الإطلاق.

والذين قالوا: إنه حكاية: هم الكلابية، والذين قالوا: إنه عبارة: هم الأشعرية، والكل اتفقوا على أن هذا القرآن الذي في المصحف ليس كلام الله، بل هو إما حكاية أو عبارة، والفرق بينهما: أن الحكاية المماثلة؛ يعني: كان هذا المعنى الذي هو الكلام عندهم حُكي بمرآة؛ كما يحكي الصدى كلام المتكلم، أما العبارة: فيعني بها أن المتكلم عبر عن كلامه النفسي بحروف وأصوات خلقت.

فلا يجوز أن نطلق أنه حكاية أو عبارة، لكن عند التفصيل؛ قد يجوز أن نقول: إن القارئ الآن يعبر عن كلام الله أو يحكي كلام الله؛ لأن لفظه بالقرآن ليس هو كلام الله، وهذا القول على هذا التقييد لا بأس به، لكن إطلاق أن القرآن عبارة أو حكاية عن كلام الله لا يجوز، وكان المؤلف رحمه الله دقيقًا في العبارة حيث قال: "لا يجوز إطلاق القول"، بل لا بد من التقييد والتعيين.

قوله: "**بَلْ إذا قَرَأَهُ النَّاسُ أوْ كَتَبوهُ في المَصاحِفِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بِذلِكَ عَنْ أنْ يَكُونَ كَلامَ اللهِ تَعالى حَقيقَةً؛ فإنَّ الكلامَ إنَّما يُضافُ حَقيقَةً إلى مَنْ قالَهُ مُبْتَدِئًا لا إلى مَنْ قالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا**".

الشرح: يعني: مهما كتبه الناس في المصاحف أو حفظوه في صدورهم أو قرؤوه بألسنتهم؛ فإنه لا يخرج عن كونه كلام الله، ثم علل ذلك، فقال: "**فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا**". وهذا تعليل واضح؛ فالكلام يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا، أما إضافته إلى من قاله مبلغًا مؤديًا؛ فعلى سبيل التوسع لا الحقيقة.

قوله: "**وَهُوَ كَلامُ اللهِ؛ حُروفُهُ وَبيان مَعانِيهِ، وَلَيْسَ كَلامُ اللهِ الحُروفَ دُونَ المَعاني، وَلَا المَعاني دُونَ الحُروفِ**".

الشرح : "**وَهُوَ كَلامُ اللهِ؛ حُروفُهُ وَبيان مَعانِيهِ**" هذا مذهب أهل السنة والجماعة؛ قالوا: إن الله تعالى تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه.

"**وَلَيْسَ كَلامُ اللهِ الحُروفَ دُونَ المَعاني**": وهذا مذهب المعتزلة والجهمية؛ لأنهم يقولون: إن الكلام ليس معنىً يقوم بذات الله، بل هو شيء من مخلوقاته؛ كالسماء والأرض والناقة والبيت وما أشبه ذلك! فليس معنىً قائمًا في نفسه، فكلام الله حروف خلقها الله عزَّ وجلَّ ونسبها إليه تشريفًا وتعظيمًا وسماها كلامًا له، كما خلق الناقة وسماها ناقة الله، وكما خلق البيت وسماه بيت الله، ولهذا كان الكلام عند الجهمية والمعتزلة هو الحروف.

"**وَلَا المَعاني دُونَ الحُروفِ**": وهذا مذهب الكلابية والأشعرية؛ فكلام الله عندهم معنى في نفسه، ثم خلق أصواتًا وحروفًا تدل على هذا المعنى؛ إما عبارة أو حكاية.

واعلم أن ابن القيم رحمه الله ذكر أننا إذا أنكرنا أن الله يتكلم؛ فقد أبطلنا الشرع والقدر:

- أما الشرع، فلأن الرسالات إنما جاءت بالوحي، والوحي كلام مبلغ إلى المرسل إليه؛ فإذا نفينا الكلام انتفى الوحي، وإذا انتفى الوحي انتفى الشرع.

- أما القدر؛ فلأن الخلق يقع بأمره؛ بقوله: كن! فيكون؛ كما قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٨٢].

## فصل في الإيمان برؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة ومواضع الرؤية

قال المؤلف رحمه الله: "**فَصْلٌ: وَقَدْ دَخَلَ أَيْضًا فيما ذَكَرْناهُ مِنَ الإيمان بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِمَلائكَتِهِ وَبِرُسُلِهِ: الإيمانُ بِأَنَّ المُؤمِنِين يَرَوْنَهُ يَوْمَ القِيامَةِ عيانًا بأبصارهم كما يرون الشمس صحوا ليس دونها سحاب وَكَما يَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، لا يُضَامُونَ في رُؤْيَتِهِ**".

الشرح: "**الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة**": وجه كون الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة من الإيمان بالله ظاهر؛ لأن هذا مما أخبر الله به؛ فإذا آمنا به فهو من الإيمان بالله.

- ووجه كونه من الإيمان بالكتب؛ لأن الكتب أخبرت بأن الله يُرى؛ فالتصديق بذلك تصديق بالكتب.

- ووجه كونه من الإيمان بالملائكة؛ لأن نقل الوحي بواسطة الملائكة، فإن جبريل ينزل بالوحي من الله تعالى، فكأن الإيمان بأن الله يُرى من الإيمان بالملائكة.

- وكذلك نقول: من الإيمان بالرسل، لأن الرسل هم الذين بلغوا ذلك للخلق؛ فكأن الإيمان بذلك من الإيمان بالرسل.

"**عيانًا بأبصارهم**": (عيانًا)؛ بمعنى: معاينة، والمعاينة هي الرؤية بالعين.

"**كما يرون الشمس صحوا ليس دونها سحاب**": ودليل ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "ترونه كما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب" (متفق عليه)، والمراد بالرؤية: رؤية العين؛ كما يدل عليه تشبيه الرؤية برؤية الشمس صحوًا ليس دونها سحاب.

"**وَكَما يَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، لا يُضَامُونَ في رُؤْيَتِهِ**": سبق الكلام عن هذا بما فيه الكفاية.

وقوله رحمه الله: "**يَرَوْنَهُ سُبْحانَهُ وَهُمْ في عَرَصاتِ القِيامَةِ**".

الشرح: قوله:"عَرَصات": جمع عَرْصة، وهي المكان الواسع الفسيح، الذي ليس فيه بناء، فالمؤمنون يرون الله في عرصات القيامة قبل أن يدخلوا الجنة؛ ويرونه كذلك بعد دخول الجنة.

أما في عرصات القيامة، فالناس في العرصات ثلاثة أجناس:

١ – مؤمنون خُلَّص ظاهرًا وباطنًا، وهؤلاء يرون الله تعالى في عرصات القيامة وبعد دخول الجنة.

٢ – وكافرون خُلَّص ظاهرًا وباطنًا، وهؤلاء لا يرون ربهم مطلقًا، وقيل: يرونه، لكن رؤية غضب وعقوبة، ولكن ظاهر الأدلة يدل على أنهم لا يرون الله، كما قال الله تعالى: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين: ١٥].

٣ – ومؤمنون ظاهرًا كافرون باطنًا، وهم المنافقون، وهؤلاء يرون الله عزَّ وجلَّ في عرصات القيامة، ثم يحتجب عنهم، ولا يرونه بعد ذلك.

وقوله رحمه الله: **"ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخولِ الجَنَّةِ كَما يَشاءُ اللهُ تَعالى"**.

الشرح: **"كما يشاء"**؛ يعني: يرى المؤمنون الله كما يشاء سبحانه وتعالى في كيفية رؤيتهم إياه، وكما يشاء الله في زمن رؤيتهم إياه، وفي جميع الأحوال؛ يعني: على الوجه الذي يشاؤه الله عزَّ وجلَّ في هذه الرؤية، وحينئذ، فإن هذه الرؤية لا نعلم كيفيتها؛ بمعنى أن الإنسان لا يعلم كيف يرى ربه، ولكن معنى الرؤية معلوم، أنهم يرون الله كما يرون القمر، لكن على أي كيفية؟ هذه لا نعلمها، بل كما يشاء الله، وقد سبق التفصيل في الرؤية بما فيه الكفاية ولله الحمد.

## فصل: في الإيمان باليوم الآخر

ثم شرع المؤلف رحمه الله تعالى في الكلام عن اليوم الآخر وعقيدة أهل السنة والجماعة فيه، فقال: **"ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم مما يكون بعد الموت"**.

الشرح: حكم الإيمان باليوم الآخر فريضة واجب، ومرتبته في الدين أنه أحد أركان الإيمان الستة، وكثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الإيمان به تعالى وبين الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالمبدأ والإيمان بالمعاد؛ لأن من لم يؤمن باليوم الآخر لا يمكن أن يؤمن بالله، إذ إن الذي لا يؤمن باليوم الآخر لن يعمل؛ لأنه لا يعمل إلا لما يرجوه من الكرامة في اليوم الآخر، وما يخافه من العذاب والعقوبة، فإذا كان لا يؤمن به، صار كمن حكى الله عنهم: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ} [الجاثية: ٢٤].

وسمي اليوم الآخر باليوم الآخر؛ لأنه يوم لا يوم بعده؛ فهو آخر المراحل.

**"الإيمانُ بكلِّ ما أخْبَرَ بهِ النبيُّ صلى الله عليه وسلم مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ المَوْتِ"**: وذلك لأن الإنسان إذا مات؛ دخل في اليوم الآخر، ولهذا يقال: من مات، قامت قيامته.

قوله: **"فيؤمنون بفتنة القبر وبعذاب القبر ونعيمه"**.

الشرح: الفتنة هنا الاختبار، والمراد بفتنة القبر: سؤال الميت إذا دفن عن ربه ودينه ونبيه، والضمير في "يؤمنون": يعود على أهل السنة والجماعة، فهم يؤمنون بفتنة القبر لدلالة الكتاب والسنة عليها.

- أما الكتاب؛ ففي قوله تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم: ٢٧]؛ فإن هذا في فتنة القبر؛ كما ثبت في "الصحيحين" وغيرهما من حديث البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

- وأما السنة؛ فقد تظافرت بأن الإنسان يفتن في قبره، وهي فتنة قال فيها النبي - صلى الله عليه وسلم -: "إنه قد أوحي إليَّ أنكم تفتنون في قبوركم مثل (أو: قريبًا من) فتنة الدجال" (متفق عليه)، وما أعظمها من فتنة! لأن الإنسان يتلقى فيها السؤال الذي لا يمكن الجواب عليه إلا على أساس متين من العقيدة والعمل الصالح.

قوله: "**فأما الفتنة فإن الناس يفتنون في قبورهم، فيقال للرجل: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟**".

الشرح: هذا شروع في بيان كيفية فتنة الميت في قبره، وكلمة "**الناس**" عامة وظاهرها أن كل أحد . حتى الأنبياء والصديقون والشهداء والمرابطون وغير المكلفين من الصغار والمجانين . يفتنون في قبورهم، وفي هذا تفصيل؛ فنقول:

أولًا: أما الأنبياء؛ فلا تشملهم الفتنة ولا يسألون، وذلك لوجهين:

الأول: أن الأنبياء أفضل من الشهداء، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الشهيد يوقى فتنة القبر، وقال: "كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة"؛ أخرجه النسائي.

الثاني: أن الأنبياء يُسأل عنهم؛ فيقال للميت: من نبيك؟ فهم مسؤول عنهم، وليسوا مسؤولين، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنه أوحي إليَّ أنكم تفتنون في قبوركم" (متفق عليه)، والخطاب للأمة المرسل إليهم؛ فلا يكون الرسول داخلًا فيهم.

ثانيًا: وأما الصديقون فلا يسألون؛ لأن مرتبة الصديقين أعلى من مرتبة الشهداء؛ فإذا كان الشهداء لا يسألون فالصديقون من باب أولى، ولأن الصديق على وصفه مصدَّق وصادق؛ فهو قد علم صدقه فلا حاجة إلى اختباره؛ لأن الاختبار لمن يُشَك فيه هل هو صادق أو كاذب، أما إذا كان صادقًا فلا حاجة تدعو لسؤاله، وذهب بعض العلماء إلى أنهم يسألون؛ لعموم الأدلة، والله أعلم.

ثالثًا: وأما الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله فإنهم لا يسألون لظهور صدق إيمانهم بجهادهم: قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ...} الآية [التوبة: ١١١]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم:"كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة" (رواه النسائي).

وإذا كان المرابط إذا مات أمن الفتان لظهور صدقه؛ فهذا الذي قتل في المعركة مثله أو أولى منه؛ لأنه بذل وعرض رقبته لعدو الله؛ إعلاءً لكلمة الله وانتصارًا لدينه، وهذا من أكبر الأدلة على صدق إيمانه.
رابعًا: وأما المرابطون فإنهم لا يفتنون لما جاء في "صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

"رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات؛ جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتان".

خامسًا: الصغار والمجانين؛ هل يفتنون أو لا يفتنون؟ قال بعض العلماء: إنهم يفتنون لدخولهم في العموم، ولأنهم إذا سقط التكليف عنهم في حال الحياة، فإن حال الممات تخالف حال الحياة.

وقال بعض العلماء: إن المجانين والصغار لا يسألون لأنهم غير مكلفين، وإذا كانوا غير مكلفين فإنه لا حساب عليهم، إذ لا حساب إلا على من كان مكلفًا يعاقب على المعاصي، وهؤلاء لا يعاقبون، وليس لهم إلا الثواب إن عملوا عملًا صالحًا يثابون عليه.

**تنبيه**: الناس ثلاثة أقسام: مؤمنون خلص ومنافقون، وهذان القسمان يفتنون، والثالث كفار خلص، ففي فتنتهم خلاف، وقد رجح ابن القيم في كتاب "الروح" أنهم يفتنون.

وهل تسأل الأمم السابقة؟

ذهب بعض العلماء . وهو الصحيح . إلى أنهم يسألون؛ لأنه إذا كانتا هذه الأمة – وهي أشرف الأمم – تُسأل، فمن دونها من باب أولى.

**"في قبورهم"**: جمع قبر، وهي مدفن الأموات والمراد ما هو أعم، فيشمل البرزخ وهو ما بين موت الإنسان وقيام الساعة، سواء دفن الميت أو أكلته السباع في البر أو الحيتان في البحر أو أتلفته الرياح. والظاهر أن الفتنة لا تكون إلا إذا انتهت الأحوال الدنيوية، وسلم إلى عالم الآخرة، فإذا تأخر دفنه يومًا أو أكثر، لم يكن السؤال حتى يدفن.

**"فيقال للرجل"**: القائل ملكان يأتيان إلى الإنسان في قبره ويجلسانه ويسألانه، حتى إنه ليسمع قرع نعال المنصرفين عنه وهما يسألانه، ولهذا كان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم؛ أنه إذا دفن الميت وقف عليه، وقال:"استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت؛ فإنه الآن يسأل" (رواه أبو داود).

وورد في بعض الآثار أن اسمهما: منكر، ونكير (الصحيحة ١٣٩١). وأنكر بعض العلماء هذين الاسمين؛ قال: كيف يسمى الملائكة وهم الذين وصفهم الله تعالى بأوصاف الثناء بهذين الاسمين المنكرين، وضعف الحديث الوارد في ذلك!

وذهب آخرون إلى أن الحديث حجة وأن هذه التسمية ليس لأنهما منكران من حيث ذواتهما، ولكنهما منكران من حيث إن الميت لا يعرفهما، وليس له بهما علم سابق، وقد قال إبراهيم لأضيافه الملائكة: {قَوْمٌ مُنْكَرُونَ} [الذاريات: ٢٥] لأنه لا يعرفهم فهذان منكر ونكير؛ لأنهما غير معروفين للميت. ثم هذان الملكان هل هما ملكان جديدان موكلان بأصحاب القبور، أو هما الملكان الكاتبان اللذان عن اليمين وعن الشمال قعيد؟

- منهم من قال: إنهما الملكان اللذان يصحبان المرء؛ فإن لكل إنسان ملكين في الدنيا يكتبان أعماله، وفي القبر يسألانه هذه الأسئلة الثلاثة.

- ومنهم من قال: بل هما ملكان آخران، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلا هُوَ} [المدثر: ٣١] والملائكة خلق كثير قال النبي صلى الله عليه وسلم:"أطت السماء، وحق لها أن تئط (والأطيط: صرير الرحل)؛ ما من موضع شبر (أو قال: أربع أصابع)؛ إلا وفيه ملك قائم لله أو راكع أو ساجد" (رواه احمد).

فالمهم أنه لا غرابة أن ينشئ الله عَزَّ وَجَلَّ لكل مدفون ملكين يرسلهما إليه، والله على كل شيء قدير.

"**من ربك؟** ": يعني: من ربك الذي خلقك وتعبده وتخصه بالعبادة؟

"**ما دينك؟** ": يعني: ما عملك الذي تدين به لله عَزَّ وَجَلَّ، وتتقرب به إليه؟

"**من نبيك؟**": يعني: من النبي الذي تؤمن به وتتبعه؟

وقوله رحمه الله: "**ف {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم: ٢٧] ؛ فيقول المؤمن: ربي الله، والإسلام ديني، ومحمد صلى الله عليه وسلم نبيي**".

الشرح: **{الْقَوْلِ الثَّابِتِ}** هو التوحيد؛ والمعنى: يجعلهم ثابتين لا يترددون ولا يتلعثمون في الجواب.

**{فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}**: يحتمل أنها متعلقة بـ {يُثَبِّتُ}؛ يعني: أن الله يثبت المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة، ويحتمل أنها متعلقة بالثابت فتكون وصفًا للقول؛ يعني: أن هذا القول ثابت في الدنيا وفي الآخرة، ولكن المعنى الأول أحسن وأقرب؛ لأن الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا} [الأنفال: ٤٥] وقال الله عز وجل: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأنفال: ١٢]؛ فهم يثبتون في الحياة الدنيا وفي الآخرة بالقول الثابت.

"**فيقول المؤمن: ربي الله، والإسلام ديني، ومحمد صلى الله عليه وسلم نبيي**" يعني: عندما يقال له: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ وحينئذ يكون الجواب صوابًا، فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة.

وقوله رحمه الله: "**وأما المرتاب، فيقول: هاه هاه! لا أدري؛ سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، فيضرب بمرزبة من حديد، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعها الانسان لصعق**"

الشرح: "**المرتاب**": الشاك والمنافق وشبههما ممن لم يلج الإيمان قلبه، وإنما كان يقول كما يقول الناس، وتأمل قوله: "هاه! هاه! "؟ كأن شيئًا غاب عنه يريد أن يتذكره، وهذا أشد في التحسر أن يتخيل أنه يعرف هذا الجواب ولكن يحال بينه وبينه.

"**فيقول: هاه! هاه! ثم يقول: سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته**". ولا يقول: ربي الله! ولا: ديني الإسلام! ولا: نبيي محمَّد! لأنه في الدنيا مرتاب شاك! وإيمانه قول فقط!!

"**فيضرب**" يعني: الذي لم يجب؛ سواء كان الكافر أو المنافق، والضارب له الملكان اللذان يسألانه.
"**بمرزبة**": هي مطرقة من حديد، وقد ورد في بعض الروايات أنه لو اجتمع عليها أهل منى؛ ما أقلوها، فإذا ضرب يصيح صيحة مسموعة يسمعها كل شيء يكون حوله مما يسمع صوته، وليس كل شيء في أقطار الدنيا يسمعه، وأحيانًا يتأثر به ما يسمعه؛ كما مر النبي صلى الله عليه وسلم بأقبر للمشركين على بغلته فحادت به حتى كادت تلقيه؛ لأنها سمعت أصواتهم يعذَّبون (رواه مسلم).

"**إلا الإنسان**" يعني: أنه لا يسمع هذا الصياح، وذلك لحكم عظيمة؛ منها:

أولًا: ما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "لولا أن لا تدافنوا؛ لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر" (رواه مسلم).

ثانيًا: أن في إخفاء ذلك سترًا للميت.

ثالثًا: أن فيه عدم إزعاج لأهله؛ لأن أهله إذا سمعوا ميتهم يعذب ويصيح؛ لم يستقر لهم قرار.

رابعًا: عدم تخجيل أهله؛ لأن الناس يقولون: هذا ولدكم! هذا أبوكم! هذا أخوكم! وما أشبه ذلك.

خامسًا: أننا قد نهلك؛ لأنها صيحة ليست هينة، بل صيحة توجب أن تسقط القلوب من معاليقها، فيموت الإنسان أو يغشى عليه.

سادسًا: لو سمع الناس صراخ هؤلاء المعذبين؛ لكان الإيمان بعذاب القبر من باب الإيمان بالشهادة، لا من باب الإيمان بالغيب، وحينئذ تفوت مصلحة الامتحان؛ لأن الناس سوف يؤمنون بما شاهدوه قطعًا؛ لكن إذا كان غائبًا عنهم، ولم يعلموا به إلا عن طريق الخبر؛ صار من باب الإيمان بالغيب.

**تنبيه**: قول المؤلف رحمه الله: **"فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان؛ لصعق"**؛ إنما ورد قوله: "يسمعها كل شيء إلا الإنسان ... " إلخ في قول الجنازة إذا احتملها الرجال على أعناقهم؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فإن كانت صالحة؛ قالت: قدموني! وإن كانت غير صالحة؛ قالت: يا ويلها! أين يذهبون بها؟! يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعه؟ لصعق" (رواه البخاري)، أما الصيحة التي في القبر فقال النبي صلى الله عليه وسلم :"فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين"؛ أخرجه البخاري بهذا اللفظ، والمراد بالثقلين: الإنس والجن.

وقوله رحمه الله: **"ثم بعد هذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب"**.

الشرح: هذا النعيم أو العذاب؛ هل هو على البدن أو على الروح أو يكون على البدن والروح جميعًا؟ نقول: المعروف عند أهل السنة والجماعة أنه في الأصل على الروح والبدن تابع لها؛ كما أن العذاب في الدنيا على البدن والروح تابعة له.

**"إما نعيم وإما عذاب"**: فيه إثبات النعيم والعذاب في القبر، وقد دل على ذلك كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإجماع المسلمين:

- أما من كتاب الله؛ فالثلاثة أصناف التي في آخر سورة الواقعة ظاهرة في ثبوت عذاب القبر ونعيمه، قال الله تعالى: {فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ} [الواقعة: ٨٣ - ٩٤].

ومن أدلة القرآن قوله تعالى في آل فرعون: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا}، وهذا قبل قيام الساعة؛ بدليل قوله: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر: ٤٦].

ومن أدلة القرآن أيضًا قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ} [الأنعام: ٩٣]: {الْيَوْمَ}: (ال): للعهد الحضوري؛ يعني: اليوم الحاضر، والمراد به: يوم حضور الملائكة لقبض أرواحهم، وهذا يقتضي أنهم يعذبون من حين أن تخرج أرواحهم، وهذا هو عذاب القبر.

ومن أدلة القرآن أيضًا قوله تعالى: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ} [النحل: ٣٢] وذلك في حال الوفاة، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: "يقال لنفس المؤمن: اخرجي أيتها النفس الطيبة إلى مغفرة من الله ورضوان"؛ فتفرح بهذه البشرى، وتخرج منقادة سهلة، وإن كان البدن قد يتألم، لكن الروح منقادة مستبشرة.

- وأما أدلة السنة في إثبات عذاب القبر ونعيمه فمتواترة، ومنها ما ثبت في "الصحيحين" من حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبرين، فقال: "إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير ... الحديث" (متفق عليه).

- وأما الإجماع؛ فكل المسلمين يقولون في صلاتهم: أعوذ بالله من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ولو أن عذاب القبر غير ثابت ما صح أن يتعوذوا بالله منه، إذ لا تعوذ من أمر ليس موجودًا، وهذا يدل على أنهم يؤمنون به.

فإن قال قائل: هل العذاب أو النعيم في القبر دائم أو ينقطع؟

فالجواب أن يقال:

- أما عذاب الكفار فيه فإنه دائم، ولا يمكن أن يزول العذاب عنهم؛ لأنهم مستحقون لذلك، ولأنه لو زال العذاب عنهم لكان هذا راحة لهم، وهم ليسوا أهلًا لذلك؛ فهم باستمرار في عذاب إلى يوم القيامة ولو طالت المدة؛ فقوم نوح الذين أغرقوا ما زالوا يعذبون في هذه النار التي أدخلوا فيها ويستمر عذابهم إلى يوم القيامة، وكذلك آل فرعون يعرضون على النار غدوًّا وعشيًّا.

وذكر بعض العلماء أنه يخفف عن الكفار ما بين النفختين، واستدلوا بقوله تعالى: {قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا} [يس: ٥٢] ، ولكن هذا ليس بلازم؛ لأن قبورهم مرقد لهم وإن عذبوا فيها.

- وأما عصاة المؤمنين الذين يقضي الله تعالى عليهم بالعذاب فهؤلاء قد يدوم عذابهم وقد لا يدوم، وقد يطول وقد لا يطول؛ حسب الذنوب، وحسب عفو الله عَزَّ وَجَلَّ.

والعذاب في القبر أهون من عذاب يوم القيامة لأن العذاب في القبر ليس فيه خزي وعار، لكن في الآخرة فيه الخزي والعار؛ لأن الأشهاد موجودون: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر: ٥١].

فإن قال قائل: لو أن هذا الرجل تمزق أوصالًا، وأكلته السباع، وذرته الرياح فكيف يكون عذابه، وكيف يكون سؤاله؟! أو قال: كيف يوسع مدَّ البصر للميت الذي يدفن في قبر ضيق؟! أو قال: إذا حفرنا قبر الميت الكافر بعد يوم أو يومين فإننا نرى أن أضلاعه لم تختلف وتتداخل من الضيق؟!

فالجواب: أن الله عَزَّ وَجَلَّ على كل شيء قدير، وهذا أمر غيبي؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ قادر على أن يفعل هذه الأشياء في عالم الغيب، وانظر إلى الملائكة تنزل لقبض روح الإنسان في المكان نفسه؛ كما قال تعالى: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ} [الواقعة: ٨٥] ومع ذلك لا نبصرهم، وملك الموت يكلم الروح ونحن لا نسمع، فعالم الغيب لا يمكن أبدًا أن يقاس بعالم الشهادة، وهذه من حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ.

بل هذه نفسك التي في جوفك لا تدري كيف تتعلق ببدنك؟! وكيف هي موزعة على البدن؟! وكيف تخرج منك عند النوم؟! ولا تحس برجوعها عند استيقاظك؟! ولا تراها من أين تدخل لجسمك؟! فعالم الغيب ليس فيه إلا التسليم، ولا يمكن فيه القياس إطلاقًا.

## فصل في القيامة الكبرى

وقول المؤلف رحمه الله: "**إلى أنْ تَقومَ القِيامَةُ الكُبْرى، فَتُعادُ الأرْواحُ إلى الأجْسادِ، وَتَقومُ القِيامَةُ التي أخْبَرَ اللهُ بِها في كِتابِهِ وَعَلى لِسانِ رَسولِهِ وَأجْمَعَ عَلَيْها المُسْلِمونَ**".

الشرح: القيامة الكبرى هي التي يقوم فيها الناس من قبورهم لرب العالمين.

وأفادنا المؤلف رحمه الله بقوله: "**القيامة الكبرى**": أن هناك قيامة صغرى، وهي قيامة كل إنسان بعينه؛ فإن كل إنسان له قيامة؛ فمن مات قامت قيامته.

"**فَتُعادُ الأرْواحُ**": هذا هو **الأمر الأول مما يكون في القيامة** وذلك بعد النفخة الثانية في الصور، وذلك بعد أن فارقتها بالموت، وهذه غير الإعادة التي تكون في البرزخ حين سؤال الميت عن ربه ودينه ونبيه، وذلك أن الله يأمر إسرافيل فينفخ في الصور، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه مرة أخرى فتتطاير الأرواح من الصور إلى أجسادها، وتحل فيها.

"**إلى الأجساد**": إشارة إلى أن الأرواح لا تخرج من الصور إلا بعد أن تتكامل الأجساد مخلوقة؛ فإذا كملت خلقتها نفخ في الصور، فأعيدت الأرواح إلى أجسادها.

وفي قوله: "**تعاد الأرواح إلى الأجساد**": دليل على أن البعث إعادة وليس تجديدًا، بل هو إعادة لما زال وتحول فإن الجسد يتحول إلى تراب، والعظام تكون رميمًا؛ فيجمع الله تعالى هذا المتفرق، حتى يتكون الجسد فتعاد الأرواح إلى أجسادها.

وأما من زعم بأن الأجساد تخلق من جديد؛ فإن هذا زعم باطل يرده الكتاب والسنة والعقل:

- أما الكتاب؛ فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: ٢٧]؛ أي: يعيد ذلك الخلق الذي ابتدأه، وفي الحديث القدسي: "يقول الله تعالى: ليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته" (رواه البخاري)؛ فالكل على الله هين، وقال تعالى: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ} [الأنبياء: ١٠٤]، وقال تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ} [المؤمنون: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: {مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [يس: ٧٨، ٧٩].

- وأما السنة؛ فهي كثيرة جدًّا في هذا؛ حيث بين النبي صلى الله عليه وسلم :"أن الناس يحشرون حفاة عراة غُرْلًا" (متفق عليه)؛ فالناس هم الذين يحشرون، وليس سواهم.

فإذا قلت: ربما يؤكل الإنسان من قبل السباع، ويتحول جسمه الذي أكله السبع إلى تغذية لهذا الآكل تختلط بدمه ولحمه وعظمه وتخرج في روثه وبوله؛ فما الجواب على ذلك؟

فالجواب: أن الأمر هين على الله؛ يقول له: كن! فيكون، ويتخلص هذا الجسم الذي سيبعث من كل هذه الأشياء التي اختلط بها، وقدرة الله عَزَّ وَجَلَّ فوق ما نتصوره؛ فالله على كل شيء قدير.

**"وَتَقومُ القِيامَةُ التي أخْبَرَ اللهُ بِها في كِتابِهِ وَعَلى لِسانِ رَسولِهِ وَأجْمَعَ عَلَيْها المُسْلِمونَ"**: هذه ثلاثة أنواع من الأدلة: كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإجماع المسلمين:

- فأما كتاب الله تعالى؛ فقد أكد الله تعالى في كتابه هذه القيامة، وذكرها الله عَزَّ وَجَلَّ بأوصاف عظيمة، توجب الخوف والاستعداد لها: فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} [الحج: ١ - ٢]، وقال تعالى: {الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ} [الحاقة: ١ - ٣]، وقال تعالى: {الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ} [القارعة: ١ - ٥]، والأوصاف لها في القرآن كثيرة؛ وكلها مروعة مخوفة لأنها عظيمة، وإذا لم نؤمن بها فلن نعمل لها؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يعمل لهذا اليوم حتى يؤمن به وحتى يذكر له أوصافه التي توجب العمل لهذا اليوم.

- وأما السنة؛ فالأحاديث في ذكر القيامة كثيرة، بيّن الرسول عليه الصلاة والسلام بها ما يكون فيها؛ كما سيأتي إن شاء الله في ذكر الحوض والصراط والكتاب وغير ذلك مما بينه الرسول صلى الله عليه وسلم.

- وأما الإجماع: فقد أجمع المسلمون إجماعًا قطعيًّا على الإيمان بيوم القيامة، ولهذا كان من أنكره؛ فهو كافر؛ إلا إذا كان غريبًا عن الإسلام وجاهلًا فإنه يعرَّف؛ فإن أصر على الإنكار بعد ذلك؛ فهو كافر.
- وهناك نوع رابع من الأدلة: وهو الكتب السماوية حيث اتفقت على إثبات اليوم الآخر، ولهذا كان اليهود والنصارى يؤمنون بذلك، وحتى الآن يؤمنون به، ولهذا تسمعونهم يقولون: فلان المرحوم، أو: رحمه الله، أو: ما أشبه ذلك؛ مما يدل على أنهم يؤمنون باليوم الآخر إلى يومنا هذا.

- وثَمَّ نوع خامس وهو: العقل، ووجه ذلك أنه لو لم يكن هذا اليوم لكان إيجاد الخلائق عبثًا، والله عَزَّ وَجَلَّ منزه عن العبث، فما الحكمة من قوم يُخلقون ويُؤمرون ويُنهون ويُلزَمون بما يُلزَمون به ويُندَبون إلى ما يُندَبون إليه، ثم يموتون ولا حساب ولا عقاب؟! ولهذا قال الله تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ} [القصص: ٨٥].

**الأمر الثاني مما يكون في القيامة**: ما أشار إليه بقوله:"**فَيَقومُ النَّاسُ مِنْ قُبورِهِمْ لِرَبِّ العالَمينَ حُفاةً عُراةً غُرْلًا**".

الشرح: "**من قبورهم**": هذا بناء على الأغلب، وإلا فقد يكون الإنسان غير مدفون.

"**لرب العالمين**" لأن الله عَزَّ وَجَلَّ يناديهم كما قال الله تعالى: {وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ} [ق: ٤١، ٤٢] فيقومون لهذا النداء العظيم من قبورهم لربهم عَزَّ وَجَلَّ، قال الله تبارك وتعالى: {أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين: ٤ - ٦].

"**حُفاة عُراةً غُرْلًا**": "حفاة": ليس عليهم نعال ولا خفاف، "عراة": ليس عليهم لباس للجسد، "غرلًا": لم ينقص من خلقهم شيء، والغُرْل: جمع أغرل وهو الذي لم يختن؛ أي أن القلفة التي قطعت منه في الدنيا تعود يوم القيامة؛ لأن الله يقول: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ} [الأنبياء: ١٠٤]؛ فيعاد كاملًا لم ينقص منه شيء؛ يعودون على هذا الوصف مختلطين رجالًا ونساء، ولما حدث النبي عليه الصلاة والسلام بذلك؛ قالت عائشة: يا رسول الله! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! فقال: "الأمر أشد من أن يُهِمَّهم ذلك" وفي رواية:"من أن ينظر بعضهم إلى بعض" (رواه البخاري ومسلم). وأمرهم كما قال الله تعالى:{يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس: ٣٤ - ٣٧]. فلا رجل ينظر إلى امرأة، ولا امرأة تنظر إلى رجل، حتى إن ابنه أو أباه يفر منه خوفًا من أن يطالبه بحقوق له، وإذا كان هذا هو الواقع؛ فإنه لا يمكن أن تنظر المرأة إلى الرجل، ولا الرجل إلى المرأة؛ لأن الأمر أشد وأعظم. ولكنهم يكسون بعد هذا، وأول من يكسى إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم (متفق عليه).

**الأمر الثالث مما يكون يوم القيامة**: ما أشار إليه بقوله: **"وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ"**.

الشرح: **"تدنو"**: أي: تقرب منهم الشمس، وهذا القرب جاء أنه مقدار ميل، وهذا الميل سواء كان المسافة أو ميل المكحلة فكلها قريبة، وإذا كانت هذه حرارتها في الدنيا، وبيننا وبينها من البعد شيء عظيم؛ فكيف إذا كانت عن الرؤوس بمقدار ميل؟!

قد يقول قائل: المعروف الآن أن الشمس لو تدنو بمقدار شعرة عن مستوى خطها؛ لأحرقت الأرض؛ فكيف يمكن أن تكون في ذلك اليوم بهذا المقدار من البعد، ثم لا تحرق الخلق؟

فالجواب على ذلك: أن الناس يحشرون يوم القيامة ليسوا على القوة التي هم عليها الآن، بل هم أقوى وأعظم وأشد تحملًا، فلو أن الناس الآن وقفوا خمسين يومًا في شمس لا ظل ولا أكل ولا شرب فإنهم لا يمكنهم ذلك، بل يموتون! لكن يوم القيامة يبقون خمسين ألف سنة؛ لا أكل ولا شرب ولا ظل؛ إلا من أظله الله عَزَّ وَجَلَّ، وهم في ذلك يشاهدون أهوالًا عظيمة ويتحملون.

فإن قيل: هل أحد يسلم من الشمس؟

فالجواب: نعم! هناك أناس يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم: "إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا؛ ففاضت عيناه" (متفق عليه). وهناك أيضًا أصناف أخرى غير هؤلاء يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وقوله: "لا ظل إلا ظله"؟ يعني: إلا الظل الذي يخلقه، وليس كما توهم بعض الناس أنه ظل ذات الرب عَزَّ وَجَلَّ؛ فإن هذا باطل؛ لأنه يستلزم أن تكون الشمس حينئذ فوق الله عَزَّ وَجَلَّ.

**الأمر الرابع مما يكون يوم القيامة**: ما ذكره المؤلف رحمه الله بقوله: **"وَيُلْجِمْهُمُ العَرَقُ"**.

الشرح: **"يلجمهم"** أي: يصل منهم إلى موضع اللجام من الفرس، وهو الفم. وهذا غاية ما يصل إليه العرق، وإلا فبعضهم يصل العرق إلى كعبيه، وبعضهم إلى ركبتيه، وبعضهم إلى حقويه، ومنهم من يلجمه؛ فهم

يختلفون في هذا العرق، ويعرقون من شدة الحر؛ لأن المقام مقام زحام وشدة ودنو شمس؛ فيعرق الإنسان مما يحصل في ذلك اليوم؛ لكنهم على حسب أعمالهم.

فإن قلت: كيف يكون ذلك وهم في مكان واحد؟

فالجواب: أننا أصلنا قاعدة يجب الرجوع إليها، وهي: أن الأمور الغيبية يجب علينا أن نؤمن بها ونصدق دون أن نقول: كيف؟! ولِمَ؟! لأنها شيء وراء عقولنا، ولا يمكن أن ندركها أو نحيط بها، أرأيت لو أن رجلين دُفِنا في قبر واحد: أحدهما مؤمن، والثاني: كافر؛ فإنه ينال المؤمن من النعيم ما يستحق، وينال الكافر من العذاب ما يستحق، وهما في قبر واحد، وهكذا نقول في العرق يوم القيامة.

فإن قلت: هل تقول: إن الله سبحانه وتعالى يجمع من يلجمهم العرق في مكان، ومن يصل إلى كعبيه في مكان، وإلى ركبتيه في مكان، وإلى حقويه في مكان؟

فالجواب: لا نجزم بهذا والله أعلم، بل نقول: من الجائز أن يكون الذي يصل العرق إلى كعبه إلى جانب الذي يلجمه العرق والله على كل شيء قدير، وهذا نظير النور الذي يكون للمؤمنين يسعى بين أيديهم وبأيمانهم والكفار في ظلمة؛ فيوم القيامة يجب علينا أن نؤمن به وبما يكون فيه، أما كيف؟! ولِمَ؟! فهذا ليس إلينا.

**الأمر الخامس مما يكون يوم القيامة**: ما ذكره بقوله: "**فتُنْصَبُ المَوازينُ فَتُوزَنُ بِها أعْمالُ العِبادِ، {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} [المؤمنون: ١٠٣]**".

الشرح: "**تنصب**": الذي ينصب الموازين هو الله عَزَّ وَجَلَّ، لتوزن بها أعمال العباد.

"**الموازين**": بالجمع، وقد وردت النصوص بالجمع والإفراد:

- فمثال الجمع: قول الله تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [الأنبياء: ٤٧] وقال تعالى: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ} [الأعراف: ٨، ٩].

- وأما الإفراد؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم" (متفق عليه). فقال: "في الميزان"؛ فأفرد؛ فكيف نجمع بين الآيات القرآنية وبين هذا الحديث؟!

فالجواب أن نقول: إنها جمعت باعتبار الموزون حيث إنه متعدد، وأفردت باعتبار أن الميزان واحد، أو أن لكل أمة ميزانا، أو أن المراد بالميزان في قوله عليه الصلاة والسلام: "ثقيلتان في الميزان"؛ أي: في الوزن.

ولكن الذي يظهر - والله أعلم - أن الميزان واحد، وأنه جمع باعتبار الموزون؛ بدليل قوله: {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ} [الأعراف: ٨]، لكن يتوقف الإنسان: هل يكون ميزانًا واحدًا لجميع الأمم أو أن لكل أمة ميزانا؛ لأن الأمم كما دلت عليه النصوص تختلف باعتبار أجرها؟!

"**تنصب الموازين**": ظاهره أنها موازين حسية، وأن الوزن يكون على حسب المعهود بالراجح والمرجوح، وذلك لأن الأصل في الكلمات الواردة في الكتاب والسنة حملها على المعهود المعروف؛ إلا إذا قام دليل على أنها خلاف ذلك، والمعهود المعروف عند المخاطبين منذ نزول القرآن الكريم إلى اليوم أن الميزان حسي، وأن هناك راجحًا ومرجوحًا، وخالف في ذلك جماعة:

- فالمعتزلة قالوا: إنه ليس هناك ميزان حسي، ولا حاجة له؛ لأن الله تعالى قد علم أعمال العباد وأحصاها، ولكن المراد بالميزان: الميزان المعنوي الذي هو العدل.

ولا شك أن قول المعتزلة باطل؛ لأنه مخالف لظاهر اللفظ وإجماع السلف، ولأننا إذا قلنا: إن المراد بالميزان: العدل؛ فلا حاجة إلى أن نعبر بالميزان بل نعبر بالعدل؛ لأنه أحب إلى النفس من كلمة (ميزان)، ولهذا قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} [النحل: ٩٠].

- وقال بعض العلماء: إن الرجحان للعالي؛ لأنه يحصل فيه العلو، لكن الصواب أن نجري الوزن على ظاهره، ونقول: إن الراجح هو الذي ينزل، ويدل لذلك حديث صاحب البطاقة، فإن فيه أن السجلات تطيش وتثقل البطاقة، وهذا واضح، بأن الرجحان يكون بالنزول.

"**فتوزن بها أعمال العباد**": هذا صريح بأن الذي يوزن هو العمل، وهنا مبحثان:

المبحث الأول: كيف يوزن العمل؛ والعمل وصف قائم بالعامل وليس جسمًا فيوزن؟!

والجواب على ذلك: أن يقال: إن الله سبحانه وتعالى يجعل هذه الأعمال أجسامًا، وليس هذا بغريب على قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ، وله نظير وهو الموت؛ فإنه يجعل على صورة كبش، ويذبح بين الجنة والنار (متفق عليه)، مع أن الموت معنى وليس بجسم، وليس الذي يذبح ملك الموت، ولكنه نفس الموت، حيث يجعله الله تعالى جسمًا يشاهد ويرى، فكذلك الأعمال يجعلها الله عَزَّ وَجَلَّ أجسامًا توزن بهذا الميزان الحسي.

المبحث الثاني: صريح كلام المؤلف أن الذي يوزن هو العمل سواء كان خيرًا أم شرًّا: وهذا هو ظاهر القرآن؛ كما قال الله تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: ٦ – ٨]؛ فهذا واضح أن الذي يوزن العمل، سواء كان خيرًا أم شرًّا، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: "كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان" (متفق عليه)، وهذا ظاهر أيضًا، بل صريح في أن الذي يوزن هو العمل، والنصوص في هذا كثيرة، ولكن هناك نصوص قد يخالف ظاهرها هذا الحديث:

– فمنها حديث صاحب البطاقة، رجل يؤتى به على رؤوس الخلائق، وتعرض عليه أعماله في سجلات تبلغ تسعة وتسعين سجلًّا؛ كل سجل منها يبلغ مد البصر، فيقر بها، فيقال له: ألك عذر أو حسنة؟ فيقول: لا، يا رب! فيقول الله: بلى؛ إن لك عندنا حسنة. فيؤتى ببطاقة صغيرة، فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله. فيقول: يا رب! ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فيقال: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة ...". الحديث (رواه احمد). وظاهر هذا أن الذي يوزن صحائف الأعمال.

– وهناك نصوص أخرى تدل على أن الذي يوزن العامل؛ مثل: قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [الكهف: ١٠٥]؛ مع أنه قد ينازع في الاستدلال بهذه الآية؛ فيقال: إن معنى قوله: {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا}؛ يعني: قدرًا.

ومثل ما ثبت من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أنه كان يجتني سواكًا من الأراك، وكان رضي الله عنه دقيق الساقين، فجعلت الريح تحركه، فضحك الصحابة رضي الله عنهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "مم تضحكون؟ ". قالوا: من دقة ساقيه. قال: "والذي نفسي بيده؛ لهما في الميزان أثقل من أحد" (رواه احمد).

فصار ها هنا ثلاثة أشياء: العمل، والعامل، والصحائف.

- فقال بعض العلماء: إن الجمع بينها أن يقال: إن من الناس من يوزن عمله، ومن الناس من يوزن صحائف عمله، ومن الناس من يوزن هو بنفسه.

- وقال بعض العلماء: الجمع بينها أن يقال: إن المراد بوزن العمل أن العمل يوزن وهو في الصحائف، ويبقى وزن صاحب العمل، فيكون لبعض الناس.

- ولكن عند التأمل نجد أن أكثر النصوص تدل على أن الذي يوزن هو العمل، ويخص بعض الناس فتوزن صحائف أعماله، أو يوزن هو نفسه.

وأما ما ورد في حديث ابن مسعود وحديث صاحب البطاقة؛ فقد يكون هذا أمرًا يخص الله به من يشاء من عباده.

**{فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}**: المفلح: هو الذي فاز بمطلوبه ونجا من مرهوبه؛ فحصل له السلامة مما يكره، وحصل له ما يحب، والمراد بثقل الموازين رجحان الحسنات على السيئات.

**{وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ}**: فخسروا أنفسهم وأهليهم وأموالهم: {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [الزمر: ١٥]؛ وذلك لأنهم لم يستفيدوا من وجودهم في الدنيا شيئًا، بل ما استفادوا إلا الضرر، وخسروا أموالهم لأنهم لم ينتفعوا بها، حتى ما أعطوه للخلق لينتفِع به فإنه لا ينفعهم؛ كما قال تعالى: {وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إلا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ} [التوبة: ٥٤]، وخسروا أهليهم لأنهم في النار، فصاحب النار لا يأنس بأهله بل إنه مغلق عليه في تابوت، ولا يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا.

والمراد بخفة الموازين: رجحان السيئات على الحسنات، أو فقدان الحسنات بالكلية، إن قلنا بأن الكفار توزن أعمالهم كما هو ظاهر هذه الآية الكريمة وأمثالها، وهو أحد القولين لأهل العلم.

والقول الثاني: أن الكفار لا توزن أعمالهم؛ لقوله تعالى: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [الكهف: ١٠٣ - ١٠٥]. والله أعلم.

**الأمر السادس مما يكون يوم القيامة**: وهو ما ذكره المؤلف بقوله: "**وَتُنْشَرُ الدَّواوينُ، وهي صحائف الأعمال، فآخِذٌ كِتابَهُ بِيَمينِهِ، وآخذ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره، كما قال سبحانه وتعالى: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: ١٣، ١٤]**".

الشرح: "**تنشر**" أي: تفرق وتفتح لقارئها، "**الدواوين**": جمع ديوان، وهو السجل الذي تكتب فيه الأعمال، ومنه دواوين بيت المال، وما أشبه ذلك.

"**وهي صحائف الأعمال**"؛ يعني: التي كتبتها الملائكة الموكلون بأعمال بني آدم؛ قال الله تعالى: {كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الانفطار: ٩ - ١٢]، فيكتب هذا العمل، ويكون لازمًا للإنسان في عنقه، فإذا كان يوم القيامة أخرج الله هذا الكتاب كما قال تعالى: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: ١٣، ١٤].

والكتابة في صحائف الأعمال: إما للحسنات، وإما للسيئات.

فالذي يكتب من الحسنات: ما عمله الإنسان، وما نواه، وما هم به:

- فأما ما عمله؛ فظاهر أنه يكتب.

- وأما ما نواه فإنه يكتب له، لكن يكتب له أجر النية فقط كاملًا لا أجر العمل؛ كما في الحديث الصحيح في قصة الرجل الذي كان له مال ينفقه في سبل الخير، فقال الرجل الفقير: لو أن عندي مالًا؛ لعملت فيه بعمل فلان؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم:"فهو بنيته؛ فأجرهما سواء" (رواه أحمد).

ويدل على أنهما ليسا سواء في الأجر من حيث العمل: أن فقراء المهاجرين لما أتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: يا رسول الله! إن أهل الدثور سبقونا. فقال لهم صلى الله عليه وسلم: تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين، فلما سمع الأغنياء بذلك؛ فعلوا مثله، فرجع الفقراء يشكون إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فقال لهم: "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (متفق عليه)، ولم يقل: إنكم بنيتكم أدركتم عملهم، ولأن هذا هو العدل فرجل لم يعمل لا يكون كالذي عمل، لكن يكون مثله في أجر النية فقط.

- وأما الهمّ بعمل الحسنات فينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: أن يهم بالشيء ويفعل ما يقدر عليه منه، ثم يحال بينه وبين إكماله، فهذا يكتب له الأجر كاملًا؛ لقوله تعالى: {وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} [النساء: ١٠٠]، بل إن الإنسان إذا كان من عادته العمل وحيل بينه وبينه؛ فإنه يكتب له أجره كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: "إذا مرض العبد أو سافر؛ كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا" (رواه البخاري).

القسم الثاني: أن يهم بالشيء ويتركه مع القدرة عليه؛ فيكتب له به حسنة كاملة؛ لنيته.

وأما السيئات: فإنه يكتب على الإنسان ما عمله، ويكتب عليه ما أراده وسعى فيه ولكن عجز عنه، ويكتب عليه ما نواه وتمناه.

فالأول: واضح.

والثاني: يكتب عليه كاملًا؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما؛ فالقاتل والمقتول في النار". قالوا: يا رسول الله! هذا القاتل؛ فما بال المقتول؟! قال: "لأنه كان حريصًا على قتل صاحبه" (متفق عليه)، ومثله من هم أن يشرب الخمر ولكن حصل له مانع؛ فهذا يكتب عليه الوزر كاملًا؛ لأنه سعى فيه.

والثالث: الذي نواه وتمناه يكتب عليه لكن بالنية، ومنه الحديث الذي أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عن رجل أعطاه الله مالًا فكان يتخبط فيه، فقال رجل فقير: لو أن لي مالًا لعملت فيه بعمل فلان. قال النبي عليه الصلاة والسلام: "فهو بنيته؛ فوزرهما سواء" (رواه أحمد).

وأما الهمّ بعمل السيئات فهذا على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: إن همّ بها وتركها عجزًا؛ فهو كالعامل إذا سعى فيها.

القسم الثاني: إن همّ بها وتركها لله؛ كان مأجورًا.

القسم الثالث: إن همّ بها وتركها لأن نفسه عزفت عنها، أو لم تطرأ على باله؛ فهذا لا إثم عليه ولا أجر له.

والله عَزَّ وَجَلَّ يجزي بالحسنات أكثر من العمل، ولا يجزي بالسيئات إلا مثل العمل؛ قال تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إلا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [الأنعام: ١٦٠]، وهذا من كرمه عَزَّ وَجَلَّ ومن كون رحمته سبقت غضبه.

**"فآخِذٌ كِتابَهُ بِيَمينِهِ، وآخذ كتابه بشماله"** أي: أن الناس ينقسمون فمنهم من يأخذ كتابه بيمينه . وهم المؤمنون . وهذا إشارة إلى أن لليمنى الإكرام ولذلك يأخذ المؤمن كتابه بها، ويأخذ الكافر كتابه بشماله أو من وراء ظهره؛ كما قال المؤلف: "وآخذ كتابه بشماله".

**"أو من وراء ظهره"** "أو" للتنويع وليست للشك، فظاهر كلام المؤلف أن الناس يأخذون كتبهم على ثلاثة أوجه: باليمين، وبالشمال، ومن وراء الظهر.

ولكن الظاهر أن هذا الاختلاف اختلاف صفات؛ فالذي يأخذ كتابه من وراء ظهره هو الذي يأخذ كتابه بشماله؛ فيأخذ بالشمال وتجعل يده من الخلف؛ فكونه يأخذه بالشمال لأنه من أهل الشمال، وكونه من وراء ظهره لأنه لما استدبر كتاب الله وولَّاه ظهره في الدنيا صار من العدل أن يجعل كتاب أعماله يوم القيامة خلف ظهره؛ فعلى هذا تخلع اليد الشمال حتى تكون من الخلف. والله أعلم.

**{وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ}** أي: عمله؛ لأن الإنسان يتشاءم به أو يتفاءل به، ولأن الإنسان يطير به فيعلو أو يطير به فينزل.

**{فِي عُنُقِهِ}** أي: رقبته، وهذا أقوى ما يكون تعلقًا بالإنسان حيث يربط في العنق؛ لأنه لا يمكن أن ينفصل عنه إلا إذا هلك الإنسان؛ فهكذا يلزمه عمله، حتى إذا كان يوم القيامة كان الأمر كما قال الله تعالى: **{وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا}**؛ أي: مفتوحًا؛ لا يحتاج إلى تعب ولا إلى مشقة في فتحه، ويقال له: **{اقْرَأْ كِتَابَكَ}** وانظر ما كتب عليك فيه.

**{كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}**: وهذا من تمام العدل والإنصاف: أن يوكل الحساب إلى الإنسان نفسه.

**الأمر السابع مما يكون يوم القيامة**: وهو ما ذكره المؤلف بقوله: **"وَيُحاسِبُ اللهُ الخَلائِقَ، وَيَخْلو بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ فَيقَرِّرُهُ بِذُنوبِهِ، كما وصف ذلك في الكتاب والسنة، وأما الكفار؛ فلا يحاسبون محاسبة من**

**توزن حسناته وسيئاته فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم فتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها ويخزون بها".**

الشرح: المحاسبة: إطلاع العباد على أعمالهم يوم القيامة، وقد دل على هذا الكتاب والسنة والإجماع والعقل:

- أما الكتاب؛ فقال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: ٧، ٨] {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا} [الانشقاق: ١٠ - ١٢].

- وأما السنة؛ فقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام بعدة أحاديث أن الله تعالى يحاسب الخلائق.

- وأما الإجماع؛ فإنه متفق عليه بين الأمة: أن الله تعالى يحاسب الخلائق.

- وأما العقل؛ فإننا كلفنا بعمل فعلًا وتركًا وتصديقًا، والعقل والحكمة تقتضيان أن من كلف بعمل، فإنه يحاسب عليه ويناقش فيه.

"**الخلائق**": جمع خليقة؛ يشمل كل مخلوق، إلا أنه يستثنى من ذلك من يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب؛ كما ثبت ذلك في "الصحيحين": أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى أمته ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وهم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون (متفق عليه). وقد روى الإمام أحمد بسند جيد: أن مع كل واحد سبعين ألفًا، فتضرب سبعين ألفًا بسبعين ألفًا، ويزاد سبعون ألفًا. هؤلاء كلهم يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب.

وقوله: "**الخلائق**": يشمل أيضًا الجن لأنهم مكلفون، ولهذا يدخل كافرهم النار بالنص والإجماع؛ كما قال تعالى: {قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ} [الأعراف: ٣٨] ويدخل مؤمنهم الجنة على قول جمهور أهل العلم وهو الصحيح؛ كما يدل عليه قوله تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ...} إلى قوله: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} [الرحمن: ٤٦ - ٥٦].
سؤال: وهل تشمل المحاسبة البهائم؟!

الجواب: أما القصاص فيشمل البهائم؛ لأنه ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام "أنه يقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء" (رواه مسلم) وهذا قصاص، لكنها لا تحاسب حساب تكليف وإلزام؛ لأن البهائم ليس لها ثواب ولا عقاب.

**"وَيَخْلو بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ فَيقَرِّرُهُ بِذُنوبِهِ، كما وصف ذلك في الكتاب والسنة"**: هذه صفة حساب المؤمن: يخلو به الله عَزَّ وَجَلَّ دون أن يطلع عليه أحد، ويقرره بذنوبه؛ أي: يقول له: عملت كذا، وعملت كذا، حتى يقر ويعترف، ثم يقول: "سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم" (متفق عليه). ومع ذلك؛ فإنه سبحانه وتعالى يضع عليه ستره بحيث لا يراه أحد ولا يسمعه أحد، وهذا من فضل الله عَزَّ وَجَلَّ على المؤمن؛ فإن الإنسان إذا قررك بجناياتك أمام الناس وإن سمح عنك ففيه شيء من الفضيحة، لكن إذا كان ذلك وحدك فإن ذلك ستر منه عليك.

**"كما وصف ذلك في الكتاب والسنة"** "ذلك": المشار إليه الحساب؛ يعني: كما وصف الحساب في الكتاب والسنة، لأن هذا من الأمور الغيبية المتوقفة على الخبر المحض، فوجب الرجوع فيه إلى ما وصف في الكتاب والسنة.

**"وأما الكفار؛ فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته؛ فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم فتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها ويخزون بها"**: هكذا جاء معناه في حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حينما ذكر حساب الله تعالى لعبده المؤمن وأنه يخلو به، ويقرره بذنوبه. قال: "وأما الكفار والمنافقون؛ فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين". (متفق عليه)، وفي "صحيح مسلم" عن أبي هريرة رضي الله عنه، في حديث طويل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: فيلقى العبد، أَي: يلقى الله العبد، يعني: المنافق، فيقول: يا فل، أي: يا فلان، ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟! فيقول: بلى، قال: فيقول: أظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيسأله فيجيب كما أجاب الأول، فيقول الله: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ها هنا إذن، قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه".

**تنبيه**: في قول المؤلف رحمه الله :**"محاسبة من توزن حسناته وسيئاته ... الخ"**. إشارة إلى أن المراد بالمحاسبة المنفية عنهم هي محاسبة الموازنة بين الحسنات والسيئات، وأما محاسبة التقرير والتقريع فثابتة كما يدل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

**فائدة**: أول ما يحاسب عليه العبد من الأعمال الصلاة، وأول ما يقضى فيه بين الناس الدماء؛ لأن الصلاة أفضل العبادات البدنية، والدماء أعظم ما يعتدى به في حقوق الآدميين.

**الأمر الثامن مما يكون يوم القيامة**: وهو ما ذكره المؤلف بقوله:"**وَفِي عَرَصاتِ القِيامَةِ الحَوْضُ المَوْرودُ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، آنيته عدد نجوم السماء، من يشرب منه شربة؛ لا يظمأ بعدها أبدًا، طوله شهر وعرضه شهر**".

الشرح: العرَصات: جمع عرْصة، وهي المكان المتسع بين البنيان، والمراد به هنا مواقف القيامة.

والحوض في الأصل: مجمع الماء، والمراد به هنا: حوض النبي صلى الله عليه وسلم.

والكلام على الحوض من عدة وجوه:

أولًا: هذا الحوض موجود الآن؛ لأنه ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خطب ذات يوم في أصحابه، وقال: "وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن" (متفق عليه). وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ومنبري على حوضي" (متفق عليه). وهذا يحتمل أنه في هذا المكان، لكن لا نشاهده لأنه غيبي، ويحتمل أن المنبر يوضع يوم القيامة على الحوض.

ثانيًا: هذا الحوض يصب فيه ميزابان من الكوثر وهو النهر العظيم، الذي أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة؛ ينزلان إلى هذا الحوض (رواه مسلم).

ثالثًا: زمن الحوض قبل العبور على الصراط؛ لأن المقام يقتضي ذلك؛ حيث إن الناس في حاجة إلى الشرب في عرصات القيامة قبل عبور الصراط (رواه عبدالله في زيادات المسند).

رابعًا: يرد هذا الحوض المؤمنون بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم المتبعون لشريعته، وأما من استنكف واستكبر عن اتباع الشريعة؛ فإنه يطرد منه (متفق عليه).

خامسًا: في كيفية مائه: قال المؤلف رحمه الله: "**ماؤه أشد بياضًا من اللبن**" هذا في اللون، وأما في الطعم؛ فقال: "**وأحلى من العسل**"، وفي الرائحة أطيب من ريح المسك؛ كما ثبت به الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم (متفق عليه).

سادسًا: في آنيته: قال المؤلف: **"آنيته عدد نجوم السماء"** وهذا كما ورد في بعض ألفاظ الحديث، وفي بعضها: "آنيته كنجوم السماء"، وهذا اللفظ أشمل؛ لأنه يكون كالنجوم في العدد وفي الوصف بالنور واللمعان؛ فآنيته كنجوم السماء كثرة وإضاءة.

سابعًا: آثار هذا الحوض: قال المؤلف:**"من يشرب منه شربة؛ لا يظمأ بعدها أبدًا"**: حتى على الصراط وبعده، وهذه من حكمة الله عزَّ وجلَّ؛ لأن الذي يشرب من الشريعة في الدنيا لا يخسر أبدًا كذلك.
ثامنًا: مساحة هذا الحوض: قال المؤلف: **"طوله شهر وعرضه شهر"**: هذا إذًا يقتضي أن يكون مدورًا؛ لأنه لا يكون بهذه المساحة من كل جانب إلا إذا كان مدورًا، وهذه المسافة باعتبار ما هو معلوم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم من سير الإبل المعتاد.

تاسعًا: هل للأنبياء الآخرين أحواضٌ؟ فالجواب: نعم؛ فإنه جاء في حديث رواه الترمذي :"إن لكل نبي حوضًا" ويؤيد هذا المعنى أن الله عزَّ وجلَّ بحكمته وعدله كما جعل للنبي محمد صلى الله عليه وسلم حوضًا يرده المؤمنون من أمته؛ كذلك يجعل لكل نبي حوضًا، حتى ينتفع المؤمنون بالأنبياء السابقين، لكن الحوض الأعظم هو حوض النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

**الأمر التاسع مما يكون يوم القيامة**: وهو ما ذكره المؤلف رحمه الله بقوله: **"وَالصِّراطُ مَنْصوبٌ عَلى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الجِسْرُ الذي بين الجنة والنار"**.

الشرح: اختلف العلماء في كيفية هذا الصراط:

- فمنهم من قال: هو طريق واسع يمر الناس عليه على قدر أعمالهم؛ لأن كلمة الصراط مدلولها اللغوي هو هذا؛ ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بأنه دَحْض ومَزِلة (متفق عليه)، والدحض والمزلة لا يكونان إلا في طريق واسع، أما الضيق فلا يكون دحضًا ومزلة.

- ومن العلماء من قال: بل هو صراط دقيق جدًّا؛ كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه مسلم بلاغًا أنه أدق من الشعر، وأحد من السيف، وعلى هذا يرد سؤال: وهو: كيف يمكن العبور على طريق كهذا؟

والجواب: أن أمور الآخرة لا تقاس بأمور الدنيا؛ فالله تعالى على كل شيء قدير، ولا ندري كيف يعبرون؟! هل يجتمعون جميعًا في هذا الطريق أو واحدًا بعد واحد؟ وهذه المسألة لا يكاد الإنسان يجزم بأحد القولين؛ لأن كليهما له وجهة قوية.

"**منصوب على متن جهنم**" يعني: على نفس النار.

قوله: "**يمر عليه الناس على قدر أعمالهم: فمنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدوا عدوًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يزحف زحفًا، ومنهم من يخطف خطفًا ويلقى في جهنم؛ فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم" (متفق عليه). فمن مر على الصراط دخل الجنة**".

الشرح: "**يمر الناس**": المراد بـ "الناس" هنا: المؤمنون؛ لأن الكفار قد ذهب بهم إلى النار، فيمر المؤمنون عليه على قدر أعمالهم؛ منهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ولمح البصر أسرع من البرق،ومنهم من يمر كالريح؛ أي: الهواء، ولا شك أن الهواء سريع، لا سيما قبل أن يعرف الناس الطائرات، والهواء المعروف يصل أحيانًا إلى مئة وأربعين ميلًا في الساعة، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، وهي دون الفرس الجواد بكثير، ومنهم من يعدو عدوًا؛ أي: يسرع، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يزحف زحفًا؛ أي: يمشي على مقعدته، وكل منهم يريد العبور، وهذا بغير اختيار الإنسان، ولو كان باختياره لكان يحب أن يكون بسرعة، ولكن السير على حسب سرعته في قبول الشريعة في هذه الدنيا؛ فمن كان سريعًا في قبول ما جاءت به الرسل؛ كان سريعًا في عبور الصراط، ومن كان بطيئًا في ذلك كان بطيئًا في عبور الصراط؛ جزاء وفاقًا، والجزاء من جنس العمل.

"**ومنهم من يخطف خطفا**"؛ أي: يؤخذ بسرعة، وذلك بالكلاليب التي على الجسر؛ تخطف الناس بأعمالهم.

"**ويلقى في جهنم**": يفهم منه أن النار التي يلقى فيها العصاة هي النار التي يلقى فيها الكفار، ولكنها لا تكون بالعذاب كعذاب الكفار، بل قال بعض العلماء: إنها تكون بردًا وسلامًا عليهم كما كانت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، ولكن الظاهر خلاف ذلك وأنها تكون حارة مؤلمة، لكنها ليست كحرارتها بالنسبة للكافرين.

ثم إن أعضاء السجود لا تمسها النار؛ كما ثبت ذلك عن النبي عليه الصلاة والسلام في "الصحيحين"، وهي الجبهة والأنف والكفان والركبتان وأطراف القدمين.

"**فمن مر على الصراط؛ دخل الجنة**" أي: لأنه نجا من النار.

وقوله رحمه الله: "**فإذا عبروا عليه؛ وُقِفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا؛ أُذِن لهم في دخول الجنة** ".

الشرح: "**القنطرة**": هي الجسر، لكنها جسر صغير، والجسر في الأصل ممر على الماء من نهر ونحوه، واختلف العلماء في هذه القنطرة هل هي طرف الجسر الذي على متن جهنم أو هي جسر مستقل؟! والصواب في هذا أن نقول: الله أعلم، وليس يعنينا شأنها، لكن الذي يعنينا أن الناس يوقفون عليها.

"**فيقتص لبعضهم من بعض**": هذا القصاص غير القصاص الأول الذي في عرصات القيامة لأن هذا قصاص أخص لأجل أن يذهب الغل والحقد والبغضاء التي في قلوب الناس، فيكون هذا بمنزلة التنقية والتطهير، وذلك لأن ما في القلوب لا يزول بمجرد القصاص.

فهذه القنطرة التي بين الجنة والنار لأجل تنقية ما في القلوب، حتى يدخلوا الجنة وليس في قلوبهم غل؛ كما قال الله تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} [الحجر: ٤٧].

"**فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا؛ أُذِن لهم في دخول الجنة**": هكذا رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، إذا هذبوا مما في قلوبهم من العداوة والبغضاء ونقوا منها؛ فإنه يؤذن لهم في دخول الجنة؛ فإذا أذن لهم في الدخول فلا يجدون الباب مفتوحًا، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم يشفع إلى الله في أن يفتح لهم باب الجنة؛ كما سيأتي في أقسام الشفاعة إن شاء الله.

**<u>الأمر العاشر مما يكون يوم القيامة</u>**: دخول الجنة: وأشار إليه المؤلف بقوله: "**وأول من يستفتح باب الجنة محمد صلى الله عليه وسلم، وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته**".

الشرح: دليل هذا ما ثبت في "صحيح مسلم" أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أنا أول شفيع في الجنة"، وفي لفظ: "أنا أول من يقرع باب الجنة"، وفي لفظ: "آتي باب الجنة يوم القيامة، فأستفتح، فيقول الخازن:

من أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد من قبلك". وقوله صلى الله عليه وسلم: "فأستفتح"؛ أي: أطلب فتح الباب.

وهذا من نعمة الله على محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإن الشفاعة الأولى التي يشفعها في عرصات القيامة لإزالة الكروب والهموم والغموم، والشفاعة الثانية لنيل الأفراح والسرور؛ فيكون شافعًا للخلق عليه الصلاة والسلام في دفع ما يضرهم وجلب ما ينفعهم.

ولا دخول إلى الجنة إلا بعد شفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأن ذلك ثبت في السنة كما سبق، وأشار إليه الله عز وجل بقوله: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [الزمر: ٧٣]؛ فإنه لم يقل: حتى إذا جاؤوها فتحت! ففيه إشارة إلى أن هناك شيئًا قبل الفتح وهو الشفاعة، أما أهل النار فقال فيهم: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [الزمر: ٧١]؛ لأنهم يأتونها مهيأة فتبغتهم؛ نعوذ بالله منها.

"**وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته**": وهذا حق ثابت؛ دليله ما ثبت في "صحيح مسلم" عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة" (رواه مسلم)، وقال – صلى الله عليه وسلم –: "نحن الآخرون السابقون يوم القيامة" (متفق عليه). وهذا يشمل كل مواقف القيامة.

**<u>الأمر الحادي عشر مما يكون يوم القيامة</u>**: الشفاعة:وقد ذكرها المؤلف بقوله: "**وله صلى الله عليه وسلم في القيامة ثلاث شفاعات**".

الشرح:"**له**": الضمير يعود للنبي صلى الله عليه وسلم.

و**الشفاعات**: جمع شفاعة، وهي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة، والشفاعة تنقسم إلى قسمين: شفاعة باطلة، وشفاعة صحيحة:

– فالشفاعة الباطلة: ما يتعلق به المشركون في أصنامهم؛ حيث يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاء لهم عند الله؛ كما قال تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} [يونس: ١٨]، ويقولون: {مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر: ٣]. فهذه الشفاعة باطلة لا تنفع؛ كما قال تعالى: {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} [المدثر: ٤٨].

- والشفاعة الصحيحة ما جمعت شروطًا ثلاثة:

الأول: رضي الله عن الشافع.

الثاني: رضاه عن المشفوع له، لكن الشفاعة العظمى في الموقف عامة لجميع الناس من رضي الله عنهم ومن لم يرض عنهم.

الثالث: إذنه في الشفاعة، ولا يكون إلا بعد الرضى عن الشافع والمشفوع له.

ودليل ذلك قوله تعالى: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} [النجم: ٢٦]، ولم يقل: عن الشافع، ولا: المشفوع له؛ ليكون أشمل. وقال تعالى: {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} [طه: ١٠٩]. وقال سبحانه: {وَلَا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارْتَضَى} [الأنبياء: ٢٨]. فالآية الأولى تضمنت الشروط الثلاثة، والثانية تضمنت شرطين، والثالثة تضمنت شرطًا واحدًا.

وقوله رحمه الله:"**أما الشفاعة الأولى: فيشفع في أهل الموقف، حتى يقضى بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء: آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم عن الشفاعة حتى تنتهي إليه**".

الشرح: هذه هي الشفاعة العظمى، وهي الشفاعة لأهل الموقف.

"**حتى يقضى بينهم**": (حتى) أي: من أجل أن يقضى بينهم.

"**بعد أن يتراجع الأنبياء؛ آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم عن الشفاعة**": أي: يردها كل واحد منهم إلى الآخر، كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: "أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون فيم ذلك؟ يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد؛ يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعضهم لبعض: عليكم بآدم! فيأتونه، فيقولون له: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة، فعصيته؛ نفسي نفسي نفسي! اذهبوا إلى نوح! فيأتون

نوحًا، فيقولون: يا نوح! إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبدًا شكورًا؛ اشفع لنا إلى ربك؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول كما قال آدم في غضب الله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي؛ اذهبوا إلى إبراهيم! فيأتون إبراهيم، فيقولون: يا إبراهيم! أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض؛ اشفع لنا إلى ربك؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول كما قال آدم في غضب الله، وإني قد كذبت ثلاث كذبات؛ اذهبوا إلى موسى! فيأتون موسى، فيقولون: يا موسى! أنت رسول الله، فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس؛ اشفع لنا إلى ربك؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول كما قال آدم في غضب الله، وإني قد قتلت نفسًا لم أومر بقتلها؛ اذهبوا إلى عيسى! فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى! أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد صبيًّا؛ اشفع لنا إلى ربك؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول كما قال آدم في غضب الله، ولم يذكر ذنبًا، اذهبوا إلى محمد! وكلهم يقول كما قال آدم: نفسي نفسي نفسي! فيأتون محمدًا صلى الله عليه وسلم، فيقولون: يا محمد! أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؛ اشفع لنا إلى ربك؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق، فآتي تحت العرش، فأقع ساجدًا لربي عز وجل، ثم يفتح الله عليَّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد! ارفع رأسك؛ سل تعطه، واشفع تشفع ... " وذكر تمام الحديث.

"**حتى تنتهي إليه**"؛ أي: إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

وهذه الشفاعة لا تكون لأحد أبدًا إلا للرسول عليه الصلاة والسلام، وهي أعظم الشفاعات؛ لأن فيها إراحة الناس من هذا الموقف العظيم والكرب والغم.

وقوله رحمه الله: "**وأما الشفاعة الثانية: فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة، وهاتان الشفاعتان خاصتان له**".

الشرح: قد تقدم الكلام على هذا قريبا، وقد جاء التصريح بذلك في صحيح مسلم عن حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم، فيقولون: يا أبانا! استفتح لنا الجنة...الحديث وفيه: "فيأتون محمدًا، فيقوم، فيؤذن له...الحديث".

"**وهاتان الشفاعتان خاصتان له**" أي: للنبي محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وهناك أيضًا شفاعة ثالثة خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم لا تكون لغيره، وهي الشفاعة في عمه أبي طالب الذي مات على الكفر كما في الصحيحين، فقد أذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يشفع في عمه أبي طالب مع أنه مات كافرا، فيكون هذا مخصوصًا من قوله تعالى: {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} [المدثر: ٤٨]، ولكنها شفاعة لم تخرجه من النار، بل كان في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه؛ قال الرسول عليه الصلاة والسلام: "ولولا أنا؛ لكان في الدرك الأسفل من النار" (متفق عليه)، وليس هذا من أجل شخصية أبي طالب، ولكن من أجل ما حصل من دفاعه عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه.

وقوله رحمه الله:"**وأما الشفاعة الثالثة، فيشفع فيمن استحق النار، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم، فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها، ويخرج الله من النار أقوامًا بغير شفاعة، بل بفضله ورحمته**".

الشرح: "**وأما الشفاعة الثالثة، فيشفع فيمن استحق النار**"؛ أي: من عصاة المؤمنين.

"**وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم**"؛ يعني: أنها ليست خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم، بل تكون للنبيين حيث يشفعون في عصاة قومهم، وللصديقين يشفعون في عصاة أقاربهم وغيرهم من المؤمنين، وكذلك تكون لغيرهم من الصالحين، حتى يشفع الرجل في أهله وفي جيرانه وفيما أشبه ذلك.

"**ويخرج الله من النار أقوامًا بغير شفاعة، بل بفضله ورحمته**": يعني: أن الله تعالى يخرج من عصاة المؤمنين من شاء بغير شفاعة، وهذا من نعمته؛ فإن رحمته سبقت غضبه، فيشفع الأنبياء والصالحون والملائكة وغيرهم، حتى لا يبقى إلا رحمة أرحم الراحمين، فيخرج من النار من يخرج بدون شفاعة، حتى لا يبقى في النار إلا أهلها الذين هم أصحاب النار، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم:"أن الله تعالى يقول: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط؛ قد عادوا حممًا ..." الحديث.

**<u>الأمر الثاني عشر مما يكون يوم القيامة</u>**: وهو ما ذكره المؤلف بقوله: "**وَيَبْقى في الجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَها مِنْ أَهْلِ الدُّنْيا، فينشئ الله لها أقوامًا، فيدخلهم الجنة**".

الشرح: الجنة عرضها السماوات والأرض يدخلها أهلها ولكن لا تمتلئ، وقد تكفل الله عزَّ وجلَّ للجنة وللنار لكل واحدة ملؤها: "فالنار لا تزال يلقى فيها وهي تقول: هل من مزيد؟ فلا تمتلئ، فيضع الله عزَّ وجلَّ عليها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، وأما الجنة فينشئ لها أقوامًا فيدخلون الجنة بفضل الله ورحمته" ثبت ذلك في "الصحيحين" عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذا مقتضى قوله تعالى: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام: ٥٤]، وقول النبي عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه سبحانه وتعالى: "إن رحمتي سبقت غضبي" (متفق عليه).

وقوله رحمه الله:"**وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار، وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتب المنزلة من السماء، والآثار من العلم المأثور عن الأنبياء، وفي العلم الموروث عن محمد صلى الله عليه وسلم من ذلك ما يشفي ويكفي، فمن ابتغاه وجده**".

الشرح: **الأصناف**: الأنواع، وقد سبق معنى **الحساب**.

"**والثواب**": جزاء الحسنات؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

"**والعقاب**": جزاء السيئات، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون.

"**والجنة**": هي الدار التي أعدها الله تعالى لأوليائه، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٧]؛ أي: لا تعلم حقيقته وكنهه، والجنة موجودة الآن؛ لقوله تعالى: {أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١٣٣]، والأحاديث في هذا المعنى متواترة، ولا تزال باقية أبد الآبدين؛ لقوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هود: ١٠٨]، وقوله: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}؛ في آيات متعددة.

"**والنار**": فهي الدار التي أعدها الله تعالى لأعدائه، وفيها من أنواع العذاب والعقاب ما لا يطاق، وهي موجودة الآن؛ لقوله تعالى: {أُعِدَّتْ للكافرين} [آل عمران: ١٣١]، والأحاديث في هذا المعنى مستفيضة مشهورة، وأهلها الذين هم أهلها خالدون فيها أبدًا؛ لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [الأحزاب: ٦٤ - ٦٥]، وقد ذكر الله خلودهم أبدًا في ثلاث آيات من القرآن؛

هذه أحدها، والثانية في آخر سورة النساء، والثالثة في سورة الجن، وهي ظاهرة في أن النار لا تزال باقية أبد الآبدين.

"**وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتب المنزلة من السماء**" مثل التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى وغيرها من الكتب المنزلة؛ فقد ذكر فيها ذلك مبينًا مفصلًا لحاجة الناس، بل لضرورتهم إلى بيانه وتفصيله؛ إذ لا يمكنهم الاستقامة إلا بالإيمان باليوم الآخر الذي يجازى فيه كل عامل بما عمل من خير وشر.

"**والآثار من العلم المأثور عن الأنبياء**": اعلم أن العلم المأثور عن الأنبياء قسمان:

الأول: قسم ثبت بالوحي، وهو ما ذكر في القرآن والسنة الصحيحة، وهذا لا شك في قبوله واعتقاد مدلوله.

الثاني: قسم أتى عن طريق النقل غير الوحي، وهذا هو الذي دخل فيه الكذب والتحريف والتبديل والتغيير. ولهذا لا بد من أن يكون الإنسان حذرًا مما ينقل بهذه الطريق عن الأنبياء السابقين، حتى قال الرسول عليه الصلاة والسلام: "إذا حدثكم أهل الكتاب؛ فلا تصدِّقوهم ولا تكذِّبوهم، وقولوا: آمنا بما أنزل إلينا وما أنزل إليكم" (رواه البخاري)؛ لأنك إن صدقتهم فقد تصدق بباطل، وإن كذبتهم فقد تكذب بحق؛ فلا تصدقهم ولا تكذبهم؛ بل قل: إن كان هذا من عند الله؛ فقد آمنت به.

وقد قسم العلماء ما أثر عمن سبق ثلاثة أقسام:

الأول: ما شهد شرعنا بصدقه.

والثاني: ما شهد شرعنا بكذبه. والحكم في هذين واضح.

الثالث: ما لم يحكم بصدقه ولا بكذبه، فهذا مما يجب فيه التوقف؛ لا يصدَّق ولا يكذَّب.

" **وفي العلم الموروث عن محمد صلى الله عليه وسلم من ذلك ما يشفي ويكفي**" :العلم الموروث عن محمد صلوات الله وسلامه عليه سواء في كتاب الله أو في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه من ذلك ما يشفي ويكفي في كل أبواب العلم والإيمان، فلا حاجة إلى أن نبحث عن مواعظ ترقق القلوب من غير الكتاب والسنة، بل نحن في غنى عن هذا كله.

ثم المنسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في باب الوعظ والفضائل ترغيبًا أو ترهيبًا ينقسم إلى ثلاثة أقسام: صحيح، وضعيف، وموضوع، فالصحيح مقبول، ونحن في غنى عن الضعيف والموضوع، وقد ذكر في باب اليوم الآخر وأشراط الساعة أحاديث كثيرة فيها ضعف وفيها وضع، وأكثر ما تكون هذه في كتب الرقائق والمواعظ؛ فلذلك يجب التحرز منها، وأن نحذر العامة الذين يقع في أيديهم مثل هذه الكتب.

"**فمن ابتغاه**"؛ أي: طلبه، "**وجده**" وهذا صحيح؛ فالقرآن بين أيدينا، وكتب الأحاديث بين أيدينا، لكنها تحتاج إلى تنقيح وبيان الصحيح منها والضعيف، حتى يبني الناس ما يعتقدونه في هذا الباب على أساس سليم.

## فصل في الإيمان بالقدر

قوله: "**وَتُؤْمِنُ الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ أَهْلُ السُّنَّةِ والجَماعَةِ بِالقَدَرِ؛ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**".

الشرح: "**بالقدر خيره وشره**": القدر في اللغة؛ بمعنى: التقدير؛ قال تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: {فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ} [المرسلات: ٢٣]، التقدير: هو ما قدره الله تعالى في الأزل أن يكون في خلقه.

والإيمان بالقدر واجب، ومرتبته في الدين أنه أحد أركان الإيمان الستة؛ كما تقدم.

"**خيره وشره**": قد سبق الكلام عليها في أول هذا الشرح.

وقوله: "**وَالإيمانُ بِالقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ، كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ**".

الشرح: إنما قسم المؤلف هذا التقسيم من أجل الخلاف؛ لأن الخلاف في القدر ليس شاملًا لكل مراتبه، وباب القدر من أشكل أبواب العلم والدين على الإنسان، وقد كان النزاع فيه من عهد الصحابة رضي الله عنهم، لكنه ليس مشكلًا لمن أراد الحق.

**الدرجة الأولى من درجات الإيمان بالقدر**: بينها بقوله: "**فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلًا وأبدا**".

الشرح: "**فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله علم ما الخلق عاملون**": ولم يذكر المؤلف أن الله علم ما يفعله هو لأن هذه المسألة ليس فيها خلاف، إنما ذكر ما فيه الخلاف، وهو: هل الله يعلم ما الخلق عاملون أو لا يعلمه إلا بعد وقوعه منهم؟ ومذهب السلف والأئمة أن الله تعالى عالم بذلك.

"**بعلمه القديم**": القديم في اصطلاحهم: هو الذي لا أول لابتدائه؛ أي أنه لم يزل فيما مضى من الأزمنة التي لا نهاية لها عالما بما يعمله الخلق؛ بخلاف القديم في اللغة فقد يراد به ما كان قديمًا نسبيًّا؛ كما في قوله تعالى: {حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} [يس: ٣٩]، ومعلوم أن عرجون النخلة ليس بقديم أزلي، بل قديم بالنسبة لما بعده.

فالله تعالى موصوف بأنه عالم بما الخلق عاملون بعلمه القديم الأزلي الذي لا نهاية لأوله، عالم جل وعلا بأن هذا الإنسان سيعمل كذا في يوم كذا في مكان كذا بعلمه القديم الأولي؛ فيجب أن نؤمن بذلك، ودليل ذلك من الكتاب والسنة والعقل:

- أما الكتاب؛ فما أكثر الآيات التي فيها العموم في علم الله؛ مثل: {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٨٠]، {إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [النساء: ٣٢]، {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا} [غافر: ٧]، {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: ١٢] إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى كثرة.

- وأما في السنة؛ فإن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر بأن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وبأن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الأقلام قد جفت وطويت الصحف، والأحاديث في هذا كثيرة.

- وأما العقل؛ فإن من المعلوم بالعقل أن الله تعالى هو الخالق وأن ما سواه مخلوق، ولا بد عقلًا أن يكون الخالق عالمًا بمخلوقه، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[الملك:١٤].

"**الذي هو موصوف به أزلًا وأبدًا**": ففي كونه موصوفًا به أزلًا نفي للجهل، وفي كونه موصوفًا به أبدًا نفي النسيان، ولهذا كان علم الله عزَّ وجلَّ غير مسبوق بجهل ولا ملحوق بنسيان؛ كما قال موسى عليه الصلاة والسلام لفرعون: {عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى} [طه: ٥٢]، بخلاف علم المخلوق المسبوق بالجهل والملحوق بالنسيان.

قوله: "**عَلِمَ جَميعَ أحْوالِهِم مِنَ الطَّاعاتِ وَالمَعاصي وَالأرْزاقِ وَالآجالِ**".

الشرح: هذا هو الشيء الأول من الدرجة الأولى، ودليل ذلك ما ثبت في "الصحيحين" عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: حدثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو الصادق المصدوق: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه ... وذكر أطوار الجنين، وفيه: "ثم يبعث الله ملكًا، فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد ... " وذكر تمام الحديث (متفق عليه)، فالله عالم بذلك قبل أن يخلق الإنسان، فطاعاتنا معلومة لله، ومعاصينا معلومة لله، وأرزاقنا معلومة له، وآجالنا معلومة له، إذا مات الإنسان بسبب معلوم أو بغير سبب معلوم؛ فإنه لله معلوم ولا يخفى عليه؛ بخلاف علم الإنسان

بأجله؛ فإنه لا يعرف أجله؛ فلا يعرف أين يموت، ولا متى يموت، ولا يعرف بأي سبب يموت، ولا يعرف على أي حال يموت؛ نسأل الله تعالى حسن الخاتمة.

قوله: **"ثُمَّ كَتَبَ اللهُ في اللَّوْحِ المَحْفوظِ مَقاديرَ الخَلْقِ"**.

الشرح: هذا هو الشيء الثاني من الدرجة الأولى.

**"اللوح المحفوظ"**: لا نعرف ماهيته؛ من أي شيء؛ أمن خشب، أم من حديد، أم من ذهب، أم من فضة، أم من زمرد؟ فالله أعلم بذلك؛ إنما نؤمن بأن هناك لوحًا كتب الله فيه مقادير كل شيء، وليس لنا الحق في أن نبحث وراء ذلك، لكن لو جاء في الكتاب والسنة ما يدلنا على شيء؛ فالواجب أن نعتقده، ووصف بكونه محفوظًا لأنه:

أولا: محفوظ من أيدي الخلق؛ فلا يمكن أن يلحق أحد به شيئًا، أو يغير به شيئًا أبدًا.

ثانيًا: محفوظ من التغيير؛ فالله عزَّ وجلَّ لا يغير فيه شيئًا؛ لأنه كتبه عن علم منه؛ كما سيذكره المؤلف، ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله: "إن المكتوب في اللوح المحفوظ لا يتغير أبدًا"، وإنما يحصل التغيير في الكتب التي بأيدي الملائكة.

**"مقادير الخلق"** أي: مقادير المخلوقات كلها، وظاهر النصوص أنه شمل ما يفعله الإنسان، وما تفعله البهائم، وأنه عام وشامل، ولكن؛ هل هذه الكتابة إجمالية أو تفصيلية؟

قد نقول: إننا لا نجزم بأنها تفصيلية أو إجمالية. فمثلًا: القرآن الكريم: هل هو مكتوب في اللوح المحفوظ بهذه الآيات والحروف أو أن المكتوب في اللوح ذكره وأنه سينزل على محمد صلى الله عليه وسلم وأنه سيكون نورًا وهدىً للناس وما أشبه ذلك؟

ففيه احتمال: إن نظرنا إلى ظاهر النصوص؛ قلنا: إن ظاهرها أن القرآن كله مكتوب جملة وتفصيلًا، وإن نظرنا إلى أن الله سبحانه وتعالى يتكلم بالقرآن حين نزوله، قلنا: إن الذي كتب في اللوح المحفوظ ذكر القرآن، ولا يلزم من كون ذكره في اللوح المحفوظ أن يكون قد كتب فيه؛ كما قال الله تعالى عن القرآن: {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ} [الشعراء: ١٩٦]؛ يعني: كتب الأولين، ومعلوم أن القرآن لم يوجد نصه في الكتب

السابقة، وإنما وجد ذكره، ويمكن أن نقول مثلها في قوله تعالى: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} [البروج: ٢١ - ٢٢]؛ أي: ذكره في هذا اللوح.

قوله: **"فأول ما خلق الله القلم؛ قال له: اكتب! قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة" (رواه أحمد وأبو داود والترمذي).**

الشرح: **"فأول ما خلق الله القلم؛ قال له: اكتب"**: فأمره أن يكتب؛ مع أن القلم جماد!! فكيف يوجه الخطاب إلى الجماد؟!

والجواب عن ذلك: أن الجماد بالنسبة إلى الله عاقل يصح أن يوجه إليه الخطاب: قال الله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: ١١]؛ فوجه الخطاب إليهما، وذكر جوابهما، وكان الجواب بجمع العقلاء طائعين دون طائعات، وقال تعالى: {قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ} [الأنبياء: ٦٩]، فكانت كذلك، وقال تعالى: {يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ} [سبأ: ١٠]، فكانت الجبال تؤوب معه.

والحاصل أن الله أمر القلم أن يكتب، وقد امتثل القلم، لكنه أشكل عليه ماذا يكتب؛ لأن الأمر مجمل، فقال: **"ما أكتب؟ "**؛ أي: أي شيء أكتب؟ "قال"، أي: الله. **"اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة"**: فكتب القلم بأمر الله ما هو كائن إلى يوم القيامة، فانظر كيف علم القلم ماذا يكون إلى يوم القيامة، فكتبه؛ لأن أمر الله عزَّ وجلَّ لا يرد.

وقوله: **"ما هو كائن إلى يوم القيامة"**: يشمل ما كان من فعل الله تعالى وما كان من أفعال الخلق.

قوله: **"فَما أصابَ الإنْسانَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَما أخْطَأهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصيبَهُ جَفَّتِ الأقْلامُ وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ"**.

الشرح: **"ما أصاب"**: يحتمل أن المعنى: ما قدر أن يصيبه؛ فإنه لن يخطئه، ويحتمل أن ما أصابه بالفعل لا يمكن أن يخطئه، حتى لو تمنى الإنسان، وهما معنيان صحيحان لا يتنافيان.

**"وما أخطأه لم يكن ليصيبه"** أي: ما قُدِّر أن يخطئه فإنه لم يكن ليصيبه، أو المعنى: ما أخطأه بالفعل، لأنه معروف أنه غير صائب، ولو تمنى الإنسان، وهما معنيان صحيحان لا يتنافيان.

"**جفت الأقلام**": هي أقلام القدر التي كتب الله بها المقادير؛ جفت وانتهت.

"**وطويت الصحف**": هذا كناية عن أن الأمر انتهى، وفي "صحيح مسلم" عن جابر رضي الله عنه؛ قال: جاء سراقة بن مالك بن جعشم؛ فقال: يا رسول الله! بيِّن لنا ديننا كأنا خلقنا الآن: فيم العمل اليوم؛ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم فيما نستقبل؟ قال: "لا؛ بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير". قال: ففيم العمل؟ قال: "اعملوا؛ فكل ميسر".

قوله: "**كما قال الله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}**".

الشرح: **{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}**: وهذا عام؛ علم لما فيهما من أعيان وأوصاف وأعمال وأحوال.

**{إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ}**: وهو اللوح المحفوظ.

**{إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}** أي: الكتابة على الله أمر يسير.

"**وقال: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [الحديد: ٢٢]** ".

الشرح: **{فِي الْأَرْضِ}**: كالجدب والزلازل والفيضانات وغيرها.

**{وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ}**: كالمرض والأوبئة المهلكة وغير ذلك، **{إلا فِي كِتَابٍ}**: هو اللوح المحفوظ. **{نَبْرَأَهَا}**؛ أي: من قبل أن نخلقها، والضمير في {نَبْرَأَهَا}: يحتمل أن يعود على المصيبة، ويحتمل أن يعود على الأنفس، ويحتمل أن يعود على الأرض، والكل صحيح؛ فالمصيبة قد كتبت قبل أن يخلقها الله عزَّ وجلَّ، وقبل أن يخلق النفس المصابة، وقبل أن يخلق الأرض، وفي "صحيح مسلم" عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. قال: وكان عرشه على الماء".

قوله: "**وَهذا التَّقْديرُ التَّابعُ لِعِلْمِهِ سُبْحانَهُ يَكونُ في مَواضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصيلًا، فَقَدْ كَتَبَ في اللَّوْحِ المَحْفوظِ ما شاءَ، وإذا خَلَقَ جَسَدَ الجَنينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فيهِ بَعَثَ إليهِ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِماتٍ، فَيُقالُ لَهُ: اكْتُبْ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيّ أم سَعيدٌ وَنَحْوَ ذلكَ**".

الشرح: "**في مواضع**" الموضع الأول: اللوح المحفوظ ، وسبق دليل ذلك وتفصيل القول فيه.

الموضع الثاني: الكتابة العمرية التي تكون للجنين في بطن أمه، وسبق دليلها في حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الموضع الثالث: ما أشار إليه بقوله: "**ونحو ذلك**"، وهو التقدير الحولي الذي يكون في ليلة القدر؛ فإن ليلة القدر يكتب فيها ما يكون في تلك السنة؛ كما قال تعالى: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} [الدخان: ٤ – ٥].

قال المؤلف: "**فهذا التقدير قد كان ينكره غلاة القدرية قديمًا، ومنكروه اليوم قليل**".

الشرح: "هذا التقدير" يعني: العلم والكتابة، ينكره غلاة القدرية قديمًا، ويقولون: إن الله لا يعلم أفعال العبد إلا بعد وجودها، وأنها لم تكتب، ويقولون: إن الأمر أنف؛ أي: مستأنف، لكن متأخروهم أقروا بالعلم والكتابة، وأنكروا المشيئة والخلق، وهذا بالنسبة لأفعال المخلوقين.

أما بالنسبة لأفعال الله؛ فلا أحد ينكر أن الله عالم بها قبل وقوعها، وهؤلاء الذين ينكرون علم الله بأفعال العبد حكمهم في الشرع أنهم كفار؛ لأنهم كذبوا قول الله تعالى: {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٨٢]، وغيرها من الآيات، وخالفوا المعلوم بالضرورة من الدين.

**<u>الدرجة الثانية من درجات الإيمان بالقدر</u>**: وبينها بقوله: "**وَأمّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: فَهِيَ مَشيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ الإيمانُ بِأنَّ ما شاءَ اللهُ كانَ، وَما لَمْ يَشَأ لَمْ يَكُنْ، وَأنَّهُ ما في السَّماواتِ وما في الأرض مِن حَرَكَةٍ وَلا سُكونٍ إلَّا بِمَشيئَةِ اللهِ سُبْحانَهُ**".

الشرح: يعني: أن تؤمن بأن مشيئة الله نافذة في كل شيء، سواء كان مما يتعلق بفعله أو يتعلق بأفعال المخلوقين، وأن قدرته شاملة، {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} [فاطر: ٤٤]، فهذه الدرجة تتضمن شيئين؛ المشيئة والخلق:

– أما المشيئة؛ فيجب أن نؤمن بأن مشيئة الله تعالى نافذة في كل شيء، وأن قدرته شاملة لكل شيء من أفعاله وأفعال المخلوقين: فأما كونها شاملة لأفعاله؛ فالأمر فيها ظاهر، وأما كونها شاملة لأفعال المخلوقين فلأن الخلق كلهم ملك لله تعالى، ولا يكون في ملكه إلا ما شاء، والدليل على هذا: قوله تعالى: {فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنعام: ١٤٩]. وقوله سبحانه: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً} [هود: ١١٨]، وقوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا} [البقرة: ٢٥٣]، فهذه الآيات تدل على أن أفعال العباد متعلقة بمشيئة الله.

وقال تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [الإنسان: ٣٠]. وهذه تدل على أن مشيئة العبد داخلة تحت مشيئة الله وتابعة لها.

قوله: "**لا يكونُ في مُلْكِهِ ما لا يُريدُ**".

الشرح: هذه العبارة تحتاج إلى تفصيل: لا يكون في ملكه ما لا يريد بالإرادة الكونية، أما بالإرادة الشرعية فيكون في ملكه ما لا يريد، وقد تقدم الكلام عن الإرادة الكونية والإرادة الشرعية بما فيه الكفاية.

قوله: "**وَأَنَّهُ سُبْحانَهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ مِنَ المَوْجوداتِ وَالمعدوماتِ**".

الشرح: فالله قادر على كل شيء: من الموجودات فيعدمها أو يغيرها، أو من المعدومات فيوجدها مهما كان؛ كما قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ٢٠].

وإنما نص المؤلف على هذا ردًّا على القدرية الذين قالوا: إن الله ليس بقادر على فعل العبد!! وإن العبد مستقل بعمله! ولكن ما في الكتاب والسنة من شمول قدرة الله يرد عليهم.

قوله: "**فَما مِن مَخْلوقٍ في الأرضِ وَلا في السَّماءِ إلَّا اللهُ خالِقُهُ سُبْحانَهُ لا خالِقَ غيْرُهُ وَلا رَبَّ سِواهُ**".

الشرح: هذا صحيح بلا شك، وعليه دليل أثري ودليل نظري:

– أما الدليل الأثري: فقد قال الله تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الزمر: ٦٢]. وقال تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ} [الطور: ٣٥، ٣٦]، فلا يمكن أن

يوجد شيء في السماء والأرض إلا الله خالقه وحده، فيجب الإيمان بعموم خلق الله عزَّ وجلَّ، وأنه خالق كل شيء، حتى أعمال العباد؛ لقوله تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الرعد: ١٦]، وعمل الإنسان من الشيء، وقال تعالى: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: ٢] والآيات في هذا كثيرة، بل هناك آية خاصة تنص على خلق أفعال العباد، فقال إبراهيم لقومه: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٦] وهذا نص في أن عمل الإنسان مخلوق لله تعالى.

- وأما الدليل النظري على أن أفعال العبد مخلوقة لله؛ فتقريره أن نقول: إن فعل العبد ناشئ عن أمرين: عزيمة صادقة وقدرة تامة، والذي أودع فيك هذه العزيمة وخلق فيك هذه القدرة هو الله عزَّ وجلَّ، وخالق السبب التام خالق للمسبب.

- ووجه ثان نظري: أن نقول: الفعل وصف الفاعل، والوصف تابع للموصوف، فكما أن الإنسان بذاته مخلوق لله فأفعاله مخلوقة؛ لأن الصفة تابعة للموصوف.

**"لا خالق غيره"**: قد يقول قائل: هذا الحصر يرد عليه أن هناك خالقًا غير الله؛ فقد جاء في الحديث أن المصور خالق: "يقال لهم: أحيوا ما خلقتم" (متفق عليه)، وقال عز وجل: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: ١٤]؛ فهناك خالقون غير الله، لكن الله تعالى هو أحسن الخالقين؛ فما الجواب عن قول المؤلف هذا؟

الجواب: أن الخلق المنسوب إلى الله عزَّ وجلَّ هو: الإيجاد وتبديل الأعيان من عين لأخرى؛ فلا أحد يوجد إلا الله عزَّ وجلَّ، ولا أحد يبدل عينًا إلى عين؛ إلا الله عزَّ وجلَّ.

وأما الخلق المنسوب للمخلوق فإنما هو: عبارة عن تحويل شيء من صفة إلى صفة؛ فالخشبة مثلًا بدلًا من أن كانت في الشجرة، تحولت بالنجارة إلى باب؛ فتحويلها إلى باب يسمى خلقًا، لكنه ليس الخلق الذي يختص به الخالق، وهو الإيجاد من العدم، أو تبديل العين من عين إلى أخرى.

**"لا رب سواه"** أي: أن الله وحده هو الرب المدبر لجميع الأمور، وهذا حصر حقيقي، ولكن ربما يرد عليه أنه جاء في بعض الأحاديث إثبات الربوبية لغير الله: ففي لقطة الإبل قال النبي صلى الله عليه وسلم: "دعها؛ معها وحذاؤها، ترد الماء وتأكل الشجر، حتى يجدها ربها" (متفق عليه) وربها: صاحبها. وجاء في

بعض ألفاظ حديث جبريل؛ يقول: "إذا ولدت الأمة ربها" (متفق عليه). فما هو الجمع بين هذا وبين قول المؤلف: "لا رب سواه"؟

الجواب: أن ربوبية الله عامة كاملة؛ كل شيء فالله ربه، لا يسأل عما يفعل في خلقه؛ لأن فعله كله رحمة وحكمة، ولهذا يقدر الله عزَّ وجلَّ الجدب والمرض والموت والجروح في الإنسان وفي الحيوان، ونقول: هذا غاية الكمال والحكمة.

أما ربوبية المخلوق للمخلوق فربوبية ناقصة قاصرة، لا تتجاوز محلها، ولا يتصرف فيها الإنسان تصرفًا تامًّا، بل تصرفه مقيد: إما بالشرع، وإما بالعرف.

قوله: "**ومع ذلك؛ فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته**".

الشرح : يعني: ومع عموم خلقه وربوبيته لم يترك العباد هملًا، ولم يرفع عنهم الاختيار، بل أمرهم بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته، وأمره بذلك أمر ممكن؛ فالمأمور مخلوق لله عزَّ وجلَّ، وفعله مخلوق لله، ومع ذلك؛ يؤمر وينهى، ولو كان الإنسان مجبرًا على عمله لكان أمره له أمرًا بغير ممكن، والله عزَّ وجلَّ يقول:{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا}[البقرة:٢٨٦]، ويقول تعالى:{لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا} [الأنعام: ١٥٢]، وهذا يدل على أنهم قادرون على فعل الطاعة، وعلى تجنب المعصية، وأنهم غير مكرهين على ذلك.

قوله: "**وَهُوَ سُبْحانَهُ يُحِبُّ المُتَّقينَ وَالمُحْسِنينَ وَالمُقْسِطينَ، وَيَرْضَى عَنِ الذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصّالِحاتِ**".

الشرح: يحب المحسنين؛ لقوله تعالى: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ١٩٥]، والمتقين لقوله: {فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: ٧]، والمقسطين لقوله: {وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات: ٩]، فهو عزَّ وجلَّ يحب هؤلاء، ومع ذلك هو الذي قدر لهم هذا العمل الذي يحبه، فكان فعلهم محبوبًا إلى الله مرادًا له كونًا وشرعًا؛ فالمحسن قام بالواجب والمندوب، والمتقي قام بالواجب، والمقسط اتقى الجور في المعاملة.

"**وَيَرْضَى عَنِ الذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصّالِحاتِ**": والدليل قوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [البينة: ٧، ٨].

قوله: "**ولا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد** ".

الشرح : يعني :ولا يحب الله عزَّ وجلَّ الكافرين والدليل قوله تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: ٣٢]، مع أن الكفر واقع بمشيئته، لكن لا يلزم من وقوعه بمشيئته، أن يكون محبوبًا له سبحانه.

"**ولا يرضى عن القوم الفاسقين**": والدليل قوله تعالى: {فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: ٩٦]، والفاسق:هو الخارج عن طاعة الله، قد يراد به الكافر، وقد يراد به العاصي، ففي قوله تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} [السجدة: ١٨ – ٢٠]؛ فالمراد بالفاسق هنا الكافر، وأما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا} [الحجرات: ٦]؛ فالمراد بالفاسق العاصي.

والله عزَّ وجلَّ لا يرضى عن القوم الفاسقين، لا هؤلاء ولا هؤلاء، لكن الفاسقين بمعنى الكافرين لا يرضى عنهم مطلقًا، وأما الفاسقون بمعنى العصاة؛ فلا يرضى عنهم فيما فسقوا فيه، ويرضى عنهم فيما أطاعوا فيه.

"**ولا يأمر بالفحشاء**": والدليل قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ}، لأنهم إذا فعلوا فاحشة: {قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا}؛ فاحتجوا بأمرين، فقال الله تعالى: {قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ}، وسكت عن قولهم: {وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا}؛ لأنه حق لا ينكر فهم قد وجدوا عليها آباءهم ، لكن {وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا} كذب، ولهذا كذبهم وأمر نبيه أن يقول: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ} [الأعراف: ٢٨].

"**ولا يرضى لعباده الكفر**": لقوله تعالى: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} [الزمر: ٧]، لكن يقدّر أن يكفروا، ولا يلزم من تقديره الكفر أن يكون راضيًا به سبحانه وتعالى، بل يقدره وهو يكرهه ويسخطه.

"**ولا يحب الفساد**": دليل ذلك قوله تعالى: {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ} [البقرة: ٢٠٥].

وإنما كرر المؤلف مثل هذه العبارات ليبين أنه لا يلزم من إرادته جل وعلا للشيء أن يكون محبوبًا له، ولا يلزم من كراهته للشيء أن لا يكون مرادًا له بالإرادة الكونية، بل هو عزَّ وجلَّ يكره الشيء ويريده بالإرادة الكونية، ويوقع الشيء ولا يرضى عنه، ولا يريده بالإرادة الشرعية.

فإن قلت: كيف يوقع ما لا يرضاه وما لا يحبه؟! وهل أحد يُكرِهه على أن يوقع ما لا يحبه ولا يرضاه؟! فالجواب: لا أحد يُكرِهه على أن يوقع ما لا يحبه ولا يرضاه، وهذا الذي يقع من فعله عزَّ وجلَّ وهو مكروه له، هو مكروه له من وجه محبوب له من وجه آخر؛ لِما يترتب عليه من المصالح العظيمة، فمثلًا: الإيمان محبوب لله، والكفر مكروه له، فأوقع الكفر وهو مكروه له؛ لمصالح عظيمة؛ لأنه لولا وجود الكفر ما عرف الإيمان، ولولا وجود الكفر ما عرف الإنسان قدر نعمة الله عليه بالإيمان، ولولا وجود الكفر ما قام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الناس كلهم يكونون على المعروف، ولولا وجود الكفر ما قام الجهاد، ولولا وجود الكفر لكان خلق النار عبثًا لأن النار مثوى الكافرين، ولولا وجود الكفر لكان الناس أمة واحدة ولم يعرفوا معروفًا ولم ينكروا منكرًا وهذا لا شك أنه مخل بالمجتمع الإنساني، ولولا وجود الكفر ما عرفت ولاية الله لأن من ولاية الله أن تبغض أعداء الله وأن تحب أولياء الله.

وكذلك يقال في الصحة والمرض؛ فالصحة محبوبة للإنسان وملائمة له ورحمة الله تعالى فيها ظاهرة، لكن المرض مكروه للإنسان وقد يكون عقوبة من الله له، ومع ذلك يوقعه؛ لما في ذلك من المصالح العظيمة، فكم من إنسان إذا أسبغ الله عليه النعمة بالبدن والمال والولد والبيت والمركوب؛ ترفع ورأى أنه مستغن بما أنعم الله به عليه عن طاعة الله عزَّ وجلَّ، كما قال تعالى: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى} [العلق: ٦، ٧]، وهذه مفسدة عظيمة؛ فإذا أراد الله أن يرد هذا الإنسان إلى مكانه ابتلاه حتى يرجع إلى الله، وشاهد هذا قوله تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: ٤١].

وأنت أيها الإنسان إذا فكرت هذا التفكير الصحيح في تقديرات الله عزَّ وجلَّ عرفت ما له سبحانه وتعالى من الحكمة فيما يقدره من خير أو شر، وأن الله سبحانه وتعالى يخلق ما يكرهه ويقدر ما يكرهه لمصالح عظيمة، قد تحيط بها، وقد لا تحيط بها ويحيط بها غيرك، وقد لا يحيط بها لا أنت ولا غيرك.

فإن قيل: كيف يكون الشيء مكروهًا لله ومرادًا له؟

فالجواب: أنه لا غرابة في ذلك، فها هو الدواء المر طعمًا الخبيث رائحة يتناوله المريض وهو مرتاح، لما يترتب عليه من مصلحة الشفاء، وها هو الأب يمسك بابنه المريض ليكويه الطبيب، وربما كواه هو بنفسه، مع أنه يكره أشد الكره أن يحرق ابنه بالنار.

قوله: "**وَالعِبادُ فاعِلونَ حَقيقَةً، وَاللهُ خالِقُ أفْعالِهِم**".

الشرح: هذا صحيح؛ فالعبد هو المباشر لفعله حقيقة، والله خالق فعله حقيقة، وهذه عقيدة أهل السنة، وقد سبق تقريرها بالأدلة، وخالفهم في هذا الأصل طائفتان:

الطائفة الأولى: القدرية من المعتزلة وغيرهم؛ قالوا: إن العباد فاعلون حقيقة، والله لم يخلق أفعالهم.
الطائفة الثانية: الجبرية من الجهمية وغيرهم؛ قالوا: إن الله خالق أفعالهم، وليسوا فاعلين حقيقة، لكن أضيف الفعل إليهم من باب التجوز، وإلا؛ فالفاعل حقيقة هو الله.

وهذا القول الأخير يؤدي إلى القول بوحدة الوجود، وأن الخلق هو الله، ثم يؤدي إلى قول من أبطل الباطل؛ لأن العباد منهم الزاني ومنهم السارق ومنهم شارب الخمر ومنهم المعتدي بالظلم؛ فحاشا أن تكون هذه الأفعال منسوبة إلى الله!! وله لوازم باطلة أخرى، وبهذا تبين أن في قول المؤلف: "**والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم**": يريد به الرد على الجبرية والقدرية.

قوله: "**وَالعَبْدُ هُوَ المُؤْمِنُ وَالكافِرُ، وَالبَرُّ وَالفاجِرُ، وَالمُصَلّي وَالصّائِمُ**".

الشرح: يعني: أن الوصف بالإيمان والكفر والبر والفجور والصلاة والصيام وصف للعبد لا لغيره؛ فهو المؤمن، وهو الكافر، وهو البار، وهو الفاجر، وهو المصلي، وهو الصائم، وكذلك هو المزكي، وهو الحاج، وهو المعتمر وهكذا، ولا يمكن أن يوصف بما ليس من فعله حقيقة، وهذه الجملة تتضمن الرد على الجبرية.

والمراد بالعبودية هنا العبودية العامة؛ لأن العبودية نوعان:

النوع الأول: عبودية عامة: وهي الخضوع لأمر الله الكوني؛ وهذه عامة في جميع الخلق كقوله تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [مريم: ٩٣].

النوع الثاني: عبودية خاصة: وهي الخضوع لأمر الله الشرعي، وهي خاصة بالمؤمنين؛ كقوله تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [الفرقان: ٦٣]، وقوله: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ}، وهذه أخص من الأولى.

قوله: "**وَلِلعِبادِ قدرَةٌ عَلى أعمالِهِم، وَلَهُم إرادَةٌ، وَاللهُ خالِقُهم وَخالِقُ قدرَتِهِم وَإرادَتِهِم**".

الشرح: "**للعباد قدرة على أعمالهم وإرادة**"؛ خلافًا للجبرية القائلين بأنهم لا قدرة لهم ولا إرادة، بل هم مجبرون عليها.

"**والله خالقهم وخالق إرادتهم وقدرتهم**"؛ خلافًا للقدرية القائلين بأن الله ليس خالقًا لفعل العبد ولا لإرادته وقدرته.

وكأن المؤلف يشير بهذه العبارة إلى وجه كون فعل العبد مخلوقًا لله تعالى؛ بأن فعله صادر عن قدرة وإرادة، وخالق القدرة والإرادة هو الله، وما صدر عن مخلوق فهو مخلوق.

ويشير بها أيضًا إلى كون فعل العبد اختياريًّا لا إجباريًّا لأنه صادر عن قدرة وإرادة؛ فلولا القدرة والإرادة لم يصدر منه الفعل، ولولا الإرادة لم يصدر منه الفعل، ولو كان الفعل إجباريًّا ما كان من شرطه القدرة والإرادة.

ثم استدل المؤلف لذلك، فقال: "**كما قال تعالى: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: ٢٨، ٢٩]** ".

الشرح: **{لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ}**: فيها رد على الجبرية.

**{وَمَا تَشَاءُونَ إلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ}**: رد على القدرية.

قوله: "**وَهذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ القَدَرِ يُكَذِّبُ بِها عامَّةُ القَدَرِيَّةِ، الذينَ سمَّاهُمُ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم مَجوسَ هذِهِ الأمَّةِ، وَيَغْلو فيها قَوْمٌ مِنْ أهْلِ الإثْباتِ حتَّى سَلَبوا العَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيارَهُ، وَيُخْرِجونَ عَن أفْعالِ اللهِ وَأحكامِهِ حِكَمَها وَمَصالِحَها**".

الشرح: " **وَهذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ القَدَرِ**" أي: درجة المشيئة والخلق.

"**عامة القدرية**"؛ أي: أكثرهم يكذبون بهذه الدرجة، ويقولون: إن الإنسان مستقل بعمله، وليس لله فيه مشيئة ولا خلق.

"**سماهم النبي صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الأمة**" (رواه أحمد وأبو داود وابن ابي عاصم)؛ لأن المجوس يقولون: إن للحوادث خالقين: خالقًا للخير، وخالقًا للشر! فخالق الخير هو النور، وخالق الشر هو الظلمة؛ فالقدرية يشبهون هؤلاء المجوس من وجه؛ لأنهم يقولون: إن الحوادث نوعان: حوادث من فعل الله فهذه خلق الله، وحوادث من فعل العباد فهذه للعباد استقلالًا، وليس لله تعالى فيها خلق.

"**يغلو فيها**" أي: في هذه الدرجة، "**قوم من أهل الإثبات**" أي: إثبات القدر، وهؤلاء القوم هم الجبرية؛ حيث إنهم سلبوا العبد قدرته واختياره، وقالوا: إنه مجبر على عمله؛ لأنه مكتوب عليه.

"**ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها**": وجه كونهم يخرجون الحكم والمصالح عن أفعال الله وأحكامه: أنهم لا يثبتون لله حكمة أو مصلحة؛ فهو عندهم يفعل ويحكم لمجرد مشيئة، ولهذا يثيب المطيع وإن كان مجبرًا على الفعل، ويعاقب العاصي وإن كان مجبرًا على الفعل.

ومن المعلوم أن المجبر لا يستحق الحمد على محمود، ولا الذم على مذموم؛ لأنه بغير اختياره.

وهنا مسألة يحتج بها كثير من العصاة: إذا أنكرت عليه المنكر؛ قال: هذا هو ما قدره الله عليه؛ أتعترض على الله؟! فيحتج بالقدر على معاصي الله، ويقول: أنا عبد مسير! ثم يحتج أيضًا بحديث: "تحاج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة؟! فقال له آدم: أنت موسى! اصطفاك الله بكلامه، وكتب لك التوراة بيده! أتلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ ". قال النبي عليه الصلاة والسلام: "فحج آدم موسى"؛ قالها ثلاثًا (متفق عليه). وعند أحمد: "فحجه آدم" وهي صريحة في أن آدم غلب موسى بالحجة، قال: فهذا آدم لما اعترض عليه موسى؛ احتج عليه بالقدر، وآدم نبي، وموسى رسول، فسكت موسى؛ فلماذا تحتج عليَّ؟ والجواب على هذا :

- أما على رأي القدرية؛ فإن طريقتهم أن أخبار الآحاد لا توجب اليقين، قالوا: وإذا عارضت العقل، وجب أن ترد، وبناء على ذلك قالوا: هذا لا يصح ولا نقبله ولا نسلم به.

- وأما الجبرية؛ فقالوا: إن هذا هو الدليل، ودلالته حق، ولا يلام العبد على ما قدر عليه.

- وأما أهل السنة والجماعة؛ فقالوا: إن آدم عليه الصلاة والسلام فعل الذنب، وصار ذنبه سببًا لخروجه من الجنة، لكنه تاب من الذنب، وبعد توبته اجتباه الله وتاب عليه وهداه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ومن المحال أن موسى عليه الصلاة والسلام - وهو أحد أولي العزم من الرسل- يلوم أباه على شيء تاب منه ثم اجتباه الله بعده وتاب عليه وهداه، وإنما اللوم على المصيبة التي حصلت بفعله، وهي إخراج الناس ونفسه من الجنة، فإن سبب هذا الإخراج هو معصية آدم، على أن آدم عليه الصلاة والسلام لا شك أنه لم يفعل هذا ليخرج من الجنة حتى يلام؛ فكيف يلومه موسى؟!.

وهذا وجه ظاهر في أن موسى عليه السلام لم يرد لوم آدم على فعل المعصية، وإنما على المصيبة التي هي من قدر الله، وحينئذ يتبين أنه لا حجة بهذا الحديث للجبرية.

فنحن نقبله ولا ننكره كما فعل القدري، ولكننا لا نحتج به على المعصية، كما فعل الجبري.

إذًا؛ لا حجة للجبري بهذا الحديث، ولا للعصاة الذين يحتجون بهذا الحديث لاحتجاجهم بالقدر ونقول لهم: إن احتجاجكم بالقدر على المعاصي يبطله السمع والعقل والواقع:

- أما السمع؛ فقد قال الله تعالى: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا} [الأنعام: ١٤٨]؛ قالوا ذلك احتجاجًا بالقدر على المعصية، فقال الله تعالى: {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}؛ يعني: كذبوا الرسل واحتجوا بالقدر {حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا}، وهذا يدل على أن حجتهم باطلة؛ إذ لو كانت حجة مقبولة؛ ما ذاقوا بأس الله.

- ودليل سمعي آخر: قال الله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} [النساء: ١٦٣] إلى قوله: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء: ١٦٥]، ووجه الدلالة من هذه الآية أنه لو كان القدر حجة؛ ما بطلت بإرسال الرسل، وذلك لأن القدر لا يبطل بإرسال الرسل، بل هو باق.

فإذا قال قائل: يرد عليك في الدليل الأول قول الله تبارك وتعالى في سورة الأنعام: {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إلا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} [الأنعام: ١٠٦ - ١٠٧]؛ فهنا قال الله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا}؛ فنقول: إن قول الإنسان عن الكفار: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا}: قول صحيح وجائز، لكن قول المشرك: {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا

أَشْرَكْنَا} [الأنعام: ١٤٨]؛ يريد أن يحتج بالقدر على المعصية قول باطل، والله عزَّ وجلَّ إنما قال لرسوله هكذا تسلية له وبيانًا أن ما وقع فهو بمشيئة الله.

- وأما الدليل العقلي على بطلان احتجاج العاصي بالقدر على معصية الله أن نقول له: ما الذي أعلمك بأن الله قدر لك أن تعصيه قبل أن تعصيه؟ فنحن جميعًا لا نعلم ما قدر الله إلا بعد أن يقع، أما قبل أن يقع فلا ندري ماذا يراد بنا؛ فنقول للعاصي: هل عندك علم قبل أن تمارس المعصية أن الله قدر لك المعصية؟ سيقول: لا. فنقول: إذًا؛ لماذا لم تقدر أن الله قدر لك الطاعة وتطع الله؛ فالباب أمامك مفتوح؛ فلماذا لم تدخل من الباب الذي تراه مصلحة لك؛ لأنك لا تعلم ما قدر لك، واحتجاج الإنسان بحجة على أمر فعله قبل أن تتقدم حجته على فعله احتجاج باطل؛ لأن الحجة لا بد أن تكون طريقًا يمشي به الإنسان؛ إذ إن الدليل يتقدم المدلول.

ونقول له أيضًا: ألست لو ذكر لك أن لمكة طريقين أحدهما طريق معبد آمن، والثاني طريق صعب مخوف؛ ألست تسلك الآمن؟ سيقول: بلى. فنقول: إذًا؛ لماذا تسلك في عبادتك الطريق المخوف المحفوف بالأخطار، وتدع الطريق الآمن الذي تكفل الله تعالى بالأمن لمن سلكه؛ فقال: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ} [الأنعام: ٨٢]، وهذه حجة واضحة.

ونقول له: لو أعلنت الحكومة عن وظيفتين: إحداهما بالمرتبة العالية، والثانية بالمرتبة السفلى؛ فأيهما تريد؟ بلا شك ستريد المرتبة العالية، وهذا يدل على أنك تأخذ بالأكمل في أمور دنياك؛ فلماذا لم تأخذ بالأكمل في أمور دينك؟! وهل هذا إلا تناقض منك؟!

وبهذا يتبين أنه لا وجه أبدًا لاحتجاج العاصي بالقدر على معصية الله عزَّ وجلَّ.

## فصل في الإيمان

قوله: "**فَصْلٌ: وَمِنْ أصولِ أهْلِ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ أنَّ الدِّينَ وَالإيمانَ قَولٌ وَعَمَلٌ، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح**".

الشرح: "**الدين**": هو ما يدان به الإنسان، أو يدين به؛ فيطلق على العمل كما في قوله تعالى: {وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣]؛ أي: عملًا تتقربون به إلى الله.

ويطلق على الجزاء: كما في قوله تعالى: {ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} [الانفطار: ١٨، ١٩]؛ أي يوم الجزاء.

ويقال: كما تَدينُ تُدان؛ أي: كما تعمل تجازى، والمراد بالدين في كلام المؤلف هنا: العمل.

وأما "**الإيمان**": فهو الإقرار، ولا إقرار إلا بتصديق؛ هذا في اللغة، وأما في الشرع؛ فقال المؤلف: "**قول وعمل**" وهذا إجمال فصله بقوله: "**قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح**" فجعل المؤلف للقلب قولًا وعملًا، وجعل للسان قولًا وعملًا:

- أما قول اللسان؛ فالأمر فيه واضح، وهو النطق، وأما عمله فحركاته، وليست هي النطق، بل النطق ناشئ عنها إن سلمت من الخرس.

- وأما قول القلب؛ فهو اعترافه وتصديقه، وأما عمله فهو عبارة عن تحركه وإرادته؛ مثل الإخلاص في العمل؛ فهذا عمل قلب، وكذلك التوكل والرجاء والخوف؛ فالعمل ليس مجرد الطمأنينة في القلب، بل هناك حركة في القلب.

- وأما عمل الجوارح؛ فواضح كالركوع، والسجود، والقيام، والقعود، فيكون عمل الجوارح إيمانًا شرعًا؛ لأن الحامل لهذا العمل هو الإيمان.

فإذا قال قائل: أين الدليل على أن الإيمان يشمل هذه الأشياء؟

قلنا: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره" (رواه مسلم)؛ فهذا قول القلب.

أما عمل القلب واللسان والجوارح؛ فدليله قول النبي صلى الله عليه وسلم: "الإيمان بضع وسبعون شعبة: أعلاها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان" (رواه مسلم)؛ فهذا قول اللسان وعمله وعمل الجوارح، والحياء عمل قلبي وهو انكسار يصيب الإنسان ويعتريه عند وجود ما يستلزم الحياء، فتبين بهذا أن الإيمان يشمل هذه الأشياء كلها شرعًا.

ويدل لذلك أيضًا قوله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [البقرة: ١٤٣]؛ قال المفسرون: أي: صلاتكم إلى بيت المقدس؛ فسمى الله تعالى الصلاة إيمانًا؛ مع أنها عمل جوارح وعمل قلب وقول لسان، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة.

وشموله لهذه الأشياء الأربعة لا يعني أنه لا يتم إلا بها، بل قد يكون الإنسان مؤمنًا مع تخلف بعض الأعمال، لكنه ينقص إيمانه بقدر ما نقص من عمله.

وخالف أهلَ السنة في هذا طائفتان بدعيتان متطرفتان:

الطائفة الأولى: المرجئة: يقولون: إن الإيمان هو الإقرار بالقلب، وما عدا ذلك؛ فليس من الإيمان!! ولهذا كان الإيمان لا يزيد ولا ينقص عندهم؛ لأنه إقرار القلب، والناس عندهم فيه سواء فالإنسان الذي يعبد الله آناء الليل والنهار كالذي يعصي الله آناء الليل والنهار، ما دامت معصيته لا تخرجه من الدين! فلو وجدنا رجلًا يزني ويسرق ويشرب الخمر ويعتدي على الناس، ورجلًا آخر متقيًا لله بعيدًا عن هذه الأشياء كلها؛ لكانا عند المرجئة في الإيمان والرجاء سواء؛ كل منهما لا يعذب لأن الأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان.

الطائفة الثانية: الخوارج والمعتزلة؛ قالوا: إن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، وأنها شرط في بقائه، فمن فعل معصية من الكبائر خرج من الإيمان.

لكن الخوارج يقولون: إنه كافر، والمعتزلة يقولون: هو في منزلة بين منزلتين؛ فلا نقول: مؤمن، ولا نقول: كافر، بل نقول: خرج من الإيمان، ولم يدخل في الكفر، وصار في منزلة بين منزلتين.

قوله: "**وَأَنَّ الإيمانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالمَعْصِيَةِ**".

الشرح: أي: أن من أصول أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص، ويستدلون لذلك بأدلة من الكتاب والسنة:

- فمن الكتاب: قوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [التوبة: ١٢٤]، وقوله تعالى: {لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} [المدثر: ٣١]، وهذا صريح في ثبوت الزيادة.

- وأما النقص؛ فقد ثبت في "الصحيحين" أن النبي صلى الله عليه وسلم وعظ النساء وقال لهن: "ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن"؛ فأثبت نقص الدين، ثم لو فرض أنه لم يوجد نص في ثبوت النقص؛ فإن إثبات الزيادة مستلزم للنقص؛ فنقول: كل نص يدل على زيادة الإيمان؛ فإنه متضمن للدلالة على نقصه.

وأسباب زيادة الإيمان أربعة:

الأول: معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته؛ فإنه كما ازداد الإنسان معرفة بالله وأسمائه وصفاته؛ ازداد إيمانه.

الثاني: النظر في آيات الله الكونية والشرعية: قال الله تعالى:{أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[الغاشية:١٧-٢٠]، وقال تعالى:{قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس:١٠١].

الثالث: كثرة الطاعات وإحسانها، لأن الأعمال داخلة في الإيمان، وإذا كانت داخلة فيه؛ لزم من ذلك أن يزيد بكثرتها.

السبب الرابع: ترك المعصية تقربًا إلى الله عزَّ وجلَّ، فإن الإنسان يزداد بذلك إيمانًا بالله عزَّ وجلَّ.

وأسباب نقص الإيمان أربعة:

الأول: الإعراض عن معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته.

الثاني: الإعراض عن النظر في الآيات الكونية والشرعية؛ فإن هذا يوجب الغفلة وقسوة القلب.

الثالث: قلة العمل الصالح، ويدل لذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم في النساء: "ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للُبِّ الرجل الحازم من إحداكن". قالوا: يا رسول الله! كيف نقصان دينها؟ قال: "أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟ " (متفق عليه).

الرابع: فعل المعاصي؛ لقوله تعالى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [المطففين: ١٤].

وخالف أهلَ السنة والجماعة في القول بالزيادة والنقصان طائفتان:

الطائفة الأولى: المرجئة: قالوا: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص؛ لأن الأعمال ليست من الإيمان، حتى يزيد بزيادتها وينقص بنقصانها؛ فالإيمان هو إقرار القلب، والإقرار لا يزيد ولا ينقص.

ونحن نرد عليهم فنقول:

أولًا: إخراجكم الأعمال من الإيمان ليس بصحيح؛ فإن الأعمال داخلة في الإيمان، وقد سبق ذكر الدليل.
ثانيًا: قولكم: إن الإقرار بالقلب لا يختلف زيادة ونقصًا: ليس بصحيح، بل الإقرار بالقلب يتفاضل، فلا يمكن لأحد أن يقول: إن إيماني كإيمان أبي بكر!! بل يتعدى ويقول: إن إيماني كإيمان الرسول عليه الصلاة والسلام!!

ثم نقول: إن الإقرار بالقلب يقبل التفاضل؛ فإقرار القلب بخبر الواحد ليس كإقراره بخبر اثنين، وإقراره بما سمع ليس كإقراره بما شاهد؛ ألم تسمعوا قول إبراهيم: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة: ٢٦٠]؛ فهذا دليل على أن الإيمان الكائن في القلب يقبل الزيادة والنقص.

الطائفة الثانية: الوعيدية، وهم الخوارج والمعتزلة، وسموا وعيدية، لأنهم يقولون بأحكام الوعيد دون أحكام الوعد؛ أي: يغلبون نصوص الوعيد على نصوص الوعد، فيخرجون فاعل الكبيرة من الإيمان، لكن الخوارج يقولون: إنه خارج من الإيمان داخل في الكفر، والمعتزلة يقولون: خارج من الإيمان غير داخل في الكفر، بل هو في منزلة بين منزلتين.

قوله: "**وَهُمْ مَعَ ذلِكَ لا يُكَفِّرونَ أَهْلَ القِبْلَةِ بِمُطْلَقِ المَعاصي وَالكَبائِرِ كما يفعل الخوارج بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي كَمَا قالَ سُبْحانَهُ في آيَةِ القِصاصِ: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ} [البقرة: ١٧٨]** ".

الشرح: أي: وهم مع قولهم: إن الإيمان قول وعمل لا يُكَفِّرونَ أَهْلَ القِبْلَةِ . وهم المسلمون . وإن كانوا عصاة؛ بمطلق المعاصي والكبائر.

وتأمل قول المؤلف: "**بمطلق المعاصي**"، ولم يقل: بالمعاصي والكبائر؛ لأن المعاصي منها ما يكون كفرًا، وأما مطلق المعصية؛ فلا يكون كفرًا.

"**كما يفعله الخوارج**"؛ يعني: الذين يقولون: إن فاعل الكبيرة كافر، ولهذا خرجوا على المسلمين، واستباحوا دماءهم وأموالهم.

"**بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي**"؛ يعني: أن الأخوة بين المؤمنين ثابتة! ولو مع المعصية؛ فالزاني أخ للعفيف، والسارق أخ للمسروق منه، والقاتل أخ للمقتول.

**{فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ...الآية }**، والمراد بـ {أَخِيهِ} هو المقتول، ووجه الدلالة من هذه الآية على أن فاعل الكبيرة لا يكفر أن الله سمى المقتول أخًا للقاتل، مع أن قتل المؤمن كبيرة من كبائر الذنوب.

قوله : "**وقال: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} [الحجرات: ٩، ١٠]** ".

الشرح: وهذا دليل آخر لقول أهل السنة: إن فاعل الكبيرة لا يخرج من الإيمان، فهاتان الطائفتان من المؤمنين اقتتلوا، وحمل السلاح بعضهم على بعض، وقتال المؤمن للمؤمن كفر، ومع هذا قال الله تعالى بعد أن أمر بالصلح بينهما للطائفة الثالثة التي لم تدخل القتال {فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: ٩، ١٠]؛ فجعل الله تعالى الطائفة المصلحة إخوة للطائفتين المقتتلتين.

وعلى هذا؛ ففي الآية دليل على أن الكبائر لا تخرج من الإيمان، وعلى هذا فلو مررت بصاحب كبيرة فسلّم عليه لأن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر من حقوق المسلم على المسلم: "إذا لقيته، فسلم عليه" (متفق عليه)، وهذا الرجل ما زال مسلمًا، فسلم عليه إلا إذا كان في هجره مصلحة فحينئذ أهجره للمصلحة؛ كما جرى لكعب بن مالك وصاحبيه الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فهجرهم المسلمون خمسين ليلة حتى تاب الله عليهم (متفق عليه)، وهل نحبه على سبيل الإطلاق أو نكرهه على سبيل الإطلاق؟

نقول: لا هذا ولا هذا، وإنما نحبه بما معه من الإيمان، ونكرهه بما معه من المعاصي، وهذا هو العدل.

قوله: **"ولا يسلبون الفاسق المِلِّي الإسلام بالكلية ولا يخلدونه في النار كما تقول المعتزلة".**

الشرح: **"الفاسق"**: هو الخارج عن الطاعة، والفاسق الملي: هو من فعل كبيرة، أو أصر على صغيرة، ولهذا قال المؤلف: **"المِلِّي"**؛ يعني: المنتسب إلى الملة الذي لم يخرج منها، فأهل السنة والجماعة لا يسلبون الفاسق الملي الإسلام بالكلية؛ فلا يمكن أن يقولوا: إن هذا ليس بمسلم، لكن يمكن أن يقولوا: إن هذا ناقص الإسلام أو ناقص الإيمان، **"ولا يخلدونه في النار كما تقول المعتزلة"**: الذين يسلبونه الإسلام ويخلدونه في النار، وإن كانوا لا يطلقون عليه الكفر.

وقوله رحمه الله: **"بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} [النساء: ٩٢]، وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق ".**

الشرح: فإن المؤمنة هنا يدخل فيه الفاسق، فلو أن إنسانًا اشترى رقيقًا فاسقًا وأعتقه في كفارة؛ أجزأه؛ مع أن الله قال: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ}؛ فكلمة {مُؤْمِنَةٍ} تشمل الفاسق وغيره.

**"وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق"** أي: في مطلق اسم الإيمان، كما في قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [الأنفال: ٢] "؛ ف {إِنَّمَا} أداة حصر؛ يعني: ما المؤمنون إلا هؤلاء، والمراد بالمؤمنين يعني: ذوي الإيمان المطلق الكامل، فلا يدخل في المؤمنين هنا الفساق؛ لأن الفاسق لو تلوت عليه آيات الله ما زادته إيمانًا، ولو ذكرت الله له؛ لم يَوْجَل قلبه.

فبين المؤلف أن الإيمان قد يراد به مطلق الإيمان، وقد يراد به الإيمان المطلق، فإذا رأينا رجلًا: إذا ذكر الله لم يوجل قلبه، وإذا تليت عليه آياته لم يزدد إيمانًا؛ فيصح أن نقول: إنه مؤمن، ويصح أن نقول: ليس بمؤمن؛ فنقول: مؤمن أي: معه مطلق الإيمان يعني: أصله، وليس بمؤمن أي: ليس معه الإيمان الكامل.

قوله: **"وقوله صلى الله عليه وسلم: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن" (متفق عليه).**

الشرح: هذا مثال ثان للإيمان الذي يراد به الإيمان المطلق، أي: الكامل. فقوله صلى الله عليه وسلم: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن": هنا نفى عنه الإيمان الكامل حين زناه، أما بعد أن يفرغ من الزنى؛ فقد

يؤمن؛ فقد يلحقه الخوف من الله بعد أن يتم الزنى فيتوب، لكن حين إقدامه على الزنى لو كان عنده إيمان كامل ما أقدم عليه، بل إيمانه ضعيف جدًّا حين أقدم عليه.

وتأمل قوله: "حين يزني": احترازًا من أنه قبل الزنى وبعده تختلف حاله، لأن الإنسان ما دام لم يفعل الفاحشة ولو هم بها، فهو على أمل ألا يقدم عليها.

**"ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن"**، أي: كامل الإيمان، لأن الإيمان يردعه عن سرقته.

**"ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن"**، أي: كامل الإيمان.

**"ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم"**: "ذات شرف"، أي: ذات قيمة عند الناس، ولهذا يرفعون إليه أبصارهم؛ فلا ينتهبها حين ينتهبها وهو مؤمن أي: كامل الإيمان، فهذه أربعة أشياء لا يفعلها أحد وهو مؤمن بالله حين فعله لها، والمراد بنفي الإيمان هنا: نفي تمام الإيمان. وقوله رحمه الله: **"ونقول: هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يعطى الاسم المطلق، ولا يسلب مطلق الاسم"**.

الشرح: هذا بيان للوصف الذي يستحقه الفاسق الملي عند أهل السنة والجماعة، والفرق بين مطلق الشيء والشيء المطلق: أن الشيء المطلق هو الشيء الكامل، ومطلق الشيء يعني: أصل الشيء وإن كان ناقصًا، فالفاسق المِلِّي لا يعطى الاسم المطلق في الإيمان وهو الاسم الكامل، ولا يسلب مطلق الاسم فلا نقول: ليس بمؤمن، بل نقول: مؤمن ناقص الإيمان، أو: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو المذهب العدل الوسط، وخالفهم في ذلك طوائف:

- المرجئة، يقولون: مؤمن كامل الإيمان.

- والخوارج، يقولون: كافر.

- والمعتزلة، يقولون: في منزلة بين منزلتين.

وقد تقدم الرد عليهم جميعا بما فيه الكفاية.

## فصل: في موقف أهل السنة والجماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

قوله: "**ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم**".

الشرح: أي: ومن أسس عقيدة أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم ولم يقل: وأفعالهم؛ لأن الأفعال متعذرة بعد موت الصحابة، حتى لو فرض أن أحدًا نبش قبورهم وأخرج جثثهم؛ فإن ذلك لا يؤذيهم ولا يضرهم، لكن الذي يمكن أن يكون بعد موت الصحابة نحوهم هو ما يكون في القلب وما ينطق به اللسان.

فمن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم من البغض والغل والحقد والكراهة، وسلامة ألسنتهم من كل قول لا يليق بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإذا سلمت من هذا ملئت من الثناء عليهم والترضي عنهم والترحم والاستغفار وغير ذلك، وذلك للأمور التالية:

أولًا: أنهم خير القرون في جميع الأمم، كما صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم" (متفق عليه).

ثانيًا: أنهم هم الواسطة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أمته؛ فمنهم تلقت الأمة عنه الشريعة.
ثالثًا: ما كان على أيديهم من الفتوحات الواسعة العظيمة.

رابعًا: أنهم نشروا الفضائل بين هذه الأمة من الصدق والنصح والأخلاق والآداب التي لا توجد عند غيرهم، ولا يعرف هذا من كان يقرأ عنهم من وراء جدر، بل لا يعرف هذا إلا من عاش في تاريخهم وعرف مناقبهم وفضائلهم وإيثارهم واستجابتهم لله ولرسوله.

فنحن نُشْهِد الله عزَّ وجلَّ على محبة هؤلاء الصحابة، ونثني عليهم بألسنتنا بما يستحقون، ونبرأ من طريقين ضالين: طريق الروافض الذين يسبون الصحابة ويغلون في آل البيت، ومن طريق النواصب الذين يبغضون آل البيت، ونرى أن لآل البيت إذا كانوا صحابة ثلاثة حقوق: حق الصحبة، وحق الإيمان، وحق القرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم استدل المؤلف رحمه الله لموقف أهل السنة بقوله: "**كما وصفهم الله به في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: ١٠]** ".

الشرح: هذه الآية بعد آيتين سابقتين هما قوله تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحشر: ٨]، وعلى رأس هؤلاء المهاجرين أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، ففي قوله: {يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا}: إخلاص النية، وفي قوله: {وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}: تحقيق العمل، وقوله: {أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} أي: لم يفعلوا ذلك رياء ولا سمعة، ولكن عن صدق نية.

ثم قال في الأنصار: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر: ٩]؛ فوصفهم الله بأوصاف ثلاث: {يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ}، {وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا} {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}.

ثم قال تعالى بعد ذلك: {**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ**} الآية [الحشر: ١٠]:، وهم التابعون لهم بإحسان وتابعوهم إلى يوم القيامة؛ فقد أثنوا عليهم بالأخوة، وبأنهم سبقوهم بالإيمان، وسألوا الله أن لا يجعل في قلوبهم غلًّا لهم؛ فكل من خالف في ذلك وقدح فيهم ولم يعرف لهم حقهم؛ فليس من هؤلاء الذين قال الله عنهم: {**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا**}.

ولما سئلت عائشة رضي الله عنها عن قوم يسبون الصحابة؛ قالت: لا تعجبون! هؤلاء قوم انقطعت أعمالهم بموتهم، فأحب الله أن يجري أجرهم بعد موتهم (جامع الأصول)!!

وقوله: {**وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا**} ولم يقل: للذين سبقونا بالإيمان؛ ليشمل هؤلاء السابقين وغيرهم إلى يوم القيامة. {**رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**}: ولرأفتك ورحمتك نسألك المغفرة لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان.

قوله: **"وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: "لا تسبوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده؛ لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا؛ ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه" (متفق عليه) ".**

الشرح: **"السب"**: هو القدح والعيب؛ فإن كان في غيبة الإنسان؛ فهو غيبة.

**"أصحابي"**؛ أي: الذين صحبوه صلى الله عليه وسلم، وصحبة النبي صلى الله عليه وسلم تنقسم إلى قسمين: صحبة قديمة قبل الفتح، وصحبة متأخرة بعد الفتح، والرسول عليه الصلاة والسلام كان يخاطب بهذا خالد بن الوليد ـ ممن أسلم بعد الفتح ـ حين حصل بينه وبين عبد الرحمن بن عوف ـ ممن أسلم قبل الفتح ـ ما حصل من المشاجرة في بني جذيمة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخالد: "لا تسبوا أصحابي"، ولا شك أن عبد الرحمن بن عوف وأمثاله أفضل من خالد بن الوليد رضي الله عنه من حيث سبقهم إلى الإسلام، لهذا قال: "لا تسبوا أصحابي"؛ يخاطب خالد بن الوليد وأمثاله، وإذا كان هذا بالنسبة لخالد بن الوليد وأمثاله؛ فما بالك بالنسبة لمن بعدهم، والعبرة بعموم اللفظ.

وهذا النهي يقتضي التحريم؛ فلا يحل لأحد أن يسب الصحابة على العموم، ولا أن يسب واحدًا منهم على الخصوص؛ فإن سبهم على العموم، كان كافرًا، بل لا شك في كفر من شك في كفره، أما إن سبهم على سبيل الخصوص؛ فينظر في الباعث لذلك؛ فقد يسبهم من أجل أشياء خَلْقية أو خُلُقية أو دينية، ولكل واحد من ذلك حكمه.

**"أحد"**: جبل عظيم كبير معروف في المدينة. **والمد**: ربع الصاع، **"ولا نصيفه"**؛ أي: نصفه، ونسبة المد أو نصف المد من الذهب إلى جبل أحد من الذهب لا شيء.

فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم لهم من الفضائل والمناقب والإخلاص والاتباع ما ليس لغيرهم؛ فلإخلاصهم العظيم، واتباعهم الشديد، كانوا أفضل من غيرهم فيما ينفقون.

قوله: **"ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم".**

الشرح: الفضائل: جمع فضيلة، وهو ما يفضل به المرء غيره ويعد منقبة له، والمراتب: الدرجات؛ لأن الصحابة درجات ومراتب؛ وأهل السنة والجماعة يقبلون ذلك:

– فمثلًا يقبلون ما جاء عنهم من كثرة صلاة أو صدقة أو صيام أو حج أو جهاد أو غير ذلك من الفضائل.

– ويقبلون مثلًا ما جاء في أبي بكر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم حث على الصدقة، فجاء أبو بكر بجميع ماله (رواه أبو داود والترمذي)، وهذه فضيلة.

– ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة من أن أبا بكر رضي الله عنه كان وحده صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في هجرته في الغار.

– ويقبلون ما جاء به النص من قول الرسول عليه الصلاة والسلام في أبي بكر: "إن من أمن الناس علي في ماله وصحبته أبو بكر" (متفق عليه).

– وكذلك ما جاء في عمر وفي عثمان وفي علي رضي الله عنهم، وما جاء في غيرهم من الصحابة من الفضائل؛ يقبلون هذا كله.

– وكذلك المراتب، فيقبلون ما جاء في مراتبهم؛ فالخلفاء الراشدون هم القمة في هذه الأمة في المرتبة، وأعلاهم مرتبة أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي؛ كما سيذكره المؤلف.

قوله: **"ويفضلون من أنفق من قبل الفتح – وهو صلح الحديبية – وقاتل، على من أنفق من بعد وقاتل"**.

الشرح: ودليل ذلك قوله تعالى: {لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} [الحديد: ١٠].

فالذين أسلموا وأنفقوا وقاتلوا قبل صلح الحديبية أفضل من الذين أسلموا وأنفقوا من بعد وقاتلوا، وكان صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة في ذي القعدة.

فإذا قال قائل: كيف نعرف ذلك؟

فالجواب: أن ذلك يعرف بتاريخ إسلامهم؛ كأن نرجع إلى "الإصابة في تمييز الصّحابة" لابن حجر أو "الاستيعاب في معرفة الأصحاب" لابن عبد البر أو غير ذلك من الكتب المؤلفة في الصّحابة رضي الله عنهم، ويعرف أن هذا أسلم من قبل أو أسلم من بعد.

وقول المؤلف: "**وهو صلح الحديبية**": هذا أحد القولين في الآية، وهو الصَّحيح، ودليله قصة خالد مع عبد الرحمن بن عوف، وقول البراء بن عازب: تعدون أنتم الفتح فتح مكّة، وقد كان فتح مكّة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية. (رواه البُخاري).

- وقيل: المراد فتح مكّة، وهو قول كثير من المفسرين أو أكثرهم.

قوله: "**ويقدمون المهاجرين على الأنصار**".

الشرح: "**المهاجرون**": هم الذين هاجروا إلى المدينة في عهد النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قبل فتح مكّة، و"**الأنصار**": هم الذين هاجر إليهم النَّبيُّ صَلَّى الله عليه وسلم في المدينة.

وأهل السنة يقدمون المهاجرين على الأنصار لأنَّ المهاجرين جمعوا بين الهجرة والنصرة، والأنصار أتوا بالنصرة فقط.

- فالمهاجرون تركوا أهلهم وأموالهم، وتركوا أوطانهم، وخرجوا إلى أرض هم فيها غرباء؛ كل ذلك هجرة إلى الله ورسوله، ونصرة لله ورسوله.

- والأنصار أتاهم النَّبيُّ صَلَّى الله عليه وسلم في بلادهم، ونصروا النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، ولا شك أنهم منعوه ممَّا يمنعون منه أبناءهم ونساءهم.

ودليل تقديم المهاجرين: قوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [التوبة: ١٠٠]؛ فقدم المهاجرين على الأنصار، وقوله: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ} [التوبة: ١١٧]؛ فقدم المهاجرين، وقوله في الفيء: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ. . .} [الحشر: ٨]، ثم قال: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [الحشر: ٩].

قوله رحمه الله: "**ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر -وكانوا ثلاث مئة وبضعة عشر-: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم**".

الشرح: أهل بدر مرتبتهم من أعلى مراتب الصّحابة، وبدر مكان معروف كانت فيه الغزوة المشهورة، وكانت في السنة الثَّانية من الهجرة في رمضان، وسمى الله تعالى يومها يوم الفرقان، وأهل بدر الذين جعل الله على

أيديهم ذلك النصر المبين والفرقان الذي هاب العربُ به رسولَ الله صَلَّى الله عليه وسلم وأصحابه، وكان لهم منزلة عظيمة بعد هذا النصر اطلع الله عليهم، وقال: "اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم" (متفق عليه)؛ فكل ما يقع منهم من ذنوب أو كبائر مهما عظمت فإنَّها مغفورة لهم؛ بسبب هذه الحسنة العظيمة الكبيرة التي جعلها الله تعالى على أيديهم.

قوله: **"وبأنه لا يدخل النَّار أحد بايع تحت الشجرة؛ كما أخبر به النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم، بل لقد رضي الله عنهم ورضوا عنه، وكانوا أكثر من ألف وأربع مئة" (متفق عليه)**.

الشرح: أصحاب الشجرة هم أصحاب بيعة الرضوان وهم الذين قال الله عنهم: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [الفتح: ١٨ - ١٩]، فوصفهم الله تعالى بالإيمان وهذه شهادة من الله عزَّ وجلَّ بأن كل من بايع تحت الشجرة؛ فهو مؤمن مرضي عنه، والنبي عليه الصَّلاة والسلام قال: "لا يدخل النَّار أحد بايع تحت الشجرة"؛ فالرضى ثابت بالقرآن، وانتفاء دخول النَّار ثبت بالسنة.

قوله: **"ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم كالعشرة، وثابت بن قيس بن شماس، وغيرهم من الصّحابة"**.

الشرح: الشهادة بالجنة نوعان:

النوع الأول: شهادة معلقة بوصف: وهي أن نشهد لكل مؤمن أنَّه في الجنة، وكل متق أنَّه في الجنة؛ بدون تعيين شخص أو أشخاص، وهذه شهادة عامة يجب علينا أن نشهد بها؛ لأنَّ الله تعالى أخبر به، فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [لقمان: ٨ - ٩]، وقال: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١٣٣].

النوع الثاني: شهادة معلقة بشخص معين: وهي أن نشهد لفلان أو لعدد معين أنهم في الجنة، وهذه شهادة خاصة؛ فنشهد لمن شهد له الرسول صَلَّى الله عليه وسلم؛ سواء شهد لشخص معين واحد أو لأشخاص معينين، مثال ذلك ما ذكره المؤلف بقوله: **"كالعشرة"**؛ يعني بهم: العشرة المبشرين بالجنة؛ ولقبوا بهذا الاسم لأنَّ النَّبيَّ صَلَّى الله عليه وسلم جمعهم في حديث واحد، وهم: الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان،

وعلي، وسعيد بن زيد، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، وانظر تراجمهم في المطولات، وقد جمع الستة الزائدون عن الخلفاء الأربعة في بيت واحد؛ فاحفظه:

سَعيدٌ وَسَعْدٌ وَابْنُ عَوْفٍ وَطَلْحَةٌ ... وَعامِرُ فِهْرٍ وَالزُّبَيْرُ المُمَدَّحُ

هؤلاء بشرهم النَّبيُّ صَلَّى الله عليه وسلم في نسق واحد، فقال: "أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة ...إلخ" (رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه)، ولهذا لقبوا بهذا اللقب؛ فيجب أن نشهد أنهم في الجنة لشهادة النَّبيِّ صَلَّى الله عليه وسلم بذلك.

"**وثابت بن قيس بن شماس**": ثابت بن قيس رضي الله عنه أحد خطباء النَّبيِّ صَلَّى الله عليه وسلم، كان جهوري الصوت، فلما نزل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الحجرات: ٢]؛ خاف أن يكون حبط عمله وهو لا يشعر، فاختفى في بيته، ففقده النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسلام، فبعث إليه رجلًا يسأله عن اختفائه فقال: إن الله أنزل قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ}، وأنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم حبط عملي، أنا من أهل النَّار!! فأتى الرجل إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، فأخبره بما قال ثابت، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: "اذهب إليه؛ فقل له إنك لست من أهل النَّار، ولكنك من أهل الجنة" (متفق عليه)؛ فبشره النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بالجنة.

"**وغيرهم من الصّحابة**": مثل أمهات المؤمنين؛ لأنهن في درجة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنهم: بلال، وعبد الله بن سلام، وعكاشة بن محصن، وسعد بن معاذ، رضي الله عنهم أجمعين.

قوله: "**ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره؛ من أن خير هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر، ثم عمر**".

الشرح: **التواتر**: خبر يفيد العلم اليقيني، وهو الذي نقله طائفة لا يمكن تواطؤهم على الكذب، ففي "صحيح البُخاريّ" وغيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: كُنَّا نخير بين النَّاس في زمن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم؛ فنخير أبا بكر، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفَّان.

وفي "صحيح البُخاريّ" أيضًا أن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: أي النَّاس خير بعد رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم؟ قال: أبو بكر. قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر. وخشيت أن يقول: عثمان؛ قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلَّا رجل من المسلمين.

فإذا كان علي رضي الله عنه يقول وهو في زمن خلافته: إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر؛ فقد اندحضت حجة الرافضة الذين فضلوه عليهما.

"**وغيره**" يعني: غير علي رضي الله عنه من الصّحابة والتابعين، وهذا متَّفقٌ عليه بين الأئمة: كما قال الإمام مالك: ما رأيت أحدًا يشك في تقديمهما، وقال الإمام الشَّافعي: لم يختلف الصحابة والتابعون في تقديم أبي بكر وعمر.

ومن خرج عن هذا الإجماع؛ فقد اتبع غير سبيل المؤمنين.

قوله: "**ويثلثون بعثمان، ويربعون بعلي؛ رضي الله عنهم؛ كما دلت عليه الآثار، وكما أجمع الصّحابة على تقديم عثمان في البيعة** ".

الشرح: "**يثلِّثون**" أي: يجعلون عثمان هو الثالث، "**ويربِّعون بعلي**"؛ أي: يجعلون عليًّا هو الرابع، وعلى هذا فأفضل هذه الأمة هؤلاء الأربعة: أبو بكر، ثم عمر، وهذا بالإجماع، ثم عثمان، ثم علي، ثم استدل المؤلف لهذا التَّرتيب بدليلين:

الأول: قوله: "**كما دلت عليه الآثار**": وقد سبق ذكر شيء منها.

والثاني: قوله: "**وكما أجمع الصّحابة على تقديم عثمان في البيعة**": فصار في تقديم عثمان على علي رضي الله عنهما آثار نقلية، وفيه أيضًا دليل عقلي، وهو إجماع الصّحابة على تقديم عثمان في البيعة؛ فإن إجماعهم على ذلك يستلزم أن عثمان أفضل من علي، وهو كذلك؛ لأنَّ حكمة الله عزَّ وجلَّ تأبى أن يولِّي على خير القرون رجلًا وفيه من هو أفضل منه؛ كما جاء في الأثر: "كما تكونون يولَّى عليكم"، فخير القرون لا يولِّي الله عليهم إلَّا من هو خيرهم.

قوله: **"مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما بعد اتفاقهما على تقديم أبي بكر وعمر، أيهما أفضل؟ فقدم قوم عثمان، وسكتوا، أو ربعوا بعلي، وقدم قوم عليًّا، وقوم توقفوا"**.

الشرح: فالآراء أربعة:

الرأي الأول: وهو المشهور: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي.

الرأي الثَّاني: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم السكوت.

الرأي الثالث: أبو بكر، ثم عمر، ثم علي، ثم عثمان.

الرأي الرابع: أبو بكر، ثم عمر، ثم نتوقف أيهما أفضل: عثمان أو علي؛ فهم يقولون: لا نقول: عثمان أفضل، ولا علي أفضل، لكن لا نرى أحدًا يتقدم على عثمان وعلي في الفضيلة بعد أبي بكر وعمر، وكل هذه الآراء لأهل السنة.

قال المؤلف: **"لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي"**.

الشرح: هذا الذي استقر عليه أمر أهل السنة؛ فقالوا: أفضل هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي؛ على ترتيبهم في الخلافة. وهو الصواب؛ كما سبق دليله.

قوله: **"وإن كانت هذه المسألة – مسألة عثمان وعلي – ليست من الأصول التي يُضَلَّل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة، لكن المسألة التي يُضَلَّل فيها مسألة الخلافة "**.

الشرح: يعني: المفاضلة بين عثمان وعلي رضي الله عنهما؛ فمن قال: إن عليًّا أفضل من عثمان؛ فلا نقول: إنه ضال، بل نقول: هذا رأي من آراء أهل السنة، ولا نقول فيه شيئًا.

**"لكن المسألة التي يُضَلَّل فيها مسألة الخلافة"**: فيجب أن نقول: الخليفة بعد نبينا في أمته أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ومن قال: إن الخلافة لعلي دون هؤلاء الثلاثة؛ فهو ضال، ومن قال: إنَّها لعلي بعد أبي بكر وعمر، فهو ضال؛ لأنَّه مخالف لإجماع الصّحابة رضي الله عنهم.

ولهذا قال المؤلف: "**وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء، فهو أضل من حمار أهله**".

الشرح: وهذا ما أجمع عليه أهل السنة في مسألة الخلافة، والذي يطعن في خلافة أحد من هؤلاء، ويقول: إنه لا يستحق الخلافة! أو: إنه أحق ممن سبقه "**فهو أضل من حمار أهله**": وعبر المؤلف بهذا التعبير لأنَّه تعبير الإمام أحمد رحمه الله، ولا شك أنَّه أضل من حمار أهله، وإنَّما ذكر الحمار لأنَّه أبلد الحيوانات على الإطلاق؛ فهو أقل الحيوانات فهمًا؛ فالطعن في خلافة أحد من هؤلاء أو في ترتيبه طعنٌ في الصّحابة جميعًا.

فيجب علينا أن نعتقد بأن الخليفة بعد رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، وأنهم في أحقية الخلافة على هذا التَّرتيب، حتَّى لا نقول: إن هناك ظلمًا في الخلافة؛ كما ادعته الرافضة حين زعموا أن أبا بكر وعمر وعثمان والصحابة كلهم ظلمة؛ لأنهم ظلموا علي بن أبي طالب؛ حيث اغتصبوا الخلافة منه.

أما من بعدهم؛ فإننا لا نستطيع أن نقول: إن كل خليفة استخلفه الله على النَّاس؛ فهو أحق بالخلافة من غيره؛ لأنَّ من بعدهم ليسوا في خير القرون، بل حصل فيهم من الظلم والانحراف والفسوق ما استحقوا به أن يولى عليهم من ليس أحق بالخلافة منهم؛ كما قال الله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأنعام: ١٢٩].

وأعلم أن التَّرتيب في الأفضلية على ما سبق لا يعني أن من فضل غيره فإنَّه يفضله في كل شيء، بل قد يكون للمفضول فضيلة لم يشاركه فيها أحد، وتميز أحد هؤلاء الأربعة أو غيرهم بميزة يفضل بها غيره لا يدل على الأفضلية المطلقة؛ فيجب التَّفريق بين الإطلاق والتقييد.

قوله: "**وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَيَتَوَلَّوْنَهُم**".

الشرح: أي: ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يحبون آل بيت رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم؛ يحبونهم لأمرين: للإيمان، وللقرابة من رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، ولا يكرهونهم أبدًا إلا من كفر منهم فإننا لا نحبه، ولو كان من أقارب الرسول عليه الصَّلاة والسلام؛ فأبو لهب عم الرسول عليه الصَّلاة والسلام لا يجوز أن نحبه بأي حال من الأحوال، بل يجب أن نكرهه لكفره ولإيذائه النَّبيّ صَلَّى الله عليه وسلم، وكذلك أبو

طالب يجب علينا أن نكرهه لكفره، لكن نحب أفعاله التي أسداها إلى الرسول عليه الصَّلاة والسلام من الحماية والذب عنه.

- ومن قرابته: فاطمة وعلي والحسن والحسين وغيرهم كالعباس بن عبد المطّلب وأبنائه، فنحن نحبهم لقرابتهم من رسول الله عليه الصَّلاة والسلام، ولإيمانهم بالله.

- ومن أهل بيته أزواجه بنص القرآن؛ قال الله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا * يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا * يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا *} [الأحزاب: ٢٨ - ٣٣]؛ فأهل البيت هنا يدخل فيهم أزواج الرسول عليه الصَّلاة والسلام بلا ريب.

وأهل السنة يحبون أهل بيته صلى الله عليه وسلم حبا شرعيا ولا ينزلونهم فوق منزلتهم، بل يتبرؤون ممن يغلون فيهم ويوصلوهم إلى حد الألوهية؛ كما فعل عبد الله بن سبأ في علي بن أبي طالب حين قال له: أنت الله! والقصة مشهورة.

ولا يقولون كما قال الرافضة: كل من أحب أبا بكر وعمر؛ فقد أبغض عليًّا!! وعلى هذا ـ فعندهم ـ لا يمكن أن نحب عليًّا حتَّى نبغض أبا بكر وعمر!! وكأن أبا بكر وعمر أعداء لعلي بن أبي طالب!! مع أنَّه قد تواتر النقل عن علي أنَّه كان يثني عليهما على المنبر رضي الله عنهم أجمعين.

"**ويتولَّونهم**" أي: يجعلونهم من أوليائهم، والولي: يطلق على عدة معان ويراد به هنا: النصرة والصداقة والمحبة.

قوله: "**ويحفظون فيهم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ حيث قال يوم غدير خم: "أذكركم الله في أهل بيتي" (رواه مسلم)** ".

الشرح: "**وصية الرسول صلى الله عليه وسلم**" أي: عهده الذي عهد به إلى أمته.

"**يوم غدير خم**": هو اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، وهذا الغدير ينسب إلى رجل يسمى (خم)، وهو في الطريق الذي بين مكّة والمدينة قريب من الجحفة، نزل الرسول عليه الصَّلاة والسلام فيه منزلًا في رجوعه من حجة الوداع، وخطب النَّاس وقال: "أذكركم الله في أهل بيتي"؛ ثلاثًا، يعني: اذكروا الله، اذكروا خوفه وانتقامه إن أضعتم حق آل البيت، واذكروا رحمته وثوابه إن قمتم في حقهم.

قوله: "**وقال أيضًا للعباس عمه وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم؛ فقال: "والذي نفسي بيده، لا يؤمنون حتَّى يحبوكم لله ولقرابتي" (رواه أحمد)** ".

الشرح: "**يجفو**": يترفع ويكره، فأقسم صَلَّى الله عليه وسلم أنهم لا يؤمنون؛ أي: لا يتم إيمانهم حتَّى يحبوكم لله، وهذه المحبة يشاركهم فيها غيرهم من المؤمنين؛ لأنَّ الواجب على كل إنسان أن يحب كل مؤمن لله، لكن قال: "**ولقرابتي**": فهذا حب زائد على المحبة لله، ويختص به آل البيت قرابة النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسلام.

وفي قول العباس: "**إن بعض قريش يجفو بني هاشم**": دليل على أن جفاء آل البيت كان موجودًا منذ حياة النَّبيِّ صَلَّى الله عليه وسلم، وذلك لأنَّ الحسد من طبائع البشر؛ إلَّا من عصمه الله عزَّ وجلَّ، فكانوا يحسدون آل بيت الرسول عليه الصَّلاة والسلام على ما منَّ الله به عليهم من قرابة النَّبيِّ صَلَّى الله عليه وسلم، فيجفونهم ولا يقومون بحقهم.

قوله: "**وقال: إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**" (**رواه مسلم**).

الشرح: هذا دليل على أن بني هاشم مصطفون عند الله، مختارون من بين خلقه.

"**إسماعيل**": هو ابن إبراهيم الخليل، وهو الذي أمر الله إبراهيم بذبحه، وقصته في سورة الصافات.
"**كنانة**": هو الأب الرابع عشر لرسول الله صَلَّى الله عليه وعلى آله وسلم.

"**قريش**": هو الأب الحادي عشر لرسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، وهو فهر بن مالك، وقيل: الأب الثالث عشر، وهو النضر بن كنانة.

"**هاشم**": هو الأب الثالث لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

قوله: **"ويتولون أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة"**.

الشرح: **"أمهات المؤمنين"**: هذه صفة لـ "أزواج"؛ فأزواج النَّبيِّ صَلَّى الله عليه وسلم أمهات لنا في الإكرام والاحترام والصلة؛ قال تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} [الأحزاب: ٦]؛ فنحن نتولاهن بالنصرة والدفاع عنهن واعتقاد أنهن أفضل أزواج أهل الأرض؛ لأنهن زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم.

**"ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة"**: لأحاديث وردت في ذلك، ولقوله تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [غافر: ٧ - ٨] فقال: {وَأَزْوَاجِهِمْ}؛ فأثبت الزوجية لهن بعد دخول الجنة، وهذا يدل على أن زوجة الإنسان في الدُّنيا تكون زوجته في الآخرة إذا كانت من أهل الجنة، فكل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم معه في الجنة.

قوله: **"خصوصًا خديجة رضي الله عنها أم أكثر أولاده وأول من آمن به وعاضده على أمره، وكان لها منه المنزلة العالية"**.

الشرح: **"خديجة"** هي بنت خويلد: تزوجها النَّبيُّ صَلَّى الله عليه وسلم أول ما تزوج، وكان عمره حينذاك خمسًا وعشرين سنة، وعمرها أربعين سنة، وكانت امرأة عاقلة، وانتفع بها صَلَّى الله عليه وسلم انتفاعًا كثيرًا؛ لأنها كانت ذات عقل وذكاء، ولم يتزوج عليها أحدًا، فكانت كما قال المؤلف:

**"أم أكثر أولاده"**: البنين والبنات، ولم يقل المؤلف: أم أولاده؛ لأنَّ من أولاده من ليس منها، وهو إبراهيم؛ فإنَّه كان من مارية القبطية.

وأولاده الذين من خديجة هم ابنان وأربع بنات: القاسم، ثم عبد الله، ويقال له: الطَّيِّب، والطاهر، وأمَّا البنات؛ فهن: زينب، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية، وأكبر أولاده القاسم، وأكبر بناته زينب.

"**وأول من آمن به**": لأنَّ النَّبيَّ صَلَّى الله عليه وسلم لما جاءها وأخبرها بما رأى في غار حراء؛ قالت: كلا؛ والله لا يخزيك الله أبدًا. وآمنت به، وذهبت به إلى ورقة بن نوفل، وقصت عليه الخبر، وقال له: إن هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى (متفق عليه). فآمن به ورقة، ولهذا نقول: أول من آمن به من النساء خديجة، ومن الرجال ورقة بن نوفل.

"**وعاضده على أمره**"؛ أي: ساعده، ومن تدبر السيرة وجد لأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها من معاضدة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ما لم يحصل لغيرها من نسائه.

"**وكان لها منه المنزلة العالية**": حتَّى إنه كان يذكرها بعد موتها صلوات الله وسلامه عليه، ويرسل بالشيء إلى صديقاتها، ويقول: "إنَّها كانت وكانت وكان لي منها ولد" (رواه البخاري)؛ فكان يثني عليها، وهذا يدل على عظم منزلتها عند الرسول صلى الله عليه وسلم.

قوله: "**والصديقة بنت الصِّديق رضي الله عنها، التي قال فيها النَّبيُّ صَلَّى الله عليه وسلم: "فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطَّعام**".

الشرح: أما كونها صديقة فلكمال تصديقها لرسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، ولكمال صدقها في معاملته، وصبرها على ما حصل من الأذى في قصة الإفك، ويدلك على صدقها وصدق إيمانها بالله أنَّه لما نزلت براءتها قالت: إنِّي لا أحمد غير الله. وهذا يدل على كمال إيمانها وصدقها.

وأمَّا كونها بنت الصِّديق؛ فكذلك أيضًا؛ فإن أباها رضي الله عنه هو الصِّديق في هذه الأمة، بل صديق الأمم كلها لأنَّ هذه الأمة أفضل الأمم فإذا كان صديق هذه الأمة فهو صديق غيرها من الأمم.

"**على النساء**": ظاهره العموم؛ أي: على جميع النساء. وقيل: إن المراد: فضل عائشة على النساء؛ أي: من أزواجه اللاتي على قيد الحياة؛ فلا تدخل في ذلك خديجة، لكن ظاهر الحديث العموم؛ لأنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلَّا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطَّعام"، وقد أخرجه الشيخان بدون ذكر خديجة. وهذا يدل على أنها أفضل النساء مطلقًا، ولكنها ليست أفضل من فاطمة باعتبار النسب؛ لأنَّ فاطمة بلا شك أشرف من عائشة نسبًا، وأمَّا منزلة فإن عائشة رضي الله عنها لها من الفضائل العظيمة ما لم يدركه أحد غيرها من النساء.

وظاهر كلام المؤلف رحمه الله أن هاتين الزوجتين رضي الله عنهما في منزلة واحدة لأنَّه قال: "**خصوصًا خديجة ... والصديقة**"، ولم يقل: ثم الصديقة، وقد اختلف العلماء في هذه المسألة:

- فقال بعض العلماء: خديجة أفضل؛ لأنَّ لها مزايا لم تلحقها عائشة فيها.

- وقال بعض العلماء: بل عائشة أفضل؛ لهذا الحديث، ولأن لها مزايا لم تلحقها خديجة فيها.

- وفصل بعض أهل العلم؛ فقال: إن لكل منهما مزية لم تلحقها الأخرى فيها؛ ففي أول الرسالة لا شك أن المزايا التي حصلت عليها خديجة لم تلحقها فيها عائشة ولا يمكن أن تساويها، وبعد ذلك وبعد موت الرسول صَلَّى الله عليه وسلم حصل من عائشة من نشر العلم ونشر السنة وهداية الأمة ما لم يحصل لخديجة؛ فلا يصح أن تفضَّل إحداهما على الأخرى تفضيلًا مطلقًا، بل نقول: هذه أفضل من وجه، وهذه أفضل من وجه، ونكون قد سلكنا مسلك العدل؛ فلم نهدر ما لهذه من المزية، ولا ما لهذه من المزية، وعند التفصيل يحصل التحصيل.

قوله: "**ويتبرؤون من طريقة الروافض الدين يبغضون الصّحابة ويسبونهم**".

الشرح: "**الروافض**": طائفة غلوا في علي بن أبي طالب وآل البيت، وهم من أضل أهل البدع، وأشدهم كرهًا للصحابة رضي الله عنهم، ومن أراد معرفة ما هم عليه من الضلال؛ فليقرأ في كتبهم وفي كتب من رد عليهم.

وسموا روافض لأنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عندما سألوه عن أبي بكر وعمر فأثنى عليهما، وقال: هما وزيرا جدي.

فالروافض اعتدوا على الصّحابة بالقلوب والألسن:

- ففي القلوب يبغضون الصّحابة ويكرهونهم؛ إلَّا من جعلوهم وسيلة لنيل مآربهم وغلوا فيهم، وهم آل البيت.

- وفي الألسن يسبونهم فيلعنونهم ويقولون: إنهم ظلمة! ويقولون: إنهم ارتدوا بعد النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم إلَّا قليلًا، إلى غير ذلك من الأشياء المعروفة في كتبهم.

وفي الحقيقة إن سب الصّحابة رضي الله عنهم ليس جرحًا في الصّحابة رضي الله عنهم فقط، بل هو قدح في الصّحابة وفي النَّبيِّ صَلَّى الله عليه وسلم وفي شريعة الله وفي ذات الله عزَّ وجلَّ:

- أما كونه قدحًا في الصّحابة؛ فواضح.

- وأمَّا كونه قدحًا في رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم؛ فحيث كان أصحابه وأُمناؤه وخلفاؤه على أمته من شرار الخلق.

- وفيه قدح في رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجه آخر وهو تكذيبه فيما أخبر به من فضائلهم ومناقبهم.

- وأمَّا كونه قدحًا في شريعة الله؛ فلأن الواسطة بيننا وبين رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم في نقل الشريعة هم الصّحابة، فإذا سقطت عدالتهم لم يبق ثقة فيما نقلوه من الشريعة.

- وأمَّا كونه قدحًا في الله سبحانه؛ فحيث بعث نبيه صلى الله عليه وسلم في شرار الخلق، واختارهم لصحبته وحمل شريعته ونقلها لأمته!!

فانظر ماذا يترتب من الطوام الكبرى على سب الصّحابة رضي الله عنهم.

ونحن نتبرأ من طريقة هؤلاء الروافض الذين يسبون الصّحابة ويبغضونهم، ونعتقد أن محبتهم فرض، وأن الكف عن مساوئهم فرض، وقلوبنا - ولله الحمد - مملوءة من محبتهم؛ لما كانوا عليه من الإيمان والتقوى ونشر العلم ونصرة النَّبيِّ صَلَّى الله عليه وسلم.

قوله: **"وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل"**.

الشرح: يعني: يتبرأ أهل السنة والجماعة من طريقة النواصب، وهؤلاء على عكس الروافض، الذين يغلون في آل البيت حتَّى يخرجوهم عن طور البشرية إلى طور العصمة والولاية.

فالنواصب: ينصبون العداء لآل البيت ويقدحون فيهم ويسبونهم، فقابلوا البدعة ببدعة، فلما رأوا الرافضة يغلون في آل البيت؛ قالوا: إذًا؛ نبغض آل البيت ونسبهم؛ مقابلة لهؤلاء في الغلو في محبتهم والثناء عليهم، ودائمًا يكون الوسط هو خير الأمور؛ ومقابلة البدعة ببدعة لا تزيد البدعة إلَّا قوة.

قوله: **"ويمسكون عما شجر بين الصّحابة".**

الشرح: يعني: عما وقع بينهم من النزاع، وذلك أن الصحابة رضي الله عنهم وقعت بينهم بعد مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه نزاعات، واشتد الأمر بعد مقتل عثمان فوقع بينهم ما وقع، ممَّا أدى إلى القتال، وهذه القضايا مشهورة، وقد وقعت – بلا شك – عن تأويل واجتهاد، وكل منهم يظن أنَّه على حق، ولا يمكن أن نقول: إن عائشة والزبير بن العوام قاتلا عليًّا رضي الله عنهم أجمعين وهم يعتقدون أنهم على باطل وأن عليًّا على حق، واعتقادهم أنهم على حق لا يستلزم أن يكونوا قد أصابوا الحق، ولكن إذا كانوا مخطئين ونحن نعلم أنهم لن يقدموا على هذا الأمر إلَّا عن اجتهاد فإنَّه ثبت عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أن: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر" (متفق عليه)؛ فنقول: هم مخطئون مجتهدون؛ فلهم أجر واحد.

فهذا الذي حصل موقفنا نحن منه له جهتان:

الجهة الأولى: الحكم على الفاعل، فندين الله أن ما جرى بينهم فهو صادر عن اجتهاد، والاجتهاد إذا وقع فيه الخطأ فصاحبه معذور مغفور له.

والجهة الثَّانية: موقفنا من الفاعل، فالواجب علينا الإمساك عما شجر بينهم، ولماذا نتخذ من فعل هؤلاء مجالًا للسب والشتم والوقيعة فيهم والبغضاء بيننا؛ ونحن في فعلنا هذا إما آثمون وإما سالمون، ولسنا غانمين أبدًا؟!

فالواجب علينا تجاه هذه الأمور أن نسكت عما جرى بين الصّحابة، وأن لا نطالع الأخبار أو التآريخ في هذه الأمور؛ إلَّا المراجعة للضرورة.

قوله: **"ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغُيّر عن وجهه الصريح، والصحيح منه هم فيه معذورون: إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون ".**

الشرح: قسم المؤلف الآثار المروية في مساويهم ثلاثة أقسام:

– منها ما هو كذب محض لم يقع منهم، وهذا يوجد كثيرًا فيما يرويه النواصب في آل البيت، وما يرويه الروافض في غير آل البيت.

- ومنها شيء له أصل، لكن زيد فيه ونقص وغيِّر عن وجهه.

وهذان القسمان كلاهما يجب رده.

- القسم الثالث: ما هو صحيح؛ فماذا نقول فيه؟ بينه المؤلف بقوله: **"والصحيح منه هم فيه معذورون: إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون"**: فما جرى بين معاوية وعلي رضي الله عنهما صادر عن اجتهاد وتأويل، لكن لا شك أن عليًّا أقرب إلى الصواب فيه من معاوية، بل قد نكاد نجزم بصوابه؛ إلَّا أن معاوية كان مجتهدًا.

ويدل على أن عليًّا أقرب إلى الصواب أن النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "ويح عمار! تقتله الفئة الباغية" (متفق عليه)؛ فكان الذي قتله أصحاب معاوية، وبهذا عرفنا أنها فئة باغية خارجة على الإمام، لكنهم متأولون، والصّواب مع علي إما قطعًا وإما ظنًّا.

- وهناك قسم رابع، وهو ما وقع منهم من سيئات حصلت لا عن اجتهاد ولا عن تأويل: فبينه المؤلف بقوله: **"وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصّحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة "**.

الشرح: أي أن أهل السنة والجماعة لا يعتقدون عصمة أفراد الصحابة لقوله صَلَّى الله عليه وعلى آله وسلم: "كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون" (رواه أحمد والترمذي وابن ماجه). ولكن العصمة في إجماعهم؛ فلا يمكن أن يجمعوا على شيء من كبائر الذنوب وصغائرها فيستحلوها أو يفعلوها، لكن الواحد منهم قد يفعل شيئًا من الكبائر كما حصل من مِسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش في قصة الإفك، ولكن هذا الذي حصل تطهروا منه بإقامة الحد عليهم.

**"بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة"** يعني: كغيرهم من البشر، لكن يمتازون عن غيرهم بما بينه المؤلف رحمه الله بقوله:

**"ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر، حتَّى إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم، لأنَّ لهم من الحسنات التي تمحوا السيئات ما ليس لمن بعدهم "**.

الشرح: هذا من الأسباب التي يمحو الله بها عنهم ما فعلوه من الصغائر أو الكبائر، وهو ما لهم من السوابق والفضائل التي لم يلحقهم فيها أحد فهم نصروا النَّبيَّ عليه الصَّلاة والسلام، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وبذلوا رقابهم لإعلاء كلمة الله فهذه توجب مغفرة ما صدر منهم، ولو كان من أعظم الذنوب إذا لم يصل إلى الكفر، ومن ذلك قصة حاطب بن أبي بلتعة حين أرسل إلى قريش يخبرهم عن مسير النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم إليهم، حتَّى أطلع الله نبيه على ذلك فلم يصلهم الخبر، فاستأذن عمر النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم أن يضرب عنق حاطب، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: "إنه شهد بدرًا، وما يدريك؟ لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم! " (متفق عليه).

قوله: **"وقد ثبت بقول رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم: أنهم خير القرون، وأن المد من أحدهم إذا تصدق به؛ كان أفضل من جبل أحد ذهبًا ممن بعدهم".**

الشرح: وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: "خير النَّاس قرني" (متفق عليه)، وفي قوله: "لا تسبُّوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه" (متفق عليه).

قوله: **"ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه، أو أتى بحسنات تمحوه، أو غفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم الذي هم أحق النَّاس بشفاعته، أو ابتلي ببلاء في الدُّنيا كفر به عنه".**

الشرح: يعني: وإذا تاب منه؛ ارتفع عنه وباله ومعرته؛ لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا. . .} إلى قوله: {إلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]، ومن تاب من الذنب كان كمن لا ذنب له؛ فلا يؤثر عليه.

**"أو أتى بحسنات تمحوه"** لقوله تعالى: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود: ١١٤].

**"أو غفر له بفضل سابقته"**: لقوله تعالى في الحديث القدسي في أهل بدر: "اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم".

**"أو بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم الذي هم أحق النَّاس بشفاعته"**: وقد سبق أن النَّبيَّ صَلَّى الله عليه وسلم يشفع في أمته، والصحابة رضي الله عنهم أحق النَّاس في ذلك.

**"أو ابتلي ببلاء في الدُّنيا كفر به عنه"**: فإن البلاء في الدُّنيا يكفر الله به السيئات؛ كما أخبر بذلك النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في قوله: "ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه؛ إلَّا حط الله به سيئاته؛ كما تحط الشجرة ورقها" (متفق عليه)، والأحاديث في هذا مشهورة كثيرة.

قوله: **"فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف الأمور التي كانوا فيها مجتهدين: إن أصابوا؛ فلهم أجران، وإن أخطؤوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور"**.

الشرح: وسبق دليله؛ فتكون هذه من باب أولى ألا تكون سببًا للقدح فيهم والعيب.

فهذه الأسباب التي ذكرها المؤلف ترفع القدح في الصّحابة، وهي قسمان:

الأول: خاص بهم، وهو ما لهم من السوابق والفضائل.

والثاني: عام، وهي التوبة، والحسنات الماحية، وشفاعة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، والبلاء.

قوله: **"ثم إن القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح"**.

الشرح: لا شك أنَّه حصل من بعضهم سرقة وشرب خمر وقذف وزنى بإحصان وزنى بغير إحصان، لكن كل هذه الأشياء تكون مغمورة في جنب فضائل القوم ومحاسنهم، وبعضها أقيم فيه الحدود، فيكون كفارة.

وما أشار إليه المؤلف من فضائلهم ومحاسنهم كلها مناقب وفضائل معلومة مشهورة، تغمر كل ما جاء من مساوئ القوم المحققة؛ فكيف بالمساوئ غير المحققة أو التي كانوا فيها مجتهدين متأولين.

قوله: **"ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما منّ الله عليهم به من الفضائل؛ عَلِم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله عزَّ وجلَّ"**.

الشرح: هذا بالإضافة إلى ما ثبت عن النَّبيِّ صلي الله عليه وعلى آله وسلم من قوله: "خير النَّاس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم". (متفق عليه)، وعلى هذا تثبت خيريتهم على غيرهم من أتباع الأنبياء بالنص والنظر في أحوالهم.

فإذا نظرت بعلم وبصيرة وإنصاف في محاسن القوم وما أعطاهم الله من الفضائل؛ علمت يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء؛ فهم خير من الحواريين أصحاب عيسى، وخير من النقباء أصحاب موسى، وخير من الذين آمنوا مع نوح ومع هود وغيرهم، لا يوجد أحد في أتباع الأنبياء أفضل من الصّحابة رضي الله عنهم، والأمر في هذا ظاهر معلوم؛ لقوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: ١١٠]، وخيرنا الصّحابة، ولأن النَّبيَّ صَلَّى الله عليه وسلم خير الخلق؛ فأصحابه خير الأصحاب بلا شك.

هذا عند أهل السنة والجماعة، أما عند الرافضة فهم شر الخلق؛ إلَّا من استثنوا منهم.

"**لا كان ولا يكون مثلهم**" أي: لا يوجد على الإطلاق مثلهم رضي الله عنهم لا سابقًا ولا لاحقًا، وقد سبق الكلام في بيان خيريتهم وتفضيلهم واصطفائهم على العالمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والاعتبار بالقرون الثلاثة بجمهور أهل القرن وهم وسطه، وجمهور الصّحابة انقرضوا بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة حتَّى إنه لم يكن بقي من أهل بدر إلَّا نفر قليل، وجمهور التّابعين بإحسان انقرضوا في أواخر عصر أصاغر الصّحابة في إمارة ابن الزُّبير وعبد الملك وجمهور تابعي التّابعين في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية" اهـ.

وكان آخر الصّحابة موتًا أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي سنة مئة من الهجرة، وقيل: مئة وعشر، قال الحافظ ابن حجر في "الفتح":"واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التّابعين ممن يقبل قوله من عاش إلى حدود العشرين ومئتين".

## فصل في كرامات الأولياء

كرامات الأولياء مسألة هامة ينبغي أن يعرف الحق فيها من الباطل؛ هل هي حقيقة ثابتة، أو هي من باب التخيلات؟ فبين المؤلف رحمه الله قول أهل السنة فيها بقوله: **"ومن أصول أهل السنة: التصديق بكرامات الأولياء، وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات "**.

الشرح: الأولياء هم الذين بيّنَهم الله تعالى بقوله: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} [يونس: ٦٣]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "من كان مؤمنًا تقيًّا؛ كان لله وليًّا"، وليست الولاية بالدعوى والتمني وإنما الولاية بالإيمان والتقوى؛ فلو رأينا رجلًا يقول: إنه ولي! ولكنه غير متق لله تعالى؛ فقوله مردود عليه.

أما الكرامات: فهي جمع كرامة، والكرامة أمر خارق للعادة، يجريه الله تعالى على يد وليّه تأييدًا له، أو إعانة، أو تثبيتًا، أو نصرًا للدين.

وقولنا أن هذا الأمر إنَّما يجريه الله على يد ولي احترازًا من أمور السحر والشعوذة؛ فإنَّها أمور خارقة للعادة، لكنها تجري على يد غير أولياء الله، بل على يد أعداء الله؛ فلا تكون هذه كرامة.

والكرامة ثابتة بالقرآن والسنة والواقع، سابقًا ولاحقًا:

- فمن الكرامات الثابتة بالقرآن والسنة لمن سبق قصة أصحاب الكهف، وقصة مريم رضي الله عنها، وقصة الرجل الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه.

- أما في السنة فالكرامات كثيرة، وراجع (كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل) في "صحيح البُخاريّ"، وكتاب"الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشَّيطان" لشيخ الإسلام ابن تيمية.

- وأمَّا شهادة الواقع بثبوت الكرامات فظاهر، يعلم به المرء في عصره: إما بالمشاهدة، وإما بالأخبار الصادقة.

فمذهب أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء، خالف أهلَ السنة في ذلك المعتزلةُ ومن تبعهم فأنكروا الكرامات، وقالوا: إنك لو أثبت الكرامات؛ لاشتبه الساحر بالولي والولي بالنبي؛ لأنَّ كل واحد منهم يأتي بخارق.

فيقال: لا يمكن الالتباس؛ لأنَّ الكرامة على يد ولي، والولي لا يمكن أن يدعي النبوة، ولو ادعاها؛ لم يكن وليًّا، وآية النَّبيِّ تكون على يد نبي، والشعوذة والسحر على يد عدو بعيد من ولاية الله، وتكون باستعانته بالشياطين فينالها بكسبه؛ بخلاف الكرامة فهي من الله تعالى لا يطلبها الولي بكسبه.

قال العلماء: كل كرامة لولي فهي آية للنبي الذي اتبعه؛ لأنَّ الكرامة شهادة من الله عزَّ وجلَّ أن طريق هذا الولي طريق صحيح، وعلى هذا فكل ما جرى من الكرامات للأولياء من هذه الأمة فإنَّها آيات لرسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، ولهذا قال بعض العلماء: ما من آية لنبي من الأنبياء السابقين؛ إلا ولرسول الله صَلَّى الله عليه وسلم مثلها، فأُورِد عليهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يلق في النار فيخرج حيًّا؛ كما حصل ذلك لإبراهيم، فأجيب بأنه جرى ذلك لأتباع الرسول عليه الصَّلاة والسلام؛ كما ذكره المؤرخون عن أبي مسلم الخولاني، وإذا أكرم أتباع الرسول عليه الصَّلاة والسلام بجنس هذا الأمر الخارق للعادة؛ دلَّ ذلك على أن دين النَّبيِّ صَلَّى الله عليه وسلم حق؛ لأنَّه مؤيد بجنس هذه الآية التي حصلت لإبراهيم.

- وأُورِد عليهم أن البحر لم يفلق للنبي صلى الله عليه وسلم، وقد فلق لموسى! فأجيب بأنه حصل لهذه الأمة فيما يتعلق في البحر شيء أعظم ممَّا حصل لموسى، وهو المشي على الماء؛ كما في قصة العلاء بن الحضرمي حيث مشوا على ظهر الماء، وهذا أعظم ممَّا حصل لموسى لأنَّ موسى مشى على أرض يابسة.

- وأورِد عليهم أن من آيات عيسى إحياء الموتى، ولم يقع ذلك لرسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، وأجيب بأنه وقع لأتباع الرسول عليه الصَّلاة والسلام؛ كما في قصة الرجل الذي مات حماره في أثناء الطريق، فدعا الله تعالى أن يحييه، فأحياه الله تعالى.

فالآيات التي كانت للأنبياء السابقين كان من جنسها للنبي صَلَّى الله عليه وسلم أو لأمته، ومن أراد المزيد من ذلك؛ فليرجع إلى كتاب "البداية والنهاية في التاريخ" لابن كثير.

**تنبيه**: قلنا أن الكرامات: تكون تأييدًا أو تثبيتًا أو إعانة للشخص أو نصرًا للحق، ولهذا كانت الكرامات في التّابعين أكثر منها في الصّحابة لأنَّ الصّحابة عندهم من التثبيت والتأييد والنصر ما يستغنون به عن

الكرامات؛ فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان بين أظهرهم، وأمَّا التابعون فإنهم دون ذلك، ولذلك كثرت الكرامات في زمنهم تأييدًا لهم وتثبيتًا ونصرًا للحق الذي هم عليه.

"**خوارق العادات**": ما يأتي على خلاف العادة الكونية.

وهذه الكرامات لها أربع دلالات:

أولًا: بيان كمال قدرة الله عزَّ وجلَّ؛ حيث حصل هذا الخارق للعادة بأمر الله.

ثانيًا: تكذيب القائلين بأن الطبيعة هي التي تفعل؛ لأنَّه لو كانت الطبيعة هي التي تفعل؛ لكانت الطبيعة على نسق واحد لا يتغير؛ فإذا تغيرت العادات والطبيعة؛ دل على أن للكون مدبرًا وخالقًا.

ثالثًا: أنها آية للنبي المتبوع كما أسلفنا قريبًا.

رابعًا: أن فيها تثبيتًا وكرامة لهذا الولي.

"**في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات**": يعني: أن الكرامة تنقسم إلى قسمين قسم يتعلق بالعلوم والمكاشفات، وقسم آخر يتعلق بالقدرة والتأثيرات:

- أما العلوم؛ فأن يحصل للإنسان من العلوم ما لا يحصل لغيره، مثل ما ذكر عن أبي بكر: أن الله أطلعه على ما في بطن زوجته – الحمل –؛ أعلمه الله أنَّه أنثى. (الاصابة).

- وأمَّا المكاشفات؛ فأن يظهر له من الأشياء التي يكشف له عنها ما لا يحصل لغيره، مثل ما حصل لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين كان يخطب النَّاس يوم الجمعة على المنبر، فسمعوه يقول: يا سارية! الجبل! فتعجبوا من هذا الكلام، ثم سألوه عن ذلك؟ فقال: إنه كشف له عن سارية بن زنيم – وهو أحد قواده –، وأنه محصور من عدوه، فوجهه إلى الجبل، وقال له: يا سارية! الجبل! فسمع سارية صوت عمر، وانحاز إلى الجبل، وتحصن به (الصحيحة ١١١٠)!

- أما القدرة والتأثيرات؛ فمثل ما وقع لمريم من هزها لجذع النخل وتساقط الرطب عليها، ومثل ما وقع للذي عنده علم من الكتاب؛ حيث قال لسليمان: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك.

قوله: "**والمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر فرق الأمة، وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة** ".

الشرح: الكرامات موجودة فيما سبق من الأمم، ومنها قصة أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة (متفق عليه)، وموجودة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم؛ كقصة أسيد بن حضير (متفق عليه)، وتكثير الطعام عند بعض الصحابة (متفق عليه)، وموجودة في التابعين؛ مثل قصة صلة بن أشيم الَّذي أحيا الله له فرسه (صفة الصفوة)، يقول شيخ الإسلام في كتاب "الفرقان": "وهذا باب واسع، وقد بُسطَ الكلام على كرامات الأولياء في غير هذا الموضع، وأما ما نعرفه نحن عيانًا ونعرفه في هذا الزمان؛ فكثير".

"**وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة**": والدليل على أنها موجودة إلى يوم القيامة: سمعي وعقلي:

- أما السمعي، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر في قصة الدجال أنَّه يدعو رجلًا من الناس من الشباب، يأتي، ويقول له: كذبت! إنما أنت المسيح الدجال الَّذي أخبرنا عنك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيأتي الدجال، فيقتله قطعتين، فيجعل واحدة هنا وواحدة هنا رمية الغرض (يعني: بعيد ما بينهما)، ويمشي بينهما، ثم يدعوه، فيقوم يتهلل، ثم يدعوه ليقر له بالعبودية، فيقول الرجل: ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم! فيريد الدجال أن يقتله؛ فلا يسلط عليه (متفق عليه)، فهذه (أي: عدم تمكن الدجال من قتل ذلك الشاب) من الكرامات بلا شك.

- وأما العقلي؛ فيقال: ما دام سبب الكرامة هي الولاية؛ فالولاية لا تزال موجودة إلى قيام الساعة.

## فصل في طريقة أهل السنة العملية

قوله: "**ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم باطنًا وظاهرًا**".

الشرح: لما فرغ المؤلف مما يريد ذكره من طريقة أهل السنة العقدية؛ شرع في ذكر طريقتهم العملية فبيّن أن طريقتهم:

"**اتباع الآثار**": فلا اتباع إلا بعلم؛ إذًا؛ فهم حريصون على طلب العلم؛ ليعرفوا آثار الرسول صلى الله عليه وسلم في العقيدة والعبادة والخلق والدعوة ثم يتبعوها.

وهم في العبادة لا يتشددون ولا يتهاونون ويتبعون ما هو أفضل، وربما يشتغلون عن العبادة بمعاملة الخلق للمصلحة؛ كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يأتيه الوفود فربما يشغلونه عن الصلاة؛ فيقضيها فيما بعد.

"**ظاهرًا وباطنًا**": ظاهرًا فيما يظهر للناس، وباطنًا فيما يسرونه بأنفسهم.

ثم اعلم أن آثار الرسول صلى الله عليه وسلم تنقسم إلى عدة أقسام:

أولًا: ما فعله على سبيل التعبد؛ فهذا لا شك أننا مأمورون باتباعه؛ لقوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب: ٢١]؛ فكل شيء لا يظهر فيه أنَّه فعله تأثرًا بعادة أو بمقتضى جبلة وفطرة أو حصل اتفاقًا؛ فإنه على سبيل التعبد، ونحن مأمورون به.

ثانيًا: ما فعله اتفاقًا؛ فهذا لا يشرع لنا التأسي فيه لأنه غير مقصود؛ كما لو قال قائل: ينبغي أن يكون قدومنا إلى مكة في الحج في اليوم الرابع من ذي الحجة! لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قدم مكة في اليوم الرابع من ذي الحجة (رواه أحمد). فنقول: هذا غير مشروع؛ لأن قدومه صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم وقع اتفاقًا.

ولو قال قائل: ينبغي إذا دفعنا من عرفة ووصلنا إلى الشعب الَّذي نزل فيه صلى الله عليه وسلم وبال أن ننزل ونبول ونتوضأ وضوءًا خفيفًا كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم فنقول: هذا لا يشرع لأنه من الأمور التي وقعت اتفاقًا؛ فإنه لا يشرع التأسي فيه بذلك؛ لأنه صلى الله عليه وسلم فعله لا على سبيل القصد للتعبد، والتأسي به تعبد.

ثالثًا: ما فعله بمقتضى العادة؛ فهل يشرع لنا التأسي به؟

الجواب: نعم؛ ينبغي لنا أن نتأسى به، لكن بجنسه لا بنوعه، وهذه المسألة قل من يتفطن لها من الناس؛ يظنون أن التأسي به فيما هو على سبيل العادة بالنوع فينفون التأسي به في ذلك، ونحن نقول: نتأسى به لكن باعتبار الجنس؛ بمعنى أن نفعل ما تقتضيه العادة التي كان عليها الناس؛ إلا أن يمنع من ذلك مانع شرعي.

رابعًا: ما فعله بمقتضى الجبلة فهذا ليس من العبادات قطعًا، لكن قد يكون عبادة من وجه بأن يكون فعله على صفة معينة عبادة: كالنوم؛ فإنه بمقتضى الجبلة لكن يسن أن يكون على اليمين، والأكل والشرب جبلة وطبيعة، ولكن قد يكون عبادة من جهة أخرى إذا قصد به الإنسان امتثال أمر الله والتنعم بنعمه والقوة على عبادته وحفظ البدن، ثم إن صفته أيضًا تكون عبادة كالأكل باليمين، والبسملة عند البداءة، والحَمْدلة عند الانتهاء.

وهذه المسألة ينبغي التثبت فيها، ولا يحكم على شيء بأنه عبادة؛ إلا بدليل؛ لأن الأصل في العبادات المنع؛ إلا ما قام الدليل على مشروعيته.

قوله: "**واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار**".

الشرح: "**السابقين**" يعني: إلى الأعمال الصالحة. "**الأولين**" يعني: من هذه الأمة. و"**المهاجرون**": من هاجروا إلى المدينة. و"**الأنصار**": أهل المدينة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

وإنما كان اتباع سبيلهم من منهج أهل السنة والجماعة؛ لأنهم أقرب إلى الصواب والحق ممن بعدهم، وكلما بعد الناس عن عهد النبوة بعدوا من الحق، وكلما قرب الناس من عهد النبوة قربوا من الحق، وكلما كان الإنسان أحرص على معرفة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين كان أقرب إلى الحق، ولهذا ترى اختلاف الأمة بعد زمن الصحابة والتابعين أكثر انتشارًا وأشمل لجميع الأمور، لكن الخلاف في عهدهم كان محصورًا، فالصحابة أقرب إلى الصواب، وقولهم مقدم على قول غيرهم من أجل ما عندهم من الإيمان والعلم، وما عندهم من الفهم السليم والتقوى والأمانة، وما لهم من صحبة الرسول صلى الله عليه وسلم.

قوله: **"واتباع وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة" (رواه أحمد والترمذي).**

الشرح: الوصية: العهد إلى الغير بأمر هام، ومعنى: **"عليكم بسنتي ...إلخ"**: الحث على التمسك بها، وأكد هذا بقوله: **"وعضوا عليها بالنواجذ"** وهي أقصى الأضراس؛ فأمر بالتمسك بها باليد والعض عليها بالأضراس مبالغة في التمسك بها.

**"السنة"**: هي الطريقة ظاهرًا وباطنًا. و**"الخلفاء الراشدون"**: هم الذين خلفوا النبي صلى الله عليه وسلم في أمته علمًا وعملًا ودعوة.

فأهل السنة والجماعة يتبعون ما أوصى به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الحث على التمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي؛ إلا إذا خالف كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم مخالفة صريحة؛ فالواجب علينا أن نأخذ بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ونعتذر عن هذا الصحابي، ونقول: هذا من باب الاجتهاد المعذور فيه.

**"وإياكم ومحدثات الأمور"**: "إياكم": هذه للتحذير؛ أي: أحذركم، و"الأمور": المراد بها أمور الدين، أما أمور الدنيا فلا تدخل في هذا الحديث؛ لأن الأصل في أمور الدنيا الحل فما ابتدع منها فهو حلال إلا أن يدل الدليل على تحريمه، لكن أمور الدين الأصل فيها الحظر فما ابتدع منها فهو حرام بدعة إلا بدليل من الكتاب والسنة على مشروعيته.

**"كل بدعة ضلالة"**: هذا كلام عام مُسَوّر بأقوى لفظ دال على العموم، وهو لفظ (كل)، فهو تعميم محكم صدر من الرسول صلى الله عليه وسلم، والرسول عليه الصلاة والسلام أعلم الخلق بشريعة الله، وأنصح الخلق لعباد الله، وأفصح الخلق بيانًا، وأصدقهم خبرًا؛ فاجتمعت في حقه أربعة أمور: علم ونصح وفصاحة وصدق، نطق بقوله: "كل بدعة ضلالة". فعلى هذا: كل من تعبد لله بعقيدة أو قول أو فعل لم يكن من شريعة الله؛ فهو مبتدع، فالجهمية والمعتزلة والاشاعرة يعتقدون أنهم منزهون لله ويتعبدون بعقيدتهم وهي عقيدة باطلة، والذين أحدثوا أذكارًا معينة أو أفعالا يتعبدون لله بها، ويعتقدون أنهم مأجورون على هذا، فهؤلاء كل بدعة من بدعهم فهي ضلالة، ووصفها الرسول عليه الصلاة والسلام بالضلالة؛ لأنها انحراف عن الحق.

- والبدعة تستلزم محاذير فاسدة:

فأولًا: تستلزم تكذيب قول الله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة: ٣] لأنه إذا جاء ببدعة جديدة يعتبوها دينًا؛ فمقتضاه أن الدين لم يكمل.

ثانيًا: تستلزم القدح في الشريعة وأنها ناقصة، فأكملها هذا المبتدع.

ثالثًا: تستلزم القدح في المسلمين السابقين الذين لم يأتوا بها؛ فكل من سبق هذه البدع من الناس دينهم ناقص! وهذا خطير!!

رابعًا: من لوازم هذه البدعة أن الغالب أن من اشتغل ببدعة انشغل عن سنة؛ كما قال بعض السلف: "ما أحدث قوم بدعة؛ إلا هدموا مثلها من السنة".

خامسًا: أن هذه البدع توجب تفرق الأمة؛ لأن هؤلاء المبتدعة يعتقدون أنهم هم أصحاب الحق، ومن سواهم على ضلال!! وأهل الحق يقولون: أنتم الذين على ضلال! فتتفرق قلوبهم.

وبهذا نعرف أن من قسم البدعة إلى أقسام ثلاثة أو خمسة أو ستة؛ فقد أخطأ، وخطؤه من أحد وجهين: إما أن لا ينطبق شرعًا وصف البدعة على ما سماه بدعة، وإما أن لا يكون حسنًا كما زعم.

فإن قلت: ما تقول في قول أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حين خرج إلى الناس وهم يصلون بإمامهم في رمضان، فقال: نعمت البدعة هذه. فأثنى عليها، وسماها بدعة (رواه البخاري)؟!

فالجواب أن نقول: ننظر إلى هذه البدعة التي ذكرها؛ هل ينطبق عليها وصف البدعة الشرعية أو لا، فإذا نظرنا ذلك؛ وجدنا أنَّه لا ينطبق عليها وصف البدعة الشرعية؛ فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بأصحابه في رمضان ثلاث ليال ثم تركه خوفًا من أن تفرض عليهم، فثبت أصل المشروعية، وانتفى أن تكون بدعة شرعية، ولا يمكن أن نقول: إنها بدعة، والرسول صلى الله عليه وسلم قد صلاها!! وإنما سماها عمر رضي الله عنه بدعة لأن الناس كانوا قد تركوها وصاروا لا يصلون جماعة بإمام واحد، بل أوزاعًا الرجل وحده والرجلان والثلاثة والرهط، فلما جمعهم على إمام واحد؛ صار اجتماعهم بدعة بالنسبة لما كانوا عليه أولًا من هذا التفرق. إذًا، فهي بدعة نسبية؛ باعتبار أنها تركت ثم أنشئت مرة أخرى فهذا وجه تسميتها ببدعة، وأما أنها بدعة شرعية، ويثني عليها عمر؛ فكلَّا.

فإن قيل: كيف تجمع بين هذا وبين قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من سن في الإسلام سنة حسنة؛ فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة"؛ فأثبت أن الإنسان يسن سنة حسنة في الإسلام؟ فنقول: كلام الرسول صلى الله عليه وسلم يصدق بعضه بعضًا ولا يتناقض، فيريد بالسنة الحسنة السنة المشروعة، ويكون المراد بسنها المبادرة إلى فعلها، ويعرف هذا ببيان سبب الحديث وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله حين جاء أحد الأنصار بصرة (يعني: من الدراهم)، ووضعها بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم حين دعا أصحابه أن يتبرعوا للرهط الذين قدموا من مضر مجتابي النمار، وهم من كبار العرب، فتمعر وجه النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى من حالهم، فدعا إلى التبرع لهم، فجاء هذا الرجل أول ما جاء بهذه الصرة، فقال: "من سن في الإسلام سنة حسنة؛ فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة" (رواه مسلم).

أو يقال: المراد بالسنة الحسنة ما أحدث ليكون وسيلة إلى ما ثبتت مشروعيته؛ كتصنيف الكتب وبناء المدارس ونحو ذلك.

وبهذا نعرف أن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم لا يناقض بعضه بعضًا، بل هو متفق؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى.

قوله: "**ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله**".

الشرح: هذا علمنا واعتقادنا، وأن ليس في كلام الله من كذب، بل هو أصدق الكلام؛ فإذا أخبر الله عن شيء بأنه كائن فهو كائن، وإذا أخبر عن شيء بأنه سيكون فإنه سيكون، وإذا أخبر عن شيء بأن صفته كذا وكذا فإن صفته كذا وكذا، ولا يمكن أن يتغير الأمر عما أخبر الله به، ومن ظن التغير؛ فإنما ظَنّه خطأ؛ لقصوره أو تقصيره.

قوله: "**وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم**".

الشرح: "**الهدي**": هو الطريق التي كان عليها السالك، والطرق شتى، لكن خيرها طريق النبي صلى الله عليه وسلم؛ فنحن نعلم ذلك ونؤمن به، نعلم أن خير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات، وأن هديه صلى الله عليه وسلم ليس بقاصر؛ بل هو كامل تام، أهدى من شريعة التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وجميع الهدي.

وبناء على هذه العقيدة لا نعارض قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أحد من الناس، كائنًا من كان، حتَّى لو جاءنا قول لأبي بكر، وهو خير الأمة، وقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أخذنا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد بنى أهل السنة والجماعة اعتقادهم هذا على الكتاب والسنة كما قال الله تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء: ٨٧]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخطب الناس على المنبر:"خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم".

قوله: **"ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس"**.

الشرح: أي: يقدمون كلام الله على كلام غيره من الناس في الخبر والحكم؛ فإذا جاءتنا أخبار عن أمم مضت وصار القرآن يكذبها فإننا نكذبها، مثال ذلك: ما اشتهر عند كثير من المؤرخين من أن إدريس قبل نوح، وهذا كذب لأن القرآن يكذبه؛ كما قال تعالى: {* إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} [النساء: ١٦٣]، وإدريس من النبيين؛ كما قال الله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ...} [مريم: ٥٦]، إلى أن قال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ} [مريم: ٥٨]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [الحديد: ٢٦]؛ فلا نبي قبل نوح إلا آدم فقط.

وقوله: **"ويقدمون هدي محمد صلى الله عليه وسلم على هدي كل أحد"**.

الشرح: أي يقدمون طريقته وسنته التي هو عليها على هدي كل أحد في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات والأحوال وفي كل شيء؛ لقوله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: ١٥٣]، وقوله: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: ٣١].

قوله: **"ولهذا سموا أهل الكتاب والسنة"**.

الشرح: يعني: لتصديقهم بهما والتزامهما وإيثارهما على غيرهما، ومن خالف الكتاب والسنة وادعى أنَّه من أهل الكتاب والسنة فهو كاذب، لأن من كان من أهل شيء لا بد أن يلزمه ويلتزم به.

قوله: "**وسموا أهل الجماعة، لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسمًا لنفس القوم المجتمعين** ".

الشرح: قد تقدم الكلام على هذا في أول الشرح.

قوله: "**والإجماع هو الأصل الثالث الَّذي يعتمد عليه في العلم والدين**".

الشرح: يعني به الدليل الثالث لأن الأدلة هي أصول الأحكام حيث تبنى عليها، فالأصل الأول هو الكتاب، والأصل الثاني هو السنة، والإجماع هو الأصل الثالث، فهذه ثلاثة أصول يعتمد عليها في العلم والدين، أما الكتاب والسنة فأصلان ذاتيان، وأما الإجماع فأصل مبني على غيره إذ لا إجماع إلا بكتاب أو سنة.

فأما كون الكتاب والسنة أصلًا يُرجع إليه؛ فأدلته كثيرة منها: قوله تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} [النساء: ٥٩]، وقوله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [المائدة: ٩٢]، وقوله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: ٧]، وقوله تعالى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} [النساء: ٨٠]، ومن أنكر أن تكون السنة أصلًا في الدليل فقد أنكر أن يكون القرآن أصلًا، ولا شك عندنا في أن من قال: إن السنة لا يرجع إليها في الأحكام الشرعية؛ أنَّه كافر مرتد عن الإسلام؛ لأنه مكذب ومنكر للقرآن، فالقرآن في غير ما موضع جعل السنة أصلًا يرجع إليه.

وأما الدليل على أن الإجماع أصل؛ فيقال:

أولًا: هل الإجماع موجود أو غير موجود؟ قال بعض العلماء: لا إجماع موجود؛ إلا على ما فيه نص، وحينئذ يستغنى بالنص عن الإجماع، فمثلًا؛ لو قال قائل: العلماء مجمعون على أن الصلوات المفروضة خمس؛ فهذا صحيح، لكن ثبوت فرضيتها بالنص، ومجمعون على تحريم الزنى فهذا صحيح، لكن ثبوت تحريمه بالنص، ومجمعون على تحريم نكاح ذوات المحارم؛ فهذا صحيح، لكن ثبوت تحريمه بالنص.

والمعروف عند عامة العلماء أن الإجماع موجود، وأن كونه دليلًا ثابت بالقرآن والسنة: فمن القرآن قوله تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: ١١٥]، فقال: {وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ}، ومن السنة حديث: "لا تجتمع

أمتي على ضلالة" (رواه الترمذي وابن ماجه)، فجمهور الأمة أن الإجماع دليل مستقل، وأننا إذا وجدنا مسألة فيها إجماع؛ أثبتناها بهذا الإجماع.

قوله: "**وهم يَزِنُون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة مما له تعلق بالدين**".

الشرح: يعني: أنهم لا يعرفون أنَّه حق إلا إذا وزنوه بالكتاب والسنة والإجماع؛ فإن وجد له دليل منها فهو حق، وإن لم يوجد فهو باطل.

قوله: "**والإجماع الَّذي ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح، إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة**".

الشرح: "**السلف الصالح**": هم القرون الثلاثة، الصحابة والتابعون وتابعوهم، وقد علل المؤلف ذلك بأنَّه كثر الاختلاف ككثرة الأهواء لأن الناس تفرقوا طوائف، ولم يكونوا كلهم يريدون الحق، فاختلفت الآراء وتنوعت الأقوال.

"**وانتشرت الأمة**": فصارت الإحاطة بهم من أصعب الأمور، فشيخ الإسلام رحمه الله كأنه يقول: من ادعى الإجماع بعد السلف الصالح وهم القرون الثلاثة، فإنه لا يصح دعواه الإجماع لأن الإجماع الَّذي ينضبط ما كان عليه السلف الصالح.

وهل يمكن أن يوجد إجماع بعد الخلاف؟

الجواب: لا إجماع مع وجود خلاف سابق، ولا عبرة بخلاف بعد تحقق الإجماع.

## فصل: في منهج أهل السنة والجماعة

قوله رحمه الله:"**ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**".

الشرح: "**المعروف**": كل ما أمر به الشرع؛ فهم يأمرون به. و"**المنكر**": كل ما نهى عنه الشرع؛ فهم ينهون عنه. لأن هذا هو ما أمر الله به في قوله: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران: ١٠٤]، وكذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: "لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرًا" (رواه ابو داود والترمذي وابن ماجه)، ولكن يشترط للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر شروطا:

الشرط الأول: أن يكون عالمًا بحكم الشرع فيما يأمر به أو ينهى عنه؛ فلا يأمر إلا بما علم أن الشرع أمر به، ولا ينهى إلا عما علم أن الشرع نهى عنه، ولا يعتمد في ذلك على ذوق ولا عادة، لقوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: {فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ} [المائدة: ٤٨]. وقوله: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: ٣٦]. وقوله: {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} [النحل: ١١٦]، فلو رأى شخصًا يفعل شيئًا الأصل فيه الحل فإنه لا يحل له أن ينهاه عنه حتَّى يعلم أنَّه حرام أو منهي عنه، ولو رأى شخصًا ترك شيئًا يظنه الرائي عبادة فإنه لا يحل له أن يأمره بالتعبد به حتَّى يعلم أن الشرع أمر به.

الشرط الثاني: أن يعلم بحال المأمور: هل هو ممن يوجه إليه الأمر أو النهي أم لا؟ فلو رأى شخصًا يشك هل هو مكلف أم لا؛ لم يأمره بما لا يؤمر به مثله حتَّى يستفصل.

الشرط الثالث: أن يكون عالمًا بحال المأمور حال تكليفه؛ هل قام بالفعل أم لا؟ فلو رأى شخصًا دخل المسجد ثم جلس، وشك هل صلى ركعتين فلا ينكر عليه، ولا يأمره بهما حتَّى يستفصل، ودليل ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب يوم الجمعة، فدخل رجل، فجلس، فقال له النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: "أصليت؟ ". قال: لا. قال: "قم فصل ركعتين وتجوز فيهما" (متفق عليه).

الشرط الرابع: أن يكون قادرًا على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا ضرر يلحقه؛ فإن لحقه ضرر لم يجب عليه، لكن إن صبر وقام به فهو أفضل؛ لأن جميع الواجبات مشروطة بالقدرة والاستطاعة؛ لقوله

تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: ١٦]، وقوله: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا} [البقرة: ٢٨٦]، فإذا خاف أنه إذا أمر شخصًا بمعروف أن يقتله فإنه لا يلزمه أن يأمره لأنه لا يستطيع ذلك، بل قد يحرم عليه حينئذ، وهذا ما لم يصل الأمر إلى حد أن يكون الأمر بالمعروف من جنس الجهاد؛ كما لو أمر بسنة ونهى عن بدعة ولو سكت لاستطال أهل البدعة على أهل السنة؛ ففي هذه الحال يجب إظهار السنة وبيان البدعة لأنه من الجهاد في سبيل الله، ولا يعذر من تعين عليه بالخوف على نفسه.

الشرط الخامس: أن لا يترتب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مفسدة أعظم من السكوت؛ فإن ترتب عليها ذلك فإنه لا يلزمه، بل لا يجوز له أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر، ويدل لهذا قوله تعالى: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: ١٠٨]؛ فإن سب آلهة المشركين لا شك أنَّه أمر مطلوب، لكن لما كان يترتب عليه أمر محظور أعظم من المصلحة التي تكون بسب آلهة المشركين، وهو سبهم لله تعالى عدوًا بغير علم نهى الله عن سب آلهة المشركين في هذه الحال.

قد يقول: أنا إذا نهيت أبي؛ غضب علي، وزعل، وهجرني؛ فماذا أصنع؟ فنقول: اصبر على هذا الَّذي ينالك بغضب أبيك وهجره، والعاقبة للمتقين، واتبع ملة أبيك إبراهيم عليه السلام؛ حيث عاتب أباه على الشرك؛ فقال: {يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ...} إلى أن قال: {يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ} أي: أبوه: {أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا} [مريم: ٤٢ – ٤٦]. وقال إبراهيم أيضًا لأبيه آزر: {أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٧٤].

قوله: "**ويرون إقامة الحج، والجهاد، والجمع، والأعياد؛ مع الأمراء، أبرارًا كانوا أو فجارًا**".

الشرح: الأبرار: جمع بَر، وهو كثير الطاعة، والفجار: جمع فاجر وهو العاصي كثير المعصية، فأهل السنة يخالفون أهل البدع تمامًا فيرون إقامة الحج مع الأمير وإن كان من أفسق عباد الله لأنهم يرون أن طاعة ولي الأمر واجبة وإن كان فاسقًا، بشرط أن لا يخرجه فسقه إلى الكفر البواح الَّذي عندنا فيه من الله برهان فهذا لا طاعة له ويجب أن يزال عن تولي أمور المسلمين، لكن الفجور الَّذي دون الفسق مهما بلغ فإن الولاية لا تزول به، بل هي ثابتة، والطاعة لولي الأمر واجبة في غير المعصية:

- خلافًا للخوارج، الذين يرون أنَّه لا طاعة للإمام والأمير إذا كان عاصيًا، لأن من قاعدتهم: أن الكبيرة تخرج من الملة.

- وخلافًا للرافضة الذين يقولون: إنه لا إمام إلا المعصوم، وإن الأمة الإسلامية منذ غاب من يزعمون أنَّه الإمام المنتظر، ليست على إمام، ولا تبعًا لإمام، بل هي تموت ميتة جاهلية من ذلك الوقت إلى اليوم.

وأهل السنة والجماعة لديهم بعد نظر لأن المخالفات في هذه الأمور معصية لله ورسوله، وتجر إلى فتن عظيمة، فما الَّذي فتح باب الفتن والقتال بين المسلمين والاختلاف في الآراء إلا الخروج على الأئمة؟! ولكن هذا لا يعني أن أهل السنة والجماعة لا يرون أن فعل الأمير للمنكر منكر، بل يرون أنَّه منكر، وأن فعل الأمير للمنكر قد يكون أشد من فعل عامة الناس؛ لأن فعله له يلزم منه زيادة على إثمه محذوران عظيمان:

الأول: اقتداء الناس به وتهاونهم بهذا المنكر.

والثاني: أن الأمير إذا فعل المنكر سيقل في نفسه تغييره على الرعية أو تغيير مثله أو مقاربه.

ولكنه مع ذلك لا يجوز الخروج عليه ويرون صحة الجمعة خلفه وإن كان مبتدعا ما لم تصل بدعته إلى الكفر؛ وبهذه الطريق الهادئة يتبين أن الدين الإسلامي وسط بين الغالي فيه والجافي عنه.

فإن قال قائل: كيف نصلي خلف هؤلاء ونتابعهم في الحج والجهاد والجمع والأعياد؟! فنقول: لأنهم أئمتنا، ندين لهم بالسمع والطاعة امتثالًا لأمر الله بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء: ٥٩]. ولأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "إنكم سترون بعدي أثرة وأمورًا تنكرونها". قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟! قال: "أدوا إليهم حقهم، وسلوا الله حقكم". (متفق عليه). وحقهم: طاعتهم في غير معصية الله، وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله. قال: "إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم فيه من الله برهان" (متفق عليه).

والأمور التي فيها تأويل واختلاف بين العلماء إذا ارتكبها ولاة الأمور لا يحل لنا منابذتهم ومخالفتهم، لكن يجب علينا مناصحتهم بقدر المستطاع فيما خالفوا فيه مما لا يسوغ فيه الاجتهاد، وأما ما يسوغ فيه

الاجتهاد فنبحث معهم فيه بحث تقدير واحترام لنبين لهم الحق، لا على سبيل الانتقاد لهم والانتصار للنفس، وأما منابذتهم وعدم طاعتهم؛ فليس من طريقة أهل السنة والجماعة.

قوله: **"ويحافظون على الجماعات"**.

الشرح: أي: يحافظ أهل السنة والجماعة على إقامة الجماعة في الصلوات الخمس محافظة تامة، وربما يدخل في الجماعات الاجتماع على الرأي وعدم النزاع فيه، فإن هذا ما أوصى به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم معاذ بن جبل وأبا موسى حين بعثهما إلى اليمن، فقال: "يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا". (متفق عليه).

قوله: **"ويدينون بالنصيحة للأمة"**.

الشرح: أي: يتعبدون لله عزَّ وجلَّ بالنصيحة للأمة، ويعتقدون ذلك دينًا، فهم ينصحون للأمة طاعة لله تعالى وتدينًا له؛ لقول الرسول عليه الصلاة والسلام في حديث تميم بن أوس الداري: "الدين النصيحة، الدين النصيحة". قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: "لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم" (رواه مسلم)، فالنصيحة لله صدق الطلب في الوصول إليه، والنصيحة للرسول عليه الصلاة والسلام صدق الاتباع له، ويستلزم ذلك الذود عن دين الله عزَّ وجلَّ الَّذي جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال: "ولكتابه" فينصح للقرآن ببيان أنَّه كلام الله، وأنه منزل غير مخلوق، وأنه يجب تصديق خبره وامتثال أحكامه، وهو كذلك يعتقده في نفسه، والمقصود بأئمة المسلمين كل من ولاه الله أمرًا من أمور المسلمين فهو إمام في ذلك الأمر؛ فهناك إمام عام كرئيس الدولة، وهناك إمام خاص؛ كالأمير والوزير والمدير والرئيس وأئمة المساجد وغيرهم، والمقصود بعامتهم يعني: عامة المسلمين، وهم التابعون للأئمة.

ومن أعظم أئمة المسلمين العلماء، والنصيحة لعلماء المسلمين هي نشر محاسنهم، والكف عن مساوئهم، والحرص على إصابتهم الصواب؛ بحيث يرشدهم إذا أخطأوا ويبين لهم الخطأ على وجه لا يخدش كرامتهم، ولا يحط من قدرهم لأن تخطئة العلماء على وجه يحط من قدرهم ضرر على عموم الإسلام؛ ولأن العامة إذا رأوا العلماء يضلل بعضهم بعضًا سقطوا من أعينهم، وقالوا: كل هؤلاء راد ومردود عليه فلا ندري مع من الصواب! فلا يأخذون بقول أي واحد منهم، لكن إذا احترم العلماء بعضهم بعضًا، وصار كل واحد يرشد أخاه سرًّا إذا أخطأ، ويعلن للناس القول الصحيح؛ فإن هذا من أعظم النصيحة لعلماء المسلمين.

"**للأمة**": يشمل الأئمة والعامة؛ وقد كان مما يبايع الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه: "والنصح لكل مسلم" (متفق عليه).

فإذا قال قائل: ما هو ميزان النصيحة للأمة؟ فنقول: الميزان هو ما أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام؛ بقوله: "لا يؤمن أحدكم حتَّى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" (متفق عليه)، فإذا عاملت الناس هذه المعاملة؛ فهذا هو تمام النصيحة، فقبل أن تعامل صاحبك بنوع من المعاملة فكر؛ هل ترضى أن يعاملك شخص بها؟ فإن كنت لا ترضاها لنفسك فلا تعامل بها غيرك!!

قوله: "**ويعتقدون معنى قوله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضًا"، وشبك بين أصابعه (متفق عليه)** ".

الشرح: شبه النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن لأخيه المؤمن بالبنيان الَّذي يشد بعضه بعضًا، حتَّى يكون بناء محكمًا متماسكًا يشدُّ بعضه بعضًا ويقوى به، ثم قرب هذا وأكده فشبك بين أصابعه، فالأصابع المتفرقة فيها ضعف لكنها إذا اشتبكت قوَّى بعضها بعضًا،و كذلك المؤمن مع أخيه إذا صار في أخيه نقص فإن هذا يكمله فهو مرآة أخيه.

وقوله: "**وقوله صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم؛ كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو؛ تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر" (متفق عليه)** ".

الشرح: "**توادهم**" أي: مودة بعضهم بعضًا. "**وتراحمهم**": رحمة بعضهم بعضًا. "**وتعاطفهم**": عطف بعضهم على بعض. "**كالجسد الواحد**" أي: أنهم يشتركون في الآمال والآلام، لأن الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو ولو من أصغر الأعضاء تداعى له سائر الجسد، فهذا المثل الَّذي ضربه النبي عليه الصلاة والسلام مثل مصور للمعنى ومقرب له غاية التقريب.

قوله: "**ويأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضى بمر القضاء**".

الشرح: "**الصبر**": هو تحمل البلاء، وحبس النفس عن التسخط بالقلب أو اللسان أو الجوارح، و"**البلاء**": المصيبة، قال الله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: ١٥٥، ١٥٦]، فالصبر يكون

عند البلاء، وأفضله وأعلاه الصبر عند الصدمة الأولى، وهذا عنوان الصبر الحقيقي، كما قاله النبي صلى الله عليه وسلم للمرأة التي مر بها وهي تبكي عند قبر فقال لها: "اتقي الله واصبري، قالت: إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي صلى الله عليه وسلم، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى" (متفق عليه)، أما بعد أن تبرد الصدمة؛ فإن الصبر يكون سهلًا، ولا ينال به كمال الصبر.

والصبر عند البلاء يكون في أحد أمرين:

الأول: الصبر على بلاء الدنيا؛ ويكون بتحمل المصيبة كما سبق.

الثاني: الصبر على بلاء الدين، فأن يثبت على دينه ولا يتزعزع عنه، ولا يكن كمن قال الله تعالى فيهم: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ} [العنكبوت: ١٠].

"**الشكر عند الرخاء**" الرخاء: هو سعة في العيش، والأمن في الوطن، فيأمرون عند ذلك بالشكر.

"**الرضى بمُرِّ القضاء**": الرضى: أعلى من الصبر. ومر القضاء: هو ما لا يلائم طبيعة الإنسان، ولهذا عبر عنه بـ "المرّ"، فإذا قضى الله قضاء لا يلائم طبيعة البشر، وتأذى به سمي ذلك مُرّ القضاء فهو ليس لذيذًا ولا حلوًا، بل هو مُرّ؛ فهم يأمرون بالرضى بمر القضاء، والمصابون لهم تجاه المصائب أربعة مقامات:

المقام الأول: السخط، وهو حرام بل من كبائر الذنوب مثل أن يلطم خده، أو ينتف شعره، أو يشق ثوبه، أو يدعو على نفسه بالهلاك وغير ذلك مما يدل على السخط؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم:"ليس منا من شق الجيوب ولطم الخدود ودعا بدعوى الجاهلية" (متفق عليه).

المقام الثاني: الصبر: بأن يحبس نفسه قلبًا ولسانًا وجوارح عن التسخط؛ فهذا واجب.

المقام الثالث: الرضى: والفرق بينه وبين الصبر: أن الصابر يتجرع المر، لكن لا يستطيع أن يتسخط؛ إلا أن هذا الشيء في نفسه صعب ومر، لكن الراضي لا يذوق هذا مرًّا، بل هو مطمئن، وكأن هذا الشيء الَّذي أصابه لا شيء.

المقام الرابع: الشكر: وهو أن يقول بلسانه وحاله: "الحمد لله"، ويرى أن هذه المصيبة نعمة.

قوله: "**ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال**".

الشرح: "**مكارم الأخلاق**" أي: أطايبها، والأخلاق: جمع خلق، وهو الصورة الباطنة في الإنسان؛ يعني: السجايا والطبائع؛ فهم يدعون إلى أن يكون الإنسان سريرته كريمة؛ فيحب الكرم والشجاعة والتحمل من الناس والصبر، وأن يلاقي الناس بوجه طلق وصدر منشرح ونفس مطمئنة؛ كل هذه من مكارم الأخلاق.

وأما "**محاسن الأعمال**" فهي مما يتعلق بالجوارح، ويشمل الأعمال التعبدية والأعمال غير التعبدية؛ مثل البيع والشراء والإجارة؛ حيث يدعون الناس إلى الصدق والنصح في الأعمال كلها، وإلى تجنب الكذب والخيانة، وإذا كانوا يدعون الناس إلى ذلك؛ فهم بفعله أولى.

قوله: "**ويعتقدون معنى قوله صلى الله عليه وسلم:"أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا" (رواه أحمد والترمذي)**.

الشرح: هذا الحديث ينبغي أن يكون دائمًا نصب عيني المؤمن؛ فأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا مع الله ومع عباد الله.

- أما حسن الخلق مع الله؛ فأن تتلقى أوامره بالقبول والإذعان والانشراح وعدم الملل والضجر، وأن تتلقى أحكامه الكونية بالصبر والرضى وما أشبه ذلك.

- وأما حسن الخُلُق مع الخَلْق؛ فقيل: هو بذل الندى، وكف الأذى، وطلاقة الوجه، فبذل الندى يعني: الكرم، وليس خاصًّا بالمال، بل بالمال والجاه والنفس، وكل هذا من بذل الندى، وطلاقة الوجه ضده العبوس، وكذلك كف الأذى بأن لا يؤذي أحدًا لا بالقول ولا بالفعل.

قوله: "**ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك**".

الشرح:"**يندبون**" أي: يدعون. "**أن تصل من قطعك**": من الأقارب ممن تجب صلتهم عليك، إذا قطعوك؛ فصلهم، ولا تقل: من وصلني؛ وصلته! فإن هذا ليس بصلة؛ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: "ليس الواصل بالمكافئ، إنما الواصل من إذا قطعت رحمه؛ وصلها" (رواه البخاري)، وسأل النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ، فقال: يا رسول الله! إن لي أقارب؛ أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي! فقال النبي صلى الله عليه وسلم:"إن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملّ، ولا يزال معك

من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك" (رواه مسلم). ومعنى "تسفهم المل"، أي: كأنما تضع التراب أو الرماد الحار في أفواههم، فأهل السنة يندبون إلى أن تصل من قطعك، وأن تصل من وصلك بالأولى؛ لأن من وصلك وهو قريب، صار له حقان: حق القرابة، وحق المكافأة.

"**وتعطي من حرمك**" أي: من منعك، ولا تقل: منعني؛ فلا أعطيه.

"**وتعفو عمن ظلمك**" أي: من انتقصك حقك: إما بالعدوان، وإما بعدم القيام بالواجب، والعفو إنما يكون عند القدرة على الانتقام، فأنت تعفو مع قدرتك على الانتقام لأمرين:

الأول: رجاء لمغفرة الله عزَّ وجلَّ ورحمته؛ فإن من عفا وأصلح؛ فأجره على الله.

الثاني: لإصلاح الود بينك وبين صاحبك؛ لأنك إذا قابلت إساءته بإساءة استمرت الإساءة بينكما، وإذا قابلت إساءته بإحسان عاد إلى الإحسان إليك، وخجل، قال الله تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: ٣٤]، فالعفو عند المقدرة من سمات أهل السنة والجماعة، لكن بشرط أن يكون العفو إصلاحًا؛ فإن تضمن العفو إساءة فإنهم لا يندبون إلى ذلك؛ لأن الله اشترط، فقال: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ} [الشورى: ٤٠]؛ أي: كان في عفوه إصلاح، أما من كان في عفوه إساءة أو كان سببًا للإساءة؛ فهنا نقول: لا تعف! مثل أن يعفو عن مجرم ويكون عفوه هذا سببًا لاستمرار هذا المجرم في إجرامه؛ فترك العفو هنا أفضل، وربما يجب ترك العفو حينئذ.

قوله: "**ويأمرون ببر الوالدين**".

الشرح: البر: إيصال الخير بقدر ما تستطيع، وكف الشر، وبر الوالدين واجب لعظم حقهما، ولم يجعل الله لأحد حقًّا يلي حقه وحق رسوله إلا للوالدين، فقال: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [النساء: ٣٦]، فالوالدان تعبا على الولد، ولا سيما الأم، قال الله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا} [الأحقاف: ١٥]، وفي آية أخرى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ} [لقمان: ١٤]، والأم تتعب في الحمل، وعند الوضع، وبعد الوضع، وترحم صبيها أشد من رحمة الوالد له، ولهذا كانت أحق الناس بحسن الصحبة والبر، حتى من الأب. ولذا قال رجل: يا رسول الله! من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: "أمك". قال: ثم من؟ قال: "أمك". قال: ثم من؟ قال: "أمك". ثم قال في الرابعة: "ثم أبوك" (متفق عليه)، والأب أيضًا يتعب في أولاده، ويضجر بضجرهم، ويفرح لفرحهم،

ويسعى بكل الأسباب التي فيها راحتهم وطمأنينتهم وحسن عيشهم، يضرب الفيافي والقفار من أجل تحصيل العيش له ولأولاده، فكل من الأم والأب له حق؛ ومهما عملت من العمل لن تقضي حقهما، ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: {وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء: ٢٤]؛ فحقهما سابق؛ حيث ربياك صغيرًا حين لا تملك لنفسك نفعًا ولا ضرًّا؛ فواجبهما البر.

والبر فرض عين بالإجماع على كل واحد من الناس، ولهذا قدمه النبي صلى الله عليه وسلم على الجهاد في سبيل الله؛ كما في حديث ابن مسعود؛ قال: قلت: يا رسول الله! أي العمل حب إلى الله؟ قال: "الصلاة على وقتها". قلت: ثم أي؟ قال: "بر الوالدين". قلت: ثم أي؟ قال: "الجهاد في سبيل الله" (متفق عليه).

والوالدان هما الأب والأم، أما الجد والجدة فلهما بر، لكنه لا يساوي بر الأم والأب؛ لأن الجد والجدة لم يحصل لهما ما حصل للأم والأب من التعب والرعاية والملاحظة؛ فكان برهما واجبًا من باب الصلة، لكن هما أحق الأقارب بالصلة، أما البر فإنه للأم والأب.

قوله: "**وصلة الأرحام**".

الشرح: الأقارب لهم الصلة، والوالدان لهما البر، والبر أعلى من الصلة؛ لأن البر كثرة الخير والإحسان، لكن الصلة ألا يقطع، ولهذا يقال في تارك البر: إنه عاق، ويقال فيمن لم يصل: إنه قاطع! وصلة الأرحام واجبة، وقطعها سبب للعنة الله وللحرمان من دخول الجنة قال الله تعالى:{فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ} [محمد:٢٢-٢٣]. وقال النبي عليه الصلاة والسلام: "لا يدخل الجنة قاطع" (متفق عليه)؛ أي: قاطع رحم.

والصلة جاءت في القرآن والسنة مطلقة، وعلى هذا فيرجع فيها إلى العرف؛ فما سماه الناس صلة فهو صلة، وما سموه قطيعة فهو قطيعة، وهذه تختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأمكنة والأمم.

قوله: "**وحسن الجوار**".

الشرح: أي: ويأمر أهل السنة والجماعة بحسن الجوار مع الجيران، والجيران هم الأقارب في المنزل، وأدناهم أولاهم بالإحسان والإكرام: قال الله تعالى: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ} [النساء: ٣٦]، فأوصى الله بالإحسان إلى الجار القريب والجار البعيد. وقال النبي

صلى الله عليه وسلم:"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليكرم جاره" (متفق عليه). وقال: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه" (متفق عليه). وقال: "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن؛ قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه" (رواه البخاري). إلى غير ذلك من النصوص الدالة على العناية بالجار والإحسان إليه وإكرامه.

والجار إن كان مسلمًا قريبًا كان له ثلاثة حقوق: حق الإسلام، وحق القرابة، وحق الجوار.

وإن كان قريبًا جارًا فله حقان: حق القرابة، وحق الجوار.

وإن كان مسلمًا غير قريب وهو جار فله حقان: حق الإسلام، وحق الجوار.

وإن كان جارًا كافرًا بعيدًا فله حق واحد: وهو حق الجوار.

فأهل السنة والجماعة يأمرون بحسن الجوار مطلقًا أيًّا كان الجار، ومن كان أقرب فهو أولى.

قوله: "**والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل**".

الشرح: كذلك يأمر أهل السنة والجماعة بالإحسان إلى هؤلاء الأصناف الثلاثة:

"**اليتامى**": جمع يتيم، وهو الذي مات أبوه قبل بلوغه: وقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى اليتامى، وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم حث عليه في عدة أحاديث، ووجه ذلك أن اليتيم قد انكسر قلبه بفقد أبيه؛ فهو في حاجة إلى العناية والرفق، والإحسان إلى اليتامى يكون بحسب الحال.

"**والمساكين**": هم الفقراء، وهو هنا شامل للمسكين والفقير، فالإحسان إليهم مما أمر به الشرع في آيات متعددة من القرآن الكريم، وجعل لهم حقوقًا خاصة في الفيء وغيره، ووجه الإحسان إليهم أن الفقر أسكنهم وأضعفهم وكسر قلوبهم، فكان من محاسن الإسلام أن نحسن إليهم جبرًا لما حصل لهم من النقص والانكسار.

"**وابن السبيل**": هو المسافر الذي انقطع به السفر أو لم ينقطع؛ لأن المسافر غريب، والغريب مستوحش، فإذا آنسته بإكرامه والإحسان إليه؛ فإن هذا مما يأمر به الشرع، فإذا نزل ابن سبيل بك ضيفًا؛ فمن إكرامه أن تكرم ضيافته.

قوله: **"والرفق بالمملوك"**.

الشرح: وهذا يشمل المملوك الآدمي والبهيم:

- فالرفق بالمملوك الآدمى أن تطعمه إذا طعمت، وتكسوه إذا اكتسيت، ولا تكلفه ما لا يطيق.

- والرفق بالمملوك من البهائم سواء كانت مما تركب أو تحلب أو تقتنى؛ يختلف بحسب ما تحتاج إليه؛ ففي الشتاء تجعل في الأماكن الدافئة إذا كانت لا تتحمل البرد، وفي الصيف في الأماكن الباردة إذا كانت لا تتحمل الحر، ويؤتى لها بالطعام وبالشراب إن لم تحصل عليه بنفسها بالرعي، وإذا كانت مما تحمل فلا تحمل ما لا تطيق، وهذا يدل على كمال الشرع، وأنه لم ينس حتى البهائم، وعلى شمولية طريقة أهل السنة والجماعة.

قوله: **"وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق"**.

الشرح: **"الفخر"**: هو أن يتفاخر الإنسان على غيره بقوله، فيقول: أنا العالم! أنا الغني! أنا الشجاع! وإن زاد على ذلك أن يستطيل على الآخرين ويقول: ماذا أنتم عندي؟ فيكون هذا فيه بغي واستطالة على الخلق.

**"والخيلاء"** وتكون بالأفعال؛ يتخايل في مشيته وفي وجهه وفي رفع رأسه ورقبته إذا مشى، كأنه وصل إلى السماء، والله عزَّ وجلَّ وبّخ من هذا فعله، وقال: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا} [الإسراء: ٣٧]، فأهل السنة والجماعة ينهون عن هذا، ويقولون: كن متواضعًا في القول وفي الفعل، حتى في القول، لا تثن على نفسك بصفاتك الحميدة؛ إلا حيث دعت الضرورة أو الحاجة إلى ذلك؛ كقول ابن مسعود رضي الله عنه: "لو أعلم أحدًا هو أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل؛ لركبت إليه" (رواه مسلم)؛ فإنه رضي الله عنه قصد بذلك أمرين:

الأول: حث الناس على تعلم كتاب الله تعالى.

والثاني: دعوتهم للتلقي عنه.

والإنسان ذو الصفات الحميدة لا يظن أن الناس تخفى عليهم خصاله أبدًا، سواء ذكرها للناس أم لم يذكرها، بل إن الرجل إذا صار يعدد صفاته الحميدة أمام الناس سقط من أعينهم؛ فاحذر هذا الأمر.

"**والبغي**": هو العدوان على الغير، ومواقعه ثلاثة بينها الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله: "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام" (متفق عليه):

- ففي الأموال مثل أن يدعي ما ليس له، أو ينكر ما كان عليه، أو يأخذ ما ليس له؛ فهذا بغي على الأموال.

- وفي الدماء: القتل فما دونه؛ يعتدي على الإنسان بالجرح والقتل.

- وفي الأعراض: يحتمل أن يراد بها الأعراض؛ يعني: السمعة، فيعتدى عليه بالغيبة التي يشوه بها سمعته، ويحتمل أن يراد بها الزنى وما دونه، والكل محرم.

"**والاستطالة على الخلق**" يعني: الاستعلاء عليهم بحق أو بغير حق، والاستعلاء هو أن يترفع الإنسان على غيره، ومعنى قوله: "**بحق**" أي: حتى لو كان له الحق في بيان أنه عال مترفع؛ فإن أهل السنة والجماعة ينهون عن الاستعلاء والترفع، أو يقال: إن معنى قوله: "**الاستطالة بحق**": أن يكون أصل استطالته حقًّا؛ بأن يكون قد اعتدى عليه إنسان، فيعتدي عليه أكثر.

قوله: "**ويأمرون بمعالي الأخلاق، وينهون عن سفسافها** ".

الشرح : "**معالي الاخلاق**": أي ما كان عاليًا منها، كالصدق والعفاف وأداء الأمانة ونحو ذلك.

"**سفسافها**" أي: رديئها؛ كالكذب والخيانة والفواحش ونحو ذلك.

قوله: "**وكل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره؛ فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة، وطريقتهم هي دين الإسلام، الذي بعث الله به محمدًا صلى الله عليه وسلم**".

الشرح: فهذه الحال ينبغي أن يتنبه لها، وهو أننا كل ما نقوله وكل ما نفعله نشعر حال قوله أو فعله أننا نتبع فيه الرسول عليه الصلاة والسلام، مع الإخلاص لله؛ لتكون أقوالنا وأفعالنا كلها عبادات لله عزَّ وجلَّ.

قوله: "**لكن لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة؛ كلها في النار إلا واحدة، وهي السنة والجماعة**" (**رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه**)، **وفي حديث عنه أنه قال:**

**"هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي"؛ صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السنة والجماعة".**

الشرح: **"أن أمته"** يعني: أمة الإجابة لا أمة الدعوة؛ لأن أمة الدعوة يدخل فيها اليهود والنصارى، وهم مفترقون؛ فاليهود على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وهذه الأمة على ثلاث وسبعين؛ كلها تنسب نفسها إلى الإسلام واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

**"كلها في النار إلا واحدة"**: لا يلزم من ذلك الخلود في النار، وإنما المعنى أن عملها مما تستحق به دخول النار، وهذه الفرق غير معلومة لنا، لكنها بلا شك فرق خرجت عن الصراط المستقيم.

**"وهي الجماعة"** يعني: التي اجتمعت على الحق ولم تتفرق فيه.

**"هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي"**: والذين كانوا على ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه هم الجماعة الذين اجتمعوا على شريعته، وهم الذين امتثلوا ما وصى الله به: {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [الشورى: ١٣]؛ فهم لم يتفرقوا، بل كانوا جماعة واحدة، فإذا سئلنا: من أهل السنة والجماعة؟ فنقول: **"هم المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب"**: وهذا التعريف من شيخ الإسلام ابن تيمية يقتضي أن الأشاعرة والماتريدية ونحوهم ليسوا من أهل السنة والجماعة؛ لأن تمسكهم مشوب بما أدخلوا فيه من البدع، وهذا هو الصحيح؛ أنه لا يعد الأشاعرة والماتريدية فيما ذهبوا إليه في أسماء الله وصفاته من أهل السنة والجماعة، وكيف يعدون من أهل السنة والجماعة في ذلك مع مخالفتهم لأهل السنة والجماعة؟! لأنه يقال: إما أن يكون الحق فيما ذهب إليه هؤلاء الأشاعرة والماتريدية، أو أن الحق فيما ذهب إليه السلف، ومن المعلوم أن الحق فيما ذهب إليه السلف . لأن السلف هنا هم الصحابة والتابعون وأئمة الهدى من بعدهم . فإذا كان الحق فيما ذهب إليه السلف وهؤلاء يخالفونهم؛ صاروا ليسوا من أهل السنة والجماعة في ذلك.

قوله: **"وفيهم الصديقون والشهداء والصالحون".**

الشرح: أي: في أهل السنة والجماعة، وقد تقدم معنى الصديقين والشهداء والصالحين.

قوله: "**ومنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى أولو المناقب المأثورة، والفضائل المذكورة، وفيهم الأبدال** ".

الشرح: "**أعلام الهدى**": الذين يستدل الناس بهم ويهتدون بهديهم، وهم العلماء الربانيون؛ فإنهم هم الهداة، وهم "**مصابيح الدجى**" أي: هم مصابيح الظلم، يستضيء بهم الناس، ويمشون على نورهم.

و"**المناقب**": هي: ما يبلغه الإنسان من الشرف والسؤدد.

وأما "**الفضائل**"؛ فهي الخصال الفاضلة، التي يتصف بها الإنسان من العلم والعبادة والزهد والكرم وغير ذلك؛ فالفضائل سلم للمناقب.

و"**الأبدال**": هم الذين تميزوا عن غيرهم بالعلم والعبادة، وسموا أبدالًا: إما لأنهم كلما مات منهم واحد خلفه بدله، أو أنهم كانوا يبدلون سيئاتهم حسنات، أو أنهم لما كانوا أسوة حسنة كانوا يبدلون أعمال الناس الخاطئة إلى أعمال صائبة، أو لهذا كله وغيره.

قوله: "**وفيهم أئمة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم**".

الشرح: الإمام: هو القدوة، مثل: الإمام أحمد، والشافعي، ومالك، وأبي حنيفة، وسفيان الثوري، والأوزاعي، وغيرهم من الأئمة المشهورين المعروفين؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله جميعا.

وخرج بقوله:"**أئمة الدين**" أئمة الضلال من أهل البدع؛ فهؤلاء ليسوا من أهل السنة والجماعة، بل هم على خلاف أهل السنة والجماعة، وهم وإن سموا أئمة فإن من الأئمة أئمة يدعون إلى النار؛ كما قال تعالى عن آل فرعون: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ} [القصص: ٤١].

قوله: "**وهم الطائفة المنصورة**".

الشرح: يعني: أن أهل السنة والجماعة هم الطائفة المنصورة التي نصرها الله عزَّ وجلَّ؛ لأنهم داخلون في قوله تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر: ٥١]؛ فهم منصورون،

والعاقبة لهم، ولكن لا بد قبل النصر من معاناة وتعب وجهاد؛ لأن النصر يقتضي منصورًا ومنصورًا عليه؛ إذًا فلا بد من مغالبة، ولا بد من محنة، ولكن؛ كما قال ابن القيم رحمه الله:

الحَقُّ مَنْصورٌ وَمُمْتَحَنٌ فَلا ... تَعْجَبْ فَهذي سُنَّةُ الرَّحْمنِ

ثم إن النصر ليس نصر الإنسان بشخصه، بل النصر الحقيقي أن ينصر الله تعالى ما تدعو إليه من الحق، أما إذا أصيب الإنسان بذل في الدنيا؛ فإن ذلك لا ينافي النصر أبدًا؛ فالنبي عليه الصلاة والسلام أوذي إيذاء عظيمًا، لكن في النهاية انتصر على من آذاه، ودخل مكة منصورًا مؤزرًا ظافرًا بعد أن خرج منها خائفًا.

قوله: "**الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة؛ لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم، حتى تقوم الساعة**"".

الشرح: هذا الحديث أخرجه البخاري ومسلم بنحو ما ساقه المؤلف عن عدد من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله: "**لا تزال طائفة من أمتي على الحق**"؛ يعني: تستمر على الحق، وهذه الطائفة غير محصورة بعدد ولا بمكان ولا بزمان، فيمكن أن تكون بمكان تنصر فيه في شيء من أمور الدين، وفي مكان آخر تنصر فيه طائفة أخرى، وبمجموع الطائفتين يكون الدين باقيًا منصورًا مظفرًا، وقد تقدم الكلام على بقية هذا الحديث في أول الشرح، وبالله التوفيق.

## الخاتمة

قوله: **"فنسأل الله أن يجعلنا منهم، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يهب لنا من لدنه رحمة؛ إنه هو الوهاب، والله أعلم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا"**.

الشرح: وبهذا الدعاء الجليل ختم المؤلف رحمه الله هذه الرسالة القليلة اللفظ الكثيرة المعنى، وهي تعتبر خلاصة مذهب أهل السنة والجماعة، وفيها فوائد عظيمة، ينبغي لطالب العلم أن يحفظها.

والحمد لله رب العالمين على الإتمام، ونسأل الله أن يتم ذلك بالقبول والثواب، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قمت بمراجعة الكتاب وإضافة ما تدعو الضرورة إليه وحذف ما لا يحتاج إليه في يوم الجمعة السابع عشر من شعبان سنة ١٤١٤ هـ.

وقمت بمراجعته مع المضاف مساء يوم الخميس السابع والعشرين من صفر سنة ١٤١٥ هـ.

### قال أبو أيوب عفا الله عنه:

وقد انتهيت منه تهذيبا وتنسيقا، وضبطا ومراجعة، في تمام الساعة الثالثة عصرَ يوم الخميس الموافق ١٤٣٨/١٢/٢٢هـ – أم الخبر – بيش

والحمد لله رب العالمين

# فهرس
# (تهذيب شرح العقيدة الواسطية)


| العنوان | الصفحة | العنوان | الصفحة |
|---|---|---|---|
| مقدمة التهذيب | ٢ | إثبات صفات أخرى لله تعالى | ١٣٤ |
| مقدمة الشارح | ٤ | إثبات قرب الله تعالى | ١٣٥ |
| شرح مقدمة ابن تيمية | ٥ | إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة | ١٣٦ |
| بيان الإيمان وأركانه | ٩ | مكانة أهل السنة بين فرق الأمة ووسطيتهم | ١٣٨ |
| الإيمان بأسماء الله وصفاته | ١٢ | الأصل الأول: في باب الأسماء والصفات | ١٣٩ |
| تفصيل صفة العلم | ٣٩ | الأصل الثاني : في باب أفعال الله تعالى | ١٤٠ |
| إثبات صفتي المشيئة والإرادة | ٤٥ | الأصل الثالث: في باب الوعيد | ١٤٠ |
| إثبات صفة المحبة | ٤٨ | الأصل الرابع: في أسماء الإيمان والدين | ١٤١ |
| إثبات صفة الرحمة | ٥٢ | الأصل الخامس: في الصحابة | ١٤٣ |
| إثبات صفة الرضى | ٥٥ | فصل: الجمع بين المعية وعلو الله واستوائه | ١٤٥ |
| إثبات صفة الغضب والسخط والكراهية | ٥٦ | فصل في الجمع بين قرب الله وعلوه وفوقيته | ١٥٠ |
| إثبات صفة المجيء والإتيان | ٦٠ | فصل في الإيمان بأن القرآن كلام الله حقيقة | ١٥١ |
| إثبات الوجه لله تعالى | ٦٤ | فصل في رؤية المؤمنين لربهم ومواضعها | ١٥٤ |
| إثبات اليدين لله تعالى | ٦٧ | فصل في الإيمان باليوم الآخر | ١٥٦ |
| إثبات العينين لله تعالى | ٧٢ | فصل في القيامة الكبرى | ١٦٤ |
| إثبات صفتي السمع والبصر لله تعالى | ٧٥ | إعادة الأرواح إلى الأجساد | ١٦٤ |
| إثبات صفات المحال والمكر والكيد | ٧٧ | قيام الناس لرب العالمين | ١٥٦ |
| إثبات صفات العفو والقدرة والمغفرة | ٧٩ | دنو الشمس من الخلائق | ١٦٧ |
| إثبات الاسم لله تعالى | ٨٢ | إلجام العرق لبعض الناس | ١٦٧ |
| تنزيه الله ونفي المثيل عنه | ٨٣ | نصب الموازين | ١٦٨ |
| إثبات استواء الله على عرشه | ٨٨ | نشر الدواوين | ١٧٢ |
| إثبات علو الله تعالى | ٩٣ | حساب الخلائق | ١٧٤ |
| إثبات معية الله لخلقه | ١٠٠ | ورود الحوض | ١٧٧ |
| إثبات الكلام لله تعالى | ١٠٦ | المرور من على الصراط | ١٧٨ |
| إثبات أن القرآن كلام الله تعالى | ١٠٩ | استفتاح باب الجنة | ١٨٠ |
| إثبات أن القرآن منزل من عند الله تعالى | ١١٥ | الشفاعة وأنواعها | ١٨١ |
| إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة | ١١٧ | إنشاء الله قوما لما يفضل من الجنة | ١٨٤ |
| فصل ما جاء في سنة الرسول من الصفات | ١٢٢ | فصل في الإيمان بالقدر | ١٨٨ |
| إثبات نزول الله إلى السماء الدنيا | ١٢٤ | الدرجة الأولى من درجات الإيمان بالقدر | ١٨٨ |
| إثبات الفرح لله تعالى | ١٢٦ | الدرجة الثانية من درجات الإيمان بالقدر | ١٩٣ |
| إثبات الضحك لله تعالى | ١٢٧ | فصل: في الإيمان | ٢٠٤ |
| إثبات العجب وصفات أخرى لله تعالى | ١٢٨ | موقف أهل السنة والجماعة من الصحابة | ٢١١ |
| إثبات الرجل والقدم لله تعالى | ١٢٩ | فصل في كرامات الأولياء | ٢٣٢ |
| إثبات الكلام والصوت لله تعالى | ١٣١ | فصل: في بيان طريقة أهل السنة العملية | ٢٣٦ |
| إثبات العلو وصفات أخرى لله تعالى | ١٣١ | فصل : في منهج أهل السنة | ٢٤٤ |
| إثبات كون الله قِبَل وجه المصلي | ١٣٣ | الخاتمة | ٢٥٩ |